الدكتور عبد العزيز كامل

مَعَ الرَّسُولِ وَالمُجْتَمَعِ

فى استقبال القرن الهجرى الخامس عشر

مؤسسة الصَّبَّاح
للنشر والتوزيع

مع الرسول والمجتمع

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾
وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾

«صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلۡعَظِيمُ»

(الأحزاب : ٤٥ ـ ٤٧)

تقـديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى :

هذا الكتاب :

ترجع أول بحوث هذا الكتاب إلى أواخر عام ١٩٧٥ م وآخرها إلى مطلع عام ١٩٨٠ م . ويضم بهذا إنتاجًا يرجع إلى السنوات الست الأخيرة من القرن الرابع عشر الهجرى .

وهى فترة ــ بكل المقاييس ــ حفلت بالنشاط الإسلامى ، استعدادًا لقرن جديد ، نرجو أن يكون أبناؤنا فيه أكثر منَّا قدرة على حمل أمانة الإسلام : عمرانًا لدياره ، ودفاعًا عنها ، واستعادة لما فقد منها .

شــكر :

جاءتنى فى هذه الفترة دعوات من كثير من الأقطار العربية والإسلامية . ولم يكن من المستطاع الاستجابة لها ــ من موقع عملى الجديد ــ خبيرًا بالديوان الأميرى بالكويت ــ لولا ما وجدته من ترحيب وتشجيع مشكور ، من حضرة صاحب السمو أمير البلاد . فلسموه ، وللدول العربية والإسلامية ، وللهيئات الدولية ، والإسلامية والمسيحية ، التى تفضلتْ بتوجيه الدعوات خالص الشكرِ والتقدير .

فى كثير من الأحيان كنت أستطيع الحضور . وأحيانًا كنت أكتفى بإرسال البحث . وأحيانًا أضطر إلى الاعتذار على موعدة باستجابة مقبلة .

الموضــوع :

ويدور هذا الكتاب حول ثلاثة محاور

الأول : دراسات عن الرسول عليه الصلاة والسلام كقائد ومؤسس دولة ،

وعن نظرته إلى الكون والإنسان ، ثم دراسة مفصلة عن موقفه من التفرقة العنصرية ، وهى متابعة لبحث سابق عن : الإسلام والتفرقة العنصرية (١٩٧٠ م) نشرته هيئة اليونسكو بعدة لغات فى سلسلة : الإسلام والفكر الحديث .

الثانى : دراسات عن المجتمع الإسلامى وقطاعاته : المرأة . الأم . الطفل . الشباب . وعن العمل الاجتماعى ، ونماذج تطبيقية من ماضى الإسلام وحاضره مبنية على مشاهدات ، مع ربطها بالعمل للمستقبل .

الثالث : دراسات منهجية تتجه أساسًا إلى استقبال القرن الهجرى الخامس عشر واقتراحات عملية بشأنه ، مبنية على دراسات تحليلية يُعْنَى بعضها بالعالم الإسلامى ككل ، وبعضها بقضية التغيير فى المجتمع بين الدولة والفرد ، والثالث بمنهج الكتابة عن الإسلام فيما تنشره عنه المؤسسات العلمية العالمية .

مناهج البحث :

واقتضت طبيعة المؤتمرات والبحوث المقدمة إليها أن تتبع ثلاثة مناهج :

الأول : عرض تحليلى يُعْنَى بالإسلام من الداخل فلا يتجاوزه إلى دين آخر .

الثانى : عرض تحليلى متوازٍ .. ومن نماذجه بحث الرسول القائد (قرطبة ١٩٧٧ م) ذلك لأن إعداد هذا البحث كان بناءً على اقتراح من المؤتمر الإسلامى المسيحى العالمى الثانى . وكان عن «محمد وعيسى» عليهما وعلى جميع الأنبياء صلاة وسلام . واختير من كل دين سبعة من المحاضرين .. وكل موضوع يحاضر فيه مسلم ومسيحى على أساس متوازٍ دون مقارنات . وتكون الأسئلة لاستيضاح نقطة ، أو تصحيح مرجع ، أو تصويب خطأ .. وكان المؤتمر الأول (قرطبة ١٩٧٤ م) عن «الإسلام والمسيحية» .

الثالث : عرض مقارن : ومنه نموذجان فى الكتاب أهمها بحث الإسلام من مصادره (باريس ١٩٧٧ م ـ اليونسكو) وكان نقدًا طويلاً للجزء الثالث من كتاب تاريخ البشرية (١٩٧٥ م) الذى بدأت فى إصداره هيئة اليونسكو من عام

١٩٦٣ م . والهدف الرئيسى لهذا البحث هو وجوب الاعتماد على المصادر الأساسية لأى دين عند الكتابة عنه .

وفى بحث «الرسول والتفرقة العنصرية» كان البدء بعرض تحليلى لحياة المصطفى عليه الصلاة والسلام من زاوية مقاومة التفرقة العنصرية ، ثم جاءت بعد هذا دراسةٌ مقارنةٌ مع الأديان الكبرى معتمدة على نصوص هذه الأديان . لأبيِّن أنها تلتقى ، أو تقترب ، أو تحاول الاقتراب ، مما أراده الله للإنسان من كرامة لا يحط منها وضع لونى أو عرقى أو اقتصادى أو اجتماعى .. وإذا كانت سفينة العلم قد انتهت إلى هذا ، فهو فى الإسلام بدء .. وهو هدية رب الناس للناس .

وبعد :

فهذه البحوث بعض ما حضرت من مؤتمرات أو أعددت من دراسات فى استقبال القرن الهجرى الجديد . وهناك بحوث أخرى أرجو أن تجد طريقها القريب إلى التجميع والنشر ، رجوت بها لقومى ودينى خيرًا ، وأدعو أن تكون فى كفة الخير يوم يقوم الناس لرب العالمين .

كتبـــه

عبد العزيز كامـــل

الكويت : ٢ من ربيع الآخر ١٤٠٠ هـ
١٨ مـــن فبرايـــر ١٩٨٠ م

القسم الأول

الرَّسُولُ

صلى الله عليه وسلم

الفصــل الأول

الرسول مؤسس دولة الإسلام

المؤتمر الإسلامي المسيحي العالمي الثاني عن « محمد وعيسى » عليهما الصلاة والسلام . بدعوة من جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية بأسبانيا .

قرطبة : مارس ١٩٧٧ م

الرسول : مؤسس دولة الإسلام

لقد اخترتم مشكورين موضوع الحديث وعنوانه :

«محمد : الرجل السياسى ، مؤسس لمجتمع سياسى ونظام اجتماعى عادل وإنسانى» .

وآثرت أن أقسِّم الدراسة إلى النقاط الآتية :

١ ـ الرسول
٢ ـ الرسالة
٣ ـ فى مكة
٤ ـ فى المدينة
٥ ـ فى المسجد
٦ ـ فى المجتمع
٧ ـ السياسة الداخلية
٨ ـ السياسة الخارجية
٩ ـ الجيش والدفاع عن العقيدة والدولة
١٠ ـ خاتمة .

وفى حدود الوقت المتاح أرجو أن أعرض للملامح الرئيسية فى هذه النقاط :

وأنتم ترون أن البحث لا يتجهُ اتجاهًا سرديًّا تاريخيًّا ، وإنما تقوم هندسته على نقطة مركزية : هى الرسول ، ولد كإنسان ، له حياة ذات طابع أخلاقى مميز ، ثم يأتيه الوحى فتصبح هذه الحياة تعبيرًا حيًّا عن المبادئ التى ينادى بها . ويمضى فترة فى مكة ، يجتمع فيها حوله المؤمنون . وعندما تضيق مكة به يهاجر إلى المدينة ويتخذ منها قاعدة للإسلام . وإذا كانت المدينة جسمًا فإن المسجد كان قلبها . وهذا القلب هو الذى نفخ الحياة الجديدة فى المجتمع . ولهذا المجتمع تكوينه الداخلى ونموه . وينقلنا هذا إلى علاقاته الداخلية والخارجية . وكيف دافع أصحاب قاعدة الإسلام عنها ضد أى غاصب . ولم يستهدفوا إلا رفع كلمة الله . وينتهى الموضوع بخاتمة تلخص نتائجه .

١ - الرسـول

وكان ميلاد المصطفى عليه السلام عام الفيل (٥٧١ م) فى مكة ، حيث البيت الحرام وهو أول بيت وضع للناس ، وينص القرآن الكريم على أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، رفعا قواعد البيت . ومن الأصل الكريم ، وفى جوار البيت العتيق جاء المصطفى .

وتنقسم حياته التى استمرت ثلاثة وستين عامًا إلى ثلاث مراحل متميزة :

الأولى : قبل البعثة واستمرت أربعين عامًا .

الثانية : العهد المكى بين المبعث والهجرة : واستمر ثلاثة عشر عامًا .

الثالثة : العهد المدنى من الهجرة إلى الوفاة واستمر عشرة أعوام .

وأنت تلاحظ القِصَرَ التدريجى فى المراحل ، مع زيادة الأعباء ووفرة ثمار الجهد .

كانت المرحلة الأولى إعدادًا للنبى ، والثانية تكوين الإنسان أو الصف الأول الذى حمل الكثير من مسئوليات العمل ، والثالثة مرحلة الدولة ومنها انبعثت الحضارة الإسلامية .

وإن أهم ما نقف عنده فى مرحلة النشأة ما كان عليه المصطفى . من خُلق كريم ، وقبول عند قومه فكانوا يلقبونه «بالصادق الأمين» وكان من صنع الله أن رباه يتيمًا وتفتحت عيناه على الحياة ليرى أمه أمامه :

هل نذكر هنا أن الأنبياء الثلاثة الكبار كانوا فى رعاية الأمهات : موسى وعيسى ومحمد ؟ ! وهل نذكر أن إسماعيل تركه أبوه فترة من حياته ، فى رعاية أمه هاجر فى مكة ، ثم عاد إليه ، ثم ودَّعه عائدًا إلى الشمال .

وما أعمق تسمية العرب لمكة ، أم القرى . فهى حرم الله الآمن الذى يضم بين يديه الجميع ويسعهم رحمة وبرًّا .

ولئن أذاقه الله فى صباه طَعْمَ الحرمانِ من الحنان باليتم ، ومن الغنى بالعيلة ،

ومن الحيرة إلى الهدى ، فذلك ليكون بعد هذا أبا لكل يتيم ، وكافلاً لكل محتاج وهاديًا لمن ضل سواء السبيل . وأنزل ربنا هذا فى كتابه فقال «ألم يجدك يتيمًا فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث» . (٩٣ : ٦ – ١١)

فهذه المرحلة الأولى كانت تكوينًا إلـٰهيًّا لخاتم النبيين .

ولقد مَارَسَ التجارَةَ وتزوجَ خديجة بنت خويلد ورزقه الله منها ذرية طيبة ، مات ولداه فى صغرهما وعاشت له أربع بنات ملأن عليه البيت سرورًا . وكان يجاور كل عام شهرًا فى غار حراء خالصًا للتأمل ، يُطعِمُ من يمرّ به من المساكين ، فإذا قضى شهره ، انصرف إلى الكعبة ، فطاف بها سبعًا ، ثم عاد إلى بيته ، ولا نجد وصفًا لحياته هذه أدق مما وصفته به خديجة عندما جاءه الوحى .

«والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتقرى الضيف وتحمل الكَلّ وتُكسب المعدوم وتُعين على نوائب الحق» .

٢ ـ الرسالــة

وينزل الوحى على المصطفى ، فما أهم معالم هذه الرسالة ؟

ولكن بين يدى هذه المعالم هل لنا أن نقف وقفة عن إخاء بين الإسلام وأتباع عيسى عليه السلام لأول الوحى ؟

كان لخديجة ابن عم نصرانى هو ورقة بن نوفل ، ولقد حملت خديجة إليه الخبر ، فبشر الرسول قائلاً :

«والذى نفسى بيده ، إنك لنبىُّ هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبنَّ ولتؤذينَّ ولتخرجنَّ ولتقاتلنَّ . ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنَّ الله نصرًا يعلمه» ثم أدنى رأسه من رأسه وقبّله ، وعاد الرسول إلى منزله .

١ ـ لقد جاء الإسلام مصدّقًا لكل نبى ورسول ، ودعا النبى والذين يؤمنون معه إلى ذلك يقول تعالى «آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كُلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله · لا نفرّق بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» (٢ : ٢٨٥).

فنى هذه الآية إيمان بوحدانية الله تعالى ووحدة الرسالة التى حملها النبيون.

٢ ـ والقرآن الكريم يطلق تعبير «المسلم» على جميع الأنبياء والمرسلين فكلهم مسلمون لله : فعن إبراهيم يقول «إذ قال له ربه : أسلم قال : أسلمت لرب العالمين» «٢ : ١٣١» وكذلك أبناء إبراهيم ويعقوب كانت الوصية لهم «يابنىّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون» (٢ : ١٣٢) وكان قول الحواريين عندما سألهم عيسى «من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون» (٣ : ٥٢).

٣ ـ والناس جميعًا فى الإسلام أبناء أسرة كبيرة واحدة أبوهم واحد ، «يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا» (٤ : ١).

٤ ـ والحياة فى الإسلام تقوم على التراحم والتعاون والأخذ بيد الضعيف وفتح مجال العمل للقادر. والله يقول «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» (٩ : ١٠٥) وحذر البخلاء من عذابه إذا حبسوا أموالهم عن المحتاج فقال واصفًا مشهدًا من مشاهد القيامة يواجه فيه هؤلاء بالسؤال «ما سلككم فى سقر ؟ ! قالوا : لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين» (٧٤ : ٤٢ ـ ٤٦).

٥ ـ والإسلام يقر مسئولية الفرد ولا يحمّله وزر غيره وهو يبدأ حياته بصفحة بيضاء مع ربه «من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» (١٧ : ١٥).

ونستطيع أن نجمع هذا كله ـ وغيره ـ فى أساس عريض هو «التوحيد والوحدة» توحيد الله تعالى ـ وحدة الإيمان بكل أنبيائه ورسله ـ وحدة الإنسانية ـ وحدة المجتمع عن طريق التماسك ـ وحدة فى المسئولية تؤدى إلى انطلاق الفرد إلى عمله ومستقبله متعاونًا مع غيره ـ وحدة الحساب والجزاء .. فكلنا سنعرض على ربنا يحاسبنا على أعمالنا «فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرةٍ شرًّا يره» (٩٩ : ٧ ـ ٨) .

٣ ـ فى مكـــة

ولكن هذه الأسس تتعارض حتمًا مع ما كان عليه القوم فى مكة وما حولها . نعم إنها تمجِّد إبراهيم وإسماعيل والنبيين من ربهم . ولكن القوم أضافوا إلى توحيد إبراهيم ما ليس فيه واتخذوا من دون الله أولياء قالوا عنهم «ما نعبدهم إلاَّ ليقربونا إلى الله زُلْفَى .. » (٣٩ : ٣) كانت لهم فضائل أقرها الإسلام كالسدانة والسقاية ورعاية حجاج بيت الله الحرام . وكانت لهم رذائل ونقائص فى الدين والحياة أراد الإسلام أن يقضى عليها .

وجمع الفضائل كلها فى قوله : «لا إله إلاَّ الله» فكلمة الله هى العليا وعلينا أن نطيع ربنا فيما أمر وننتهى عما نهى عنه .

وفى قوله : «محمد رسول الله» والاعتراف بنبوته يقتضى الاعتراف بجميع الأنبياء والمرسلين .

ولقد صدع الرسول بأمر ربه ونستطيع أن نقسم حياته فى مكة إلى ثلاث مراحل أساسية :

١ ـ مرحلة الدعوة الخاصة ، واقتصر فيها على أقرب الناس إليه ، ومن يثق فى حُسن تقبلهم للإسلام ، ومن أقبل عليه من أصحاب القلوب الطيبة من أغنياء وفقراء ، أشرق فى قلوبِهم نورُ الإسلام واستمرت هذه نحو خمس سنوات .

٢ ـ مرحلة الدعوة العامة : واستمرت خمسًا أخرى . وكانت من أقسى ما

شاهدت الدعوات من عسف وجور . وفيها مارست قريش ضد النبي والذين معه كل صنوف الإغراء والإرهاب ، وامتدت إلى الأذى البدنى والتكذيب والسخرية والمقاطعة الاقتصادية والاجتماعية . وعاش المؤمنون فيها ثلاث سنوات فى شِعب أبى طالب . ولنذكر مع هذه الأحاديث ما لقى الحواريون مع عيسى ومن بعده من بطش وتكذيب تحملوه بكل الإيمان والثقة فى نصر الله .

فى هذه المرحلة كانت الهجرة إلى الحبشة بتوجيه من الرسول ﷺ قائلاً : «لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإنها أرض صدق ، وفيها ملك لا يظلم عنده أحد حتى يجعل الله لكم مخرجًا مما أنتم فيه» .

وهنا نجد لقاءً ثانيًا كريمًا بين الإسلام والمسيحية ظل المسلمون يحفظونه بكل عرفان الجميل ذاكرين للنجاشى ما وسعهم به فى أرضه وما وسعه قلبه من إيمان .

٣ ـ المرحلة الثالثة وامتدت من السنة العاشرة إلى الثالثة عشرة وبدأت بانتهاء الحصار الاقتصادى ، وموت خديجة زوج الرسول ، وعمه أبى طالب ، ففقد بهما سندًا عاطفيًا واجتماعيًا ، واشتد الضغط على بنى هاشم فخرج الرسول يعرض نفسه على القبائل فكان منهم المكذبون والمساومون والساخرون والذين عاجلوه بالإيذاء كأهل الطائف . وأكرمه الله بالإسراء والمعراج . ورأى مكانته عند ربه وعند الأنبياء ، واستمد من ذلك قوة جديدة أعانته على الطريق . واستمرت دعوته حتى لقى نفرًا من أهل المدينة : ستة قبلوا الإسلام ، وعادوا من قابل ، وقد أصبحوا اثنى عشر فأرسل معهم الصحابى الشاب مصعب بن عمير يعلمهم الإسلام ويتلو عليهم القرآن . وعادوا إليه فى العام الثالث وقد أصبحوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين . عاهدوه على النصرة وأن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأموالهم .

٤ ـ فى المدينـــة

وإذا كانت مكة هى المدرسة الأولى التى تكوّن فيها الإنسان المسلم ، وخلُصت فيها عقيدته لله ، وتحمل صنوف الأذى ، وتكافل المسلمون غنيهم مع فقيرهم على

حفظ هذه الجماعة الجديدة ، التى تحمل أمانة الإسلام ، فإن المدينة كانت «الدولة» وفيها يمكن أن تقوم للإسلام «حضارة» .

وهنا يطرأ سؤال :

لماذا لم يهاجر النبى مع المهاجرين إلى الحبشة ؟ ولماذا آثر البقاء فى مكة ثم هاجر إلى المدينة ؟

لقد حدد الرسول هدف الهجرة إلى الحبشة بأمرين :

١ ـ فيها ملك لا يُظلَم عنده أحد : وهذا هو الإيواء .
٢ ـ حتى يجعل الله لكم مخرجا مما أنتم فيه : وهذا يجعلها هجرة مؤقتة .

أما المدينة فيتوفر فيها الهدف الأول . ويستطيع الإسلام أن يتخذ منها قاعدة وبهذا يدخل عنصر «الأرض» أو «الإقليم» . ثم يقوم فيها النظام الاجتماعى الجديد وتكون له فيها اليد العليا . وهذا هو ركن «العلاقات الإنسانية فى أوسع صورها» .

والهجرة إلى المدينة ـ بالمنظور العربى ـ يمكن اعتبارها هجرة داخلية من موطن عربى إلى موطن عربى فى شبه الجزيرة العربية . وتختلف هذه الجزيرة عن الحبشة اختلافًا جوهريًّا فى أنها مفتوحة على ماحولها من الأقطار . ولها من قبل الإسلام صلاتها التجارية بما حولها . ولقريش رحلة الشتاء والصيف . وهى من قديم معبر حضارى يقوم أهله بالوساطة التجارية والحضارية وفى هذا تختلف عن الحبشة التى اختارها الرسول ، للإيواء المؤقت ، وإذا كان الرسول قد عرض نفسه على القبائل ، فقد كانت كلها فى نطاق الجزيرة العربية . وبهذا لا نستطيع اعتبار الهجرة مجرد خروج من مكة ، وإنما هى اختيار لموقع أفضل للعمل ، مع حب عميق من الرسول والذين معه لمكة .. مكة التى خرج منها وهو ينظر إليها قائلاً : «ما أطيبك من بلد ، وأحبك إلىَّ ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك» .

وتقع المدينة إلى الشمال من مكة بانحراف قليل نحو الشرق وعلى بعد نحو ٤٥٠ كيلو مترًا ويجمعها أنهما على محور الواحات الممتد من اليمن إلى الشام .

وترتفع الصخور البركانية إلى شرق المدينة وغربها . وتنحدر أوديتها أساسًا من الجنوب والجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى ، وتتجمع فى وادى العقيق . وتتوفر فيها أراضٍ زراعية وموارد مياه تجعل الحياة فيها أكثر استقرارًا .

٥ ـ المسجـــد

دخل الرسول المدينة ومعه أبو بكر الصديق ، والراعى عامر بن فهيرة ، والدليل عبد اللة بن أُريقط ، لا يحملون سلاحًا ولا يقتحمون دارًا . وإنما فتحت لهم المدينة قلبها قبل أن تستقبلهم إليها مهاجرين ، تركوا وراءهم مكة وفى قلوبهم لها أكبر ما يكون الحب ، وأقبلوا على المدينة مؤمنين أعمق ما يكون الإيمان .

وسارت ناقة الرسول حتى بركت فى مربد (مكان لتجفيف التمر) لغلامين يتيمين فى المدينة ، واستقر المقام بالرسول الذى عرف اليتم فى صباه ، فى مكان ليتامى ، لترتفع فيه كل معانى الرحمة والمحبة ، ولقد عوضهم الأنصار عن ذلك المكان ، واستوثق الرسول من ذلك .

ورأى الأنصار من الرسول جديدًا : إنه يشارك بنفسه فى العمل يحمل معهم الأحجار ويبنى معهم لله بيتًا ، ويدعو لهم وهو يبنى ، «اللهم ارحم المهاجرين والأنصار» .

ولنقف معًا قليلاً عند هذا المسجد : لقد أمر بتسوية أرضه وتصريف ما فيها من ماء آسن ، واقتلاع ما فى باحته من النخيل ، وبناه باللبن (الطين غير المحروق) مربع الشكل (طول ضلعه نحو مائة ذراع) [الذراع نحو نصف متر] له أساس فى الأرض ، وجعل له ثلاثة أبواب وأقاموا على جذوع النخل سقفًا متواضعًا من جريد ، وإلى جوار المسجد عدد من الحجرات سقوفها من جذوع النخل والجريد لسكنى الرسول وأهله .

ومن الناحية البشرية كان الأوس والخزرج أقوى القبائل العربية فى المدينة وترجع أصولهم إلى اليمن ، وكانت بينهم فى الجاهلية حروب ، رجوا بعد مرارتها ، أن يلتقوا حول الرسول . وسكن معهم فى المدينة قبائل من اليهود ، جاءوا من

الشمال أهمهم بنو قينقاع ـ غير بعيد عن قلب المدينة التجارى ـ وبنو النضير وبنو قريظة ـ فى أجزاء من عواليها الجنوبية الشرقية ، ولمواقعهم أهمية استراتيجية خاصة : فهى نقاط حاكمة مرتفعة على المجارى العليا للأودية ، وتتوفر فيها موارد المياه ، ولليهود فيها حصون .

حياة المدينة بهذا كانت تقوم على الزراعة والتجارة . وكانت علاقة أهلها طيبة مع قريش فى مكة .

ولنستحضر فى أذهاننا ـ مع هذه البساطة والتواضع ـ أين ولد المسيح . نستحضر مريم وقد أجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، ولنذكر هجرته إلى مصر ، ثم دخوله المتواضع بيت المقدس ، ولنذكر حنوه على الضعيف والمسكين ، ولنذكر إخاءه للحواريين : ذلك لأن أعمال الأنبياء تنبع من نور الوحى ، وسلوكهم هدى ورحمة .

كان مسجد المدينة قلب المجتمع الجديد يرتفع منه صوت الأذان داعيًا إلى الإيمان والتوحيد والعبادة والعمل . تقام فيه الصلوات الخمس وصلاة الجمعة ، وتعقد فيه حلقات العلم . فهو مدرسة وجامعة ، وملتقى تعاد فيه صياغة العقول على أساس من الوحى الذى ينزل على الرسول ، وتنفتح فيه القلوب على الخير ويتجه المسلمون أفرادًا وجماعات إلى العمل الصالح .

كان عليهم أن يهرعوا إليه إذا دعاهم المؤذن ، وأن ينصرفوا منه إذا قضيت الصلاة ، دخولهم إليه لذكر الله ، وخروجهم منه ابتغاءً لفضل الله «يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون» . (٦٢ : ٩ ـ ١٠)

بهذا كان المسجد قلب الحياة الإسلامية ، ينظم دورة الدم فى شرايينها . فى المسجد عودتهم الصلاة : آداب القيادة ، والطاعة ، وتصويب الخطأ ، والمشاركة فى العمل الصالح ، والإخاء .

فى الصلاة لا يكبِّرون حتى يكبّر الإمام . ويتبعونه فى حركاته . وإذا قرأ أنصتوا وإذا أسرَّ بالقول قرأوا ودعوا ربهم : فهذه قيادة وطاعة . وعليهم أن يقفوا صفوفًا متراصة . الغنى إلى جوار الفقير . الأبيض إلى جوار الأسود . السادة إلى جوار الضعفاء : فهذا تطبيق عملى للإخاء . وإذا أخطأ الإمام فعليهم أن يردوه إلى الصواب فى أثناء قراءته : فهذا احترام للحق والصواب وتصحيح للقائد من جنده والحاكم من محكوميه .

والصلاة عبادة يشترك فيها القلب والجوارح واللسان والعقل فهى تستغرق وجود الإنسان كله وتوجهه إلى الله .

وهو فى صلاته يذكر جميع الأنبياء والمرسلين والذين اتبعوهم بإحسان . يتأسى بسيرتهم ويقتدى بهداهم ، ويتقرب إلى الله بمدحهم ..

فالمسجد عقل وقلب . وكما ارتبط بالسياسة الداخلية فقد ارتبط بالسياسة الخارجية ، وفيه كان الرسول يستقبل الوفود ، ويقضى بين الناس ، ويعقد ألوية الجيوش . وفى جانب منه صُفَّة يأوى إليها الفقراء والضعفاء حتى يغنيهم الله من فضله ، وكانوا محلّ الرعاية الدائمة من الرسول ﷺ .

ونستطيع القول إن المسجد كان مقر «الدولة» . مقرها روحًا وسلوكًا . وإن الدوائر الحكومية التى اتخذت لها من بعد ذلك أبنية خاصة ، كان عليها أن تحمل دائما «روح المسجد» حيث تكون .

٦ ـ الإخـــاء

فكيف سرت «روح المسجد» إلى كيان المجتمع إخاء ومحبة ؟

نستأذن أولاً فى وصف حجرة من حجرات النبى ﷺ ذلك لأن الذى يدعو إلى الإخاء ينبغى عليه أن يعيشه ، وأن يواسى بنفسه وسلوكه .

هذا سِتر مسدل على باب حجرته ، وهذا حصير ينام عليه ، يبسطه فى النهار فيجلس عليه . وهذه وسادة من جلد حشوها ليف . وقد ينام على عباءة تثنى

مرتين. وفى ركن الحجرة أدوات متواضعة لطعامه، وهذا سلاحه.. هذا كل شىء فى حجرة خاتم النبيين.

ولم يكن يحب الفقر وكان يستعيذ منه، ويعلِّم أصحابه ذلك، وكان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، ولكن إذا كانت الحياة فيها الأغنياء والفقراء.. فليكن النبى فى صف الفقراء، يعيش حياتهم، وتنحدر من بين يديه الأموال، كما تنحدر المياه من قمة الجبل، وتبقى القمة عالية شامخة تستقبل الماء لتفيض به على الناس. وما جمع الرسول بين قميصين، ولا رداءين، ولا نعلين. كان يخصف نعله ويرقع ثوبه.. وتأتيه الغنائم فيسعد بسعادة الناس حين يوزعها عليهم.

هكذا عاش فى المدينة يستوقفه الطفل والضعيف والمرأة والأَمَة والشيخ الكبير، فيقف ولا ينصرف عنهم حتى ينصرفوا عنه.

ومن هذا الأفق الكريم كان الإخاء فى المدينة.

كان عليه أن يجمع الجبهة الداخلية فى صف واحد: الجميع مسلمون، الأوس والخزرج ومن معهم من مسلمى المدينة: هم الأنصار. والذين جاءوا إليهم من خارج المدينة: هم المهاجرون.

وعاشوا جميعها كأنما يمثلون خلاصة الإنسانية: من الفرس سلمان، ومن الروم صهيب، ومن الحبشة بلال، ومن الديلم فيروز...

كما كانت الجزيرة العربية ممثلة: فأصول الأوس والخزرج يمنية ومن اليمن جاء أبو موسى الأشعرى وأبو هريرة ومعاذ بن جبل. ومن البحرين على الخليج جاء منقذ بن حيان...

ثم أنت تجد فيهم القادة كأبى بكر وعمر، وقادة الجيوش كخالد بن الوليد، وعلماء القرآن كزيد بن ثابت، وعلماء الحديث كعائشة أم المؤمنين، والزهاد كأبى ذر الغفارى، والتجار الناجحين كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف.

وبأى مقياس تقيس هذه المجموعة وتحاول أن تزن ترابطها يضطرب بك الأمر إلا أن تزنها بميزان الإخاء والإيمان.

لقد آخى الرسول أول الأمر بين المهاجرين والأنصار فصاروا يتوارثون . وتقدمت أخوَّة الإسلام على أخوَّة الدم . وكان الأنصار يبادرون إلى الإخاء مع إخوانهم المهاجرين الذين تركوا وراءهم المال والأهل والولد ، وأغلقت دور كثيرة في مكة بعد هجرة أصحابها ، حتى كان الأنصار يقترعون على من ينزل عليهم من المهاجرين . وكل فرد منهم يريد أن يحظى بهذه الكرامة فيؤاخى مهاجرًا ويصفهم الله في هذا بقوله «والذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يُوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» . (٥٩ : ٩)

فلما فتح الله عليهم بعد غزوة بدر صار التوارث بالقرابة ونزل قول الله «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله» (٨ : ٧٥)

وفرض الله زكاة الأموال ـ بمفهومها الواسع ـ وتحددت أنصبة الدولة والفقراء في الثروات الثابتة والمنقولة ، متدرجة من ٢,٥٪ إلى ٢٠٪ وكان بذل الصحابة أكثر من النسب التي قررها الشرع . والنماذج على هذا وافرة من تاريخ مجتمع الإسلام الأول .

وبذلك كان هناك الترابط الروحي والاجتماعي والاقتصادي .

ولقد آثر الأنصارُ المهاجرينَ على أنفسهم عندما استشارهم الرسول في توزيع أرض يهود بني النضير ، في العام الرابع للهجرة ، حتى يستطيعوا الاستقرار في المدينة وممارسة الزراعة فيها ، وتعاون الجميع في الإنتاج وازدهرت في المدينة الحياة .

وتعهد المصطفى هذه القلوب ، وقضى على أية محاولة لتفتيت هذه الجبهة ، سواء جاءت هذه المحاولة من بعض المنافقين الذين أظهروا الإيمان ولم تؤمن قلوبهم ، أو من اليهود الذين عايشوا الرسول في المدينة ، وكرهوا هذه الانطلاقة الواسعة في حياة المجتمع الإسلامي ، بعد أن كانت لهم ـ أي لليهود ـ كلمة مسموعة في حياتها . وفي هذا ينزل قول الله تعالى «واعتصموا بحبل الله جميعًا

ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا» (٣ : ١٠٣) .

وكانت المكائد تتجه أحيانًا إلى الرسول ، وأحيانًا إلى التفرقة بين المهاجرين والأنصار ، وأحيانًا إلى التفرقة فيما بين الأنصار ، وأحيانًا إلى خذلان المسلمين فى ساعة العُسرة ، ونستطيع أن نرى فى سورة البقرة وآل عمران والنساء والأنفال والتوبة والأحزاب ومحمد والمنافقين ... ما لا يقل عن ثلاثين أسلوبًا من أساليب النفاق وحرب الإسلام ومحاولة تفتيت الصف الإسلامى ، وكيف استطاع الرسول أن يقابل هذه الأساليب باللين أحيانًا ، وبالنصح أحيانًا ، وبالشدة المتدرجة والحزم ، حتى يقود سفينته بين أمواج المشكلات ليبلّغ رسالة ربه .

يبدو من هذا أن المؤاخاة سارت فى خطين متفاعلين : خط بنائى ووقائى ، وخط دفاعى وعلاجى .. هذا والقرآن ينزل مسجِّلاً ذلك وعارضًا المشكلات وأساليب مقابلتها . فالتفاعل بين المجتمع والوحى كان مستمرًّا ، والدولة تتكون والوحى ينزل وكانت كلماته وَلُودًا ، تنزل على قلوب مؤمنة ، وسرعان ما تمد جذورها وترفع سوقها وتؤتى ثمارها .

٧ ـ السياسة الداخلية

وأقصد بالسياسة الداخلية ما كان من علاقات بين المسلمين فى المدينة ومن ساكنهم فيها من غير المسلمين ، ثم التخطيط العام لهذا المجتمع .

وبين يدى هذه السياسة نذكر قول الله تعالى «لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم وتُقسطوا إليهم إنّ الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ، ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون» (٦٠ : ٨ ـ ٩)

وفى المدينة أصدر النبى وثيقة تنظم العلاقات الداخلية بين المسلمين ، والعلاقات بينهم وبين من يعيش بينهم من غير المسلمين ، وبخاصة يهود المدينة .

١ ـ ومما جاء فيها «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن لحق بهم وجاهد معهم . إنهم أمة واحدة من دون الناس وأن المؤمنين لا يتركون مغرمًا (مثقلاً بالدين أو كثير الأبناء) بينهم أن يعطوه بالمعروف . وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض من دون الناس» وبهذا يقرر أساس الأمة الجديدة .. أمة العقيدة التى تذوب فيها فروق الإقليمية والعنصرية اللونية أو الطبقية ، وبابها مفتوح لكل من يؤمن بها .

٢ ـ وعن اليهود جاء فى الصحيفة «وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ـ مواليهم وأنفسهم ـ إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته .. وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . وأن بينهم النصح والنصيحة دون الإثم» .

فأهل الكتاب بنص هذه الصحيفة كانت لهم حقوق المواطنة الكاملة يمارسون عبادتهم بكل حريتهم . ويناصحون المسلمين . ويتناصرون فى حماية المدينة . ويتعاونون كلٌّ فى موقعه ـ على حمل أعباء ذلك ، وبهذا اخترق الإسلام جدار التعصب ومصادرة العقائد ، وأقام صرح السماحة والإخاء .

٣ ـ ثم إن كتاب الله وقيادة الرسول أصبحت لها بنص هذه الصحيفة ـ الكلمة العليا فى المدينة ، «وإنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد .. وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد .. وإن ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله» .

٤ ـ وحددت الصحيفة موقف اليهود من قريش «وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب . وإذا دُعُوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، إلا من حارب فى الدين .. وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ..» .

فالدفاع عن المدينة مسئولية يتعاونون فيها ،، وأى باب لصلح فهو مفتوح ، إلا على حساب الدين ، ولكن لنتذكر هذا النص «أن لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم» .

ولأول مرة قامت فى الجزيرة العربية «دولة» على غير نظام القبيلة والدم والإقليمية تتوفر فيها ــ نظريًّا وعمليًّا ــ مقومات المجتمع العالمى : بتكوينها ومبادئها وتطبيقاتها فى الحياة اليومية ،، وبابها مفتوح لكل من يؤمن بالله ورسله واليوم الآخر ويعمل صالحا ، وقلبها مفتوح لكل محب للتعاون والسلام .

٨ ــ السياسة الخارجية

ولنخرج الآن إلى ما وراء المدينة إلى دائرة العالم الواسعة ، بادئين بالجزيرة العربية ، ولنذكر أنه ليست هناك حدود فاصلة بين المبادئ والقرارات ، وأن القرارات فى عالمنا كثيرًا ماتوزن بما وراءها من قوة التنفيذ ، وبهذا يبدو التفاعل المستمر بين المبدأ والقرار والقوة ، ولك أن تقول : بين المبدأ والسياسة ، أو الدبلوماسية والجيش . والسياسة والحرب ــ فى أعماقها ــ حوار بين القوى . وكل منهما امتداد للآخر .

لذلك لم يكن من اليسير على قاعدة الإسلام فى المدينة أن تنطلق إلى العالم الخارجى إلا بعد أن تتماسك عناصرها .. ولم يكن من اليسير على هذه العناصر أن تتماسك ، إلا بإيمانها العميق ، الذى صهرته أحداث مكة ، والسنوات العصيبة الأولى فى المدينة ، والتى اضطر فيها الرسول إلى أن يقابل عداوات ومؤامرات ، أحست قريش معها ، أن محمدًا والذين معه ، قوة ينبغى أن يحسب حسابها ، لا فى مجال الفكر فقط والحوار العقلى ، وإنما فى القدرة على الصمود أمامها وحماية هذا الحق ــ ولو بالسلاح ــ من الأخطار التى تهدده .

صلح الحديبية

ولكن بعد السنوات الخمس الأولى من حياة المدينة ، وتراجع قريش عنها

وفك الحصار المضروب حولها فى غزوة الأحزاب .. إذا هُم يُفَاجَأون بعمل لم يكونوا يحسبون له حسابًا .

لقد دعا النبى أصحابه إلى الخروج معه إلى مكة لزيارة البيت الحرام ، خرجوا فى ثياب الإحرام (إزار ورداء) حاسرى الرءوس ، لا فى ثياب الحرب ، وساقوا أمامهم الهدى (وهى الأضاحى التى سيذبحونها تقربًا إلى الله وإطعامًا لزوار بيته المحرم) ولجأ الرسول إلى مسالك غير مطروقة ليتجنب اللقاء بقريش حتى نزل الحديبية عند منعطف الوادى أسفل مكة وأعلنها صريحة :

«لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها» وتتابعت الرسل بينه وبين قريش . وقابل استفزازاتها بالصبر الجميل الحازم ، وكان كل همّ قريش أن يعود الرسول من عامه هذا ـ لئلا يقول الناس إنه دخل عليهم مكة عنوة . بينما كانوا ـ أمام الناس جميعًا ـ فى تجربة خطرة : إنهم عمليًّا يصدون المسلمين عن البيت الحرام . والمسلمون يتجهون إليه فى صلاتهم ، ويعظمونه ، ويتقربون إلى الله بمدح إبراهيم وإسماعيل وجميع أنبياء الله .

وانتهى الأمر بمعاهدة قال عنها القرآن الكريم ؛ «إنّا فتحنا لك فتحًا مبينًا» (٤٨ : ١) فما هذا الفتح وما دوره السياسى الكبير ؟ لقد اتفقوا وكتبوا صلحًا بينهم : بعقد هدنة أمدها عشر سنوات ، وأن يرجع المسلمون هذا العام ، ولهم أن يدخلوا مكة فى العام المقبل والسيوف فى أغمادها ، وإن لكل قبيلة أن تدخل فى عهدٍ مع أى الطرفين شاءت ، وأن من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليّه فعليه أن يردّه ، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لا تجد نفسها ملزمة بردّه ، واشتد ألم الصحابة من هذه الشروط ورأوا فيها إجحافًا بهم ، وفرحت قريش بعودة الرسول والذين معه دون دخول مكة ، ففى هذا ـ كما رأت ـ ما يحفظ مكانتها بين العرب .. ولكن عمليًّا :

١ ـ كان دخول قريش فى صلح مع المسلمين ـ يمثل اعترافًا صريحًا بدولة الإسلام ، وأنها قوة لها وزنها فى الجزيره العربية

٢ ـ كان الصلح برهنة عملية على أن علاقات الإسلام بغيره من القوى ، ليس

أساسها الصراع والقتال فالله يقول ، «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكّل على الله» (٨ : ٦١) ومن الممكن ، بل من الأفضل ، أن يتعايش الناس . وأن يكون الحوار بالفكر ، والإقناع بالحجة والموعظة الحسنة .

٣ ـ كان الصلح برهنة عملية على أن مكة ليست حكرًا لقريش وللمشركين ، وإنما هى مثابةٌ للناس وأمن .

٤ ـ أدى تجميد الصراع مع قريش فى الجنوب إلى قدرة الرسول على مواجهة مشكلات أخرى فى الشمال : من مراكز التجمع اليهودية ، وأخطار الدولة البيزنطية ، ومن يدور فى فلكها من القوى العربية على أطرافها .

٥ ـ كانت فترة الهدنة فرصة أمان للناس ولقائهم وتحاورهم ، وكثر الحديث عن الإسلام . ولقد دخل فى هذين العامين فى دين الله ، مثل من كان على الإسلام من قبل أو أكثر . لقد كان مع الرسول ﷺ فى الحديبية أربعمائة وألف ، وخرج إلى فتح مكة بعد عامين فى عشرة آلاف .

٦ ـ استطاع الرسول فى هذه الفترة أن يمد الحوار إلى ما وراء مكة جنوبًا ، وانفتح الطريق إلى اليمن ، وفشا فيه الإسلام ، ورأت قريش كيف أن الإسلام ـ عمليًّا ـ حاصرها من الشمال والجنوب . وأنها أصبحت جزيرة من جزر منعزلة وسط هذا البحر الإسلامى الذى يرتفع مدّه من حولها .

٧ ـ من المسلمين الذين هاجروا من بطش قريش بعد الحديبية ، ولم يستطيعوا دخول المدينة بنص المعاهدة ، تكونت قوةٌ أخذت تقطع الطريق على تجارة قريش مع الشام فأرهقت قريشًا حتى سألت الرسول أن يبقيهم عنده .

على الصعيد العالمى :

وفى هذه الفترة ـ ما بين صلح الحديبية وفتح مكة كانت رسائل المصطفى ﷺ إلى ملوك العرب وإلى القوى العالمية المحيطة بالجزيرة العربية فى أرض الروم ومصر وفارس والحبشة .. ورأى المسلمون ورأت قريش وحلفاؤها مستوى العمل الإسلامى وصورًا تطبيقية من عالمية الدعوة الإسلامية .

ولقد كانت وقتئذ ــ معظمُ خطوط القوة واقعة إلى شمال قاعدة الإسلام . وفى النطاق الممتد من شواطىء البحر المتوسط شرقًا إلى ما وراء النهرين حيث دولتا الفرس والروم . وبأيديهما كانت مقاليد الأمور فى هذه المنطقة الوسطى من العالم ، من أجل ذلك سنرى معظم النشاط السياسى والعسكرى فى هذه الجبهات الشمالية .. وما زالت ــ حتى الآن ــ مشكلات تحريرها من أهم التحديات التى تقابل الوجود الإسلامى .

واستقبل بعض الحكام رسل المصطفى استقبالاً كريمًا . واستمعوا إليهم . وردهم البعض ردًّا غير جميل .. واستمر هذا الجهد السياسى والدعوة إلى الله ما بين الحديبية إلى وفاة المصطفى .

وكان فى هذه الرسائل جميعًا تأكيد على وحدانية الله وأن «لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله» . فالتوحيد هو الأساس الذى قام عليه البناء الإسلامى كله . بينما كانت تتنوع الصيغ بعد هذا : من عَرْضٍ بعض جوانب اللقاء بين الإسلام والمسيحية ، كما نرى فى رسالته إلى النجاشى والمقوقس ، مع تحذير من عصيان الله ومخالفة أمره . وإذا ما كان الرسول قد لقى الصدود من قريش عندما وزنت الأمور بموازين المادة الصماء ، فإن المنتظر من رسله إلى الملوك العالميين وقتئذ ألاَّ تلقى كُلَّ الترحيب أو القبول : فالحكم والترف ومواريث السلطان ، قد تكون حجابًا دون الحقيقة . ولكن صوتًا جديدًا كان يقرع أسماع الدول المتداعية من قلب الجزيرة العربية ، وأن عالمًا جديدًا قد بدت أنواره : عالمًا من الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين ووحدة الإنسانية فى إخاء شامل ، فى ظل الإيمان بالله الواحد الأحد ، وصدق الله فى قوله عن رسوله : «وما أرسلناك إلاَّ رحمة للعالمين» (٢١ ــ ١٠٧)

٩ ــ الجيش

ثلاث آيات أودُ أذكرها عند الحديث عن الجيش :

أولاً : «أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإنَّ الله على نصرهم لقدير ، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلاّ أن يقولوا ربُّنَا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله

كثيرًا ، ولينصرنّ الله من ينصره إنَّ الله لقوى عزيز. الذين إنْ مكّنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور» (٢٢ : ٣٩ـ ٤١).

ثانيًا : «وقاتلوهم حتّى لا تكونَ فتنةٌ ، ويكون الدينُ لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلاَّ على الظالمين» (٢ : ١٩٣).

ثالثًا : «وأعدّوا لهم مااستطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوّكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تُظلمون ، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكّل على الله إنه هو السميع العليم».(٨ : ٦٠ ـ ٦١).

ولنعد إلى حياة الرسول التى استمرت ثلاثًا وستين سنة : منها أربعون قبل البعثة ، وثلاث عشرة فى مكة .. فكأن فترة القتال كانت فى السنوات العشر الأخيرة من حياته . وهى فترة المدينة ، وإن القرارات فيها ، اتخذها فى مسئولية النبوة وخبرة العُمر. وهذه المرحلة المدنية قطعها صلح الحديبية إلى دورين واضحين .

إن أمر الله بالقتال كان ردًّا على ظلم وقع على المسلمين بعد أن أُخرجوا من ديارهم ، وصادرت قريش أموالهم ، وعدت على المستضعفين ، وأثارت الأرض من تحتهم والناس من حولهم .. فالقتال بإذنٍ من الله وله أهدافه : ردّ الظلم ، وإقامة الحق فى الحياة ، وحماية الدين وحرية العقيدة . وعلى هذا المنتصر أن يذكر ربه دائمًا ، ولا يغتر بهذه القوة ، وإنما يتخذها سببًا إلى إقامة الصلاة ـ ربطًا بين الناس وخالقهم ـ وإيتاء الزكاة ـ ربطًا بين الناس ، بين الغنى والفقير ـ وأن يأمر بمعروف يشيع به الخير ، وأن ينهى عن منكر لا تستقيم به الحياة ، وأن مردّ هذا كله إلى الله يحاسبنا عليه «فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرةٍ شرًّا يره» (٩٩ : ٧ ـ ٨).

٢ ـ إن الأمر بالقتال فى الإسلام هو لإيقاف فتنة الناس وتعذيبهم ، ولإقرار سلام النفوس والمجتمع . فإذا مااستقر السلام الفردى والجماعى ، كان على الناس

جميعًا احترام الالتزام به ، وإذا خرج عنه خارج ، ظالمًا لنفسه وللناس ، فينبغى إيقافه وردّه عن الظلم .

٣ ـ إن الإسلام يأمر أتباعه باتخاذ أسباب القوة ، قوة الإيمان والأخلاق والتماسك والعلم ، فى كل مجالاته ، للرقى بالحياة ويأمرهم بالتخطيط والإعداد والتنفيذ والمتابعة والتطوير . هذه القوة الشاملة أمر لكل قادر فى الإسلام ، وعندما نصَّ فى الآية على رباط الخيل كان ذلك باعتباره أكبر قوة ضاربة وقتئذ ، وتطبيقها المعاصر يقتضى تحصيل أحدث أنواع المعرفة والمساهمة فى ميادينها ، ووضع العلم المتطور فى خدمة السلام ، وبيّن أن مستوى هذه القوة ينبغى أن يصل إلى «إرهاب» الخصم وكلمة إرهاب هنا ، قد تكون أقرب الاصطلاحات الحديثة إليها ، «ردع» الخصم ، وبهذا تكون القوة قادرة على دعوته إلى التفكير الطويل فى نتائج المعركة قبل خوضها ، وقد تدعوه إلى إيثار الصلح والتفاهم . وفى هذا حقن للدماء وتوفير للطاقات ، كما أمر المسلمين بحساب «الاحتياطى غير المنظور» فى المعركة فى قوله تعالى «وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم» وجعل هذا كله إنفاقًا فى سبيل الله ، وسببًا لإقامة العدل ومنع الظلم .

ولنعد إلى تطبيق سريع لذلك من حياة المصطفى . ومن الممكن أن نقسم مغازيه إلى ثلاث مراحل أساسية :

١ ـ ما قبل غزوة الأحزاب .
٢ ـ غزوة الأحزاب فى العام الخامس للهجرة .
٣ ـ ما بعد غزوة الأحزاب ولها ثلاثة فروع رئيسية :
(أ) فرع شمالى إلى مراكز التجمع اليهودية .
(ب) فرع جنوبى إلى مكة والطائف .
(جـ) فرع متوغل إلى الشمال إلى أطراف دولة الروم .

١ ـ وفى المرحلة الأولى تميزت أربع عمليّات أساسية : غزوة بدر الكبرى وكانت أول انتصار عسكرى للمسلمين ، سبقته مجموعة من السرايا والغزوات

الصغيرة ، أكدت الوجود الإسلامى فى المدينة ، وقامت باستطلاع على جبهة تمتد من الطائف إلى القطاع الساحلى بين مكة والمدينة والبحر الأحمر.

وتَحرّك بعد هذا يهود بنى قينقاع ، وقد ساءهم هذا النصر ، رغم حِلْفهم مع الرسول ، وحاصرهم الرسول ، وأجلاهم عن دورهم .

وعندما أصيب المسلمون فى غزوة أحد ، ورغم عجز قريش عن اقتحام المدينة أو القضاء على الرسول ، وكانا هدفين كبيرين لها ، تحرك يهود بنى النضير فى مؤامرة لقتل المصطفى ، فحاصرهم فى دورهم وأجلاهم عنها ، ووزع أرضهم على فقراء المهاجرين بموافقة الأنصار.

فالطابع الرئيسى لهذه المرحلة أن الرسول لم يعط الفرصة لهؤلاء جميعا أن يتجمعوا ضده ، وثبت له عمليّا كيف أن تحرك اليهود كان على نبض قريش لا على نبض المعاهدة بينه وبينهم .

٢ ــ وتأتى المرحلة الثانية التى سجلها ربّنا فى سورة الأحزاب قائلا عنها «إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدًا » (٣٣ : ١٠ ــ ١١) وتكفى هذه الآية لتصور الموقف الصعب الذى كان فيه المسلمون : من فوقهم فى أعالى المدينة يهود بنى قريظة ، ومن أسفل منهم قريش وحلفاؤها من العرب .

لقد دخل بنو قريظة فى معاهدة سرّية مع قريش ، وصل خبرها إلى الرسول وكادت هذه القوى أن تطبق عليه من الشمال والجنوب ، واستخدم جهدًا سياسيًّا فى إيقاع الشك بين الأعداء ، وثبت أصحابه على مواقعهم فى حماية المدينة ، وهبت الريح قويّةً تقتلع خيام معسكر الأعداء وتكفئ قدورهم .. فانصرفوا ، وعاقب بنى قريظة على خيانتهم وأصدر الحكم فيهم . حكمٌ من الأنصار رضيه الطرفان . وبهذا خلت المدينة منهم .. وتجمعوا هم ومن سبقوهم فى الحصون الشمالية .

٣ ـ بعد العام الخامس رأينا ماصنع الرسول فى صلح الحديبية ، وقد استفاد من هذه الهدنة واستطاع فى العام السابع للهجرة أن يُخضع المراكز اليهودية شمال المدينة فى خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى واعترفوا بالسيادة الإسلامية وصالحهم على نصف المحصول .

كما استطاع تأديب بعض القبائل العربية التى أرادت أن تُغِير على المدينة أو بادرت قبل هذا بالسوء .

وعندما رأت قريش هذا النشاط كله ، وعدا حلفاؤها من بنى بكر على خُزَاعة حلفاء الرسول ، ولم تنفذ قريش عمليًّا شروط صلح الحديبية ، جهز الرسول نفسه بكل التكتم لفتح مكة . وسار إليها فى عشرة آلاف فى رمضان سنة ٨ هـ وهى قوة لم تستطع حيالها مكة إلا أن تغمد سلاحها . ودخل الرسول مكة . وحقن دماء أهلها . وطاف بالبيت بكل التواضع لله ، وارتفع صوت بلال الحبشى على ظهر الكعبة بالأذان ، وما أكرم الإخاء حين يكون الصوت الأول بالأذان على ظهر الكعبة من مسلم أفريقى .. فى دين أسقط فروق اللون والعصبية .. «كلكم لآدم وآدم من تراب . ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى» وخاطب قريشاً « ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرًا ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وبعد فتح مكة تحرك الرسول إلى الحصن القوى الباقى وهو الطائف .. وذلك بعد أن حَطّم الأصنام فى الكعبة وما حولها . وأعادها طاهرة لربّ العالمين ، ومع مقاومة الطائف ، لم يُرِدْ أن يقتحمها على ثقيف .. مؤمنًا أن تركها إلى حين ، سيجعل أهلها يقبلون الإسلام بعد فتح مكة وانتصاره فى حنين .. وهذا ماحدث .. ثم اتجه إلى الجبهة الشمالية ، حتى تراجع الروم عن تبوك ، وأكد بهذا قوة الإسلام وكان فى هذا ماعجّل بانتشار الإسلام فى قبائل الجزيرة العربية اطمئنانًا إلى قوة قاعدته بعد أن كان يحول بينهم وبينه الخوف من حكامهم .

وما كان من أمر دعوة العرب إلى الإسلام أو الحرب .. أدى فعلاً إلى إخماد

السيوف . ولم تقم من أجل ذلك حرب واحدة .. وإنما خَلّى الحكام بين الإسلام وأتباعهم فدخلوا فى دِين الله أفواجا .

ولنذكر من وصايا الرسول ﷺ لقادة جنده عند الحرب ، «انطلقوا باسم الله وبالله ، ولا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلاً ولا امرأة ولا عسيفًا (أى أجيرًا) ولا تَغُلُّوا (أى يحجز أحد جزءًا من الغنيمة لنفسه) ولا تغدروا ولا تمثّلوا .. ولا تقتلوا أصحاب الصوامع (يعنى الرهبان المتفرغين للعبادة) وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين».

خاتمة

وبعد : فهذه رحلة مع المصطفى عليه الصلاة والسلام والذين معه ، رأينا فيها كيف يبنى الحياة : الإنسان أولاً . الدولة ثانيًا . الحضارة ثالثًا . على أسس من الإيمان والعمل والقدوة ، ودعوة المجتمع إلى القوة : قوة الإيمان وقوة العلم . وشجع العلم فى مجتمعه حتى جعل فداء الأسير فى غزوة بدر تعليم عشرة من أبناء المسلمين . وجعل العلم قرين الحرية . ولقد عاش الرسول حياته فى زهد كبير كأفقر ما يعيش الناس ، سعادته أن يسعد من حوله ، ونحن حين ننظر إلى تخطيطه لبناء الفرد والأسرة والمجتمع ثم لتخطيط السياسة والحرب ، نرى كيف ينسج هذا كله فى رداء واحد متجانس ، رغم تعدد المجالات والآفاق التى يعمل فيها . ولقد كان فى بيته وأهله مدرسةٌ لهذا كله : وعاش أهله معه هذا الزهد ، وخيرهُنَّ بين ترك البيت النبوى بسراح جميل ، إنْ أردن الحياة الدنيا وزينتها ، أو البقاء فيه على الزهد والإقلال والقيام بمسئولية تعليم كتاب الله والحكمة كأمهات للمؤمنين ، فاخترن البقاء فى هذه المسئولية السامية .

وينزل قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا »(٥ : ٣) .

ويزداد أثر الجهد المبذول على صحة المصطفى ، ويثقل به المرض ، وتتحرك شفتاه «بل الرفيق الأعلى» وينتقل إلى جوار ربه .... وإذا ما كان تأثير الرسول يقاس بما ترك وراءه من أثر ، وما بنى فى حياته من رجال ، وما استطاع أن يلهم الأجيال من تقدم وتطوير ، فلقد كانت دولة الإسلام فى المدينة ورجالها ، نموذجًا للدولة العالمية : إيمانًا بالله ، وحبًّا للإنسان ، وتقديرًا للعمل والعلم ، ودعوة إلى السلام وحماية له .

كلمة تحية باسم المسلمين العرب فى ختام
المؤتمر الإسلامى المسيحى العالمى الثانى فى قرطبة
١٩٧٧/٣/٢٨

السيد الرئيس

إخوانى وأخواتى

ها هى أيام اللقاء قد آذنت بانتهاء. وما أقرب اللقاء إلى الوداع، وبينهما عبرنا معًا هذه التجربة الجديدة من الحوار الإسلامى المسيحى. ساعات مرت هادئة صافية، وساعات ارتفعت فيها حرارة الحوار، واشتدت رياحه. لكنها لم تعصف بالأوراق بين أيدينا، ولا بالإيمان فى قلوبنا، ولا بالثقة فى مستقبل عملنا.

ومن أول الأمر كنا نعلم أن الطريق فيها عقبات، ولكنا كنا نود دائما أن ننزع عقبات الطريق وأشواكه، وأن نزرع على جوانبه شجرًا نستظل به، وزهرًا نشم عبيره. ومع اختلاف سيظل قائما، فإن مزيدًا من الاحترام المتبادل والحوار الودود كان وسيظل هدفًا مشتركًا. نود أن نتعود الاستماع إلى بعضنا البعض، وأن نؤكد معنى الإيمان. إن الإيمان يتعرض فى عالمنا المعاصر لأخطار. وما نود أن يظل الإيمان نظريًا، ولكن أن يجد الدين تعبيره العملى عدلاً وإخاءً، وعونًا على إعادة الحقوق إلى أهلها.. وإلا كنا نصمّ آذاننا عن الحياة من حولنا وعن أصوات عالية، لها من الحقوق ما تستطيع به أن تدخل به علينا جلساتنا، وترفع صوتها فوق صوتنا. وأولها صوت إخوانكم أهل الأرض المقدسة، فى العودة إلى ديار طال حنينهم إليها. وإذا كنا فى مؤتمرنا السابق قد اتخذنا قرارًا بذلك، فإننا نود أن نؤكد مرة أخرى، أننا نذكر قراراتنا، وحق الإخوة الفلسطينيين والعرب من مسلمين ومسيحيين، فى أرضهم المغتصبة ووطنهم السليب، وحق كل مظلوم فى ردّ الظلم واستعادة الحق.

أيها الإخوة والأخوات :

وبعد الربط بين اللقاء الأول والثانى .. أرجو أن أعبر لكم باسم إخوتكم المسلمين العرب : لأسبانيا ملكًا وحكومة وكنيسة وشعبًا ، ولقرطبة إدارة وكنيسة وشعبًا ، وللجمعية الصداقة الإسلامية المسيحية ، ولكل القائمين بأمرها ، وكل من جمعت فى هذا اللقاء من علماء وباحثين وأصدقاء ، ولكل من أعان على نجاح هذا اللقاء أو ساهم فيه ، لهؤلاء جميعًا خالص الشكر والتقدير على قلوب وعقول متفتحة بالإيمان والعلم والإخاء .

أيها الإخوة والأخوات :

وهل تأذنون لى بالتعبير عما جال بخاطرى حول هذا اللقاء .. لقد نظرت إلى أبعاده الزمنية ، فإذا به أوسع من الزمان . لقد تحدثنا عن النبوات . وتحدثنا عن الوجود . وعن خالقنا : هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم . نعم : كان محور الحديث عن محمد وعيسى عليهما وعلى جميع الأنبياء صلاة وسلام . ولكنه اتسع إلى البدء والخلود .

ونظرت إلى أبعاده المكانية ، فوجدته يضم الأرض والسماء ، والعمل والجزاء ، والدنيا والآخرة .

وحاولنا أن نكون نقطة مضيئة على الطريق الطويل ، وفى الأفق العريض ، بكل ما فى طاقاتنا من علم وإيمان وحب واحترام متبادل .

وتذكرت صلاتنا فى المسجد الكبير ، وهناك ـ بعد الصلاة ـ انتحيت مكانًا هادئًا ، فوجدت المسجد والكون كله يتداخلان أمام عينى وفى قلبى

كان المسجد صورة من الكون الكبير ..
هذه الأرض الممتـــدة ..
هذه القباب من فوق كأنها نماذج من قبة السماء ..
هذه المصابيح المعلقة كأنها النجوم ..

هذه الأعمدة بتيجانها المتفرعة كأنها أشجار يأوى إلى ظلالها الراكعون الساجدون ، أو أيد مرتفعة بالدعاء يوم الحج الأكبر فى عرفات ، وتتعانق أقواسها رامزة إلى التعاون ..

هذا الإتقان فى البناء كأنه دعوة دائمة إلى إتقان العمل فى كل شىء .

هذه الهندسة الدقيقة كأنها قوانين الوجود ..

دقيقة كأدق ما يكون القانون . جميلة كأروع ما يكون الجمال ..

هذه الخطوط الزخرفية ، وفيها آيات الله ، كأنها نهر يمثل فى جريانه المستمر ، البقاء والخلود ، وكأن حدود الزخارف ، ضفاف النهر التى تحدد جريانه ..

وننظر إلى آيات الله تشرق علينا نقرؤها بالعين والقلب فنرى نورًا من الوحى ونورًا من السماء ونورًا من القلوب «نورٌ على نورٍ يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىءٍ عليم» (النور : ٣٥)

وساءلت نفسى :

ألا نجد فى هذا خلاصة لما يدعونا إليه الله ؟

إيمان ينير القلب ، وقانون ينظم الحياة ، وتعاون بين الناس ، وربط بين الخلود والحدود ، وبين الأرض والسماء ، وجمال يبدو به وجه الوجود .

كان المسجد أمامى كتابًا مفتوحًا ، ولكل خط من خطوطه معنى وصورة . إنه آية عابد ، وقصيدة شاعر ، وإنتاج مهندس ، ومثابة عالم ، وفن رفيع ، وكتاب كريم للتعاون عبر القرون .

أيها الإخوة والأخوات :

ورأيت من حولى إخواننا المسيحيين . ورأيتهم - من بعد - فى صلاتهم وسمعت دعاءهم ، فى وجوههم بسمة الإخاء . وفى أيديهم مصافحة الترحيب تنبئ عما تحمله القلوب من مودّة .

مودّة جعلت أيديهم الطيبة تفتح لنا أبواب المسجد ، نؤدى فيه الصلاة ، فأعادوا بهذا إلى قرطبة صورتها الإنسانية الشاملة التى عاشت بها قرونًا ، يصلى فيها

المسيحى ويصلى فيها المسلم ، وتلتقى الأديان فى مودّة وقبل أن يفتحوا المسجد للصلاة فتحوا قلوبهم لإخوانهم الذين جاءوا إليهم من مشارق الأرض ومغاربها .

أيها الإخوة :

إننا نحس أننا بأمر ربنا نبنى حياة إنسانية جديدة . وحمدًا لله أن الأيدى المتعاونة تلقى أستارًا على مرحلة كانت تسودها الصراعات الأليمة .

مرت هذه المرحلة ، وها نحن فى قرطبة ـ مدينة السلام ـ نمضى فيها أيامًا : علماء طالبى علم ، بكل التواضع لله . نلتقى فى قاعات العلم وجلسات الحوار ويعرض كل منا على أخيه ما عنده من معرفة ، وما اتخذه من مناهج ، وما أعد من بحوث ، بكل الاحترام .

وما أشد حاجتنا إلى هذه الروح الأخوية .

لقد سمعنا كلمات طيبات من إخواننا المسيحيين عن رسولنا المصطفى عليه السلام . وسمع منا إخواننا المسيحيون ما نحمله فى قلوبنا من حب وتوقير لعيسى ومريم عليهما السلام . إن أبناءنا يحملون اسم عيسى ، وبناتنا يحملن اسم مريم . والقرآن يمجدهما معا . ونتلو فى صلاتنا مدحهما ونتقرب إلى الله بالصلاة عليهما وعلى جميع الأنبياء والمرسلين .

ونحن فى أقطارنا عشنا ونعيش هذه المودّة ، ونحاول دائمًا أن نعيد الصفاء إلى أفق محبتنا إذا ما غشيته سحابة طارئة . وتعودتْ عيوننا أن ترى مآذن المساجد وأبراج الكنائس . وتعودتْ آذاننا أن تسمع صوت المؤذن ودقّة الناقوس . وتعودتْ دروب القدس الشريف ـ قرونًا ـ فى ظل السماحة الإسلامية أن تشهد أفواج العابدين إلى معابدهم بكل سكينة وأمان .

أيها الإخوة والأخوات :

وكأن قرطبة أصبحت «قدس الغرب» . مدينة السلام التى عرفت المسيحية والإسلام ، ويلتقى فى ساحة هذا المكان الطاهر أتباع عيسى ومحمد عليهما وعلى جميع الأنبياء صلاة وسلام .

هل نحن ندرك أبعاد هذه الخطوة الإنسانية الكبيرة التى نخطوها . وهل ندرك جمال الزهرة التى نقدمها إلى أمنا الإنسانية فى يوم لقائنا الذى يمكن أن نسميه «يوم الإخاء» ؟

أيها الإخوة والأخوات :

ومع ختام كلمتى هل تأذنون فى أن نتواصى بما يأتى :

أولاً : تأكيد مقررات اللقاء الأول فى عام ١٩٧٤

ثانيًا : أن نحدد لما نستقبل من لقاءات مناهج علميّة ، ومناطق عمل مثمرة ، نستطيع أن نفيد منها فى حياتنا العلمية والعملية .

ثالثًا : مع التقدير للتوصية التى صدرت من المجمع الثانى للفاتيكان عن الإسلام ولما جاء فى كلمة سيادة الكاردينال ترانكون ـ أسقف مدريد ـ فى افتتاح هذا اللقاء ، من أنه ليس من المنطق أن نحترم الإسلام ولا نحترم نبيه ، نأمل أن يصدر من المراجع الكنسية ما يعمق هذا الاتجاه الكريم والتوصية باحترام الأنبياء جميعا فيما نكتب .

رابعًا : أن يكون العرض الموضوعى للدين ، على أساس ما يؤمن به أهله ، وأن يفصل بين العرض الموضوعى وبين التعقيب الذى يرى أهل الدين إضافته . وأن نتعاون فى ذلك على المستويات العلمية والأكاديمية والعامة .

أيها الإخوة والأخوات :

بكل الثقة فى تأييد الله لكل قول مخلص ، ولكل خطوة على طريق الحق ، وبكل الأمل فى عونه تعالى وتأييده أكرر شكرى لكم جميعًا باسم الوفود العربية الإسلامية فى هذا اللقاء وأودعكم داعيًا الله أن يثبت على طريق الحق خطانا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

الفصل الثانى

نظرة الرسول إلى الكون والإنسان

المؤتمر العالمى الأول للسيرة النبوية بدعوة من وزارة الشئون الدينية ـ حكومة باكستان .

وقد عقدته فى كراتشى ولاهور وإسلام أباد وبشاور فى ذكرى المولد النبوى الشريف : ربيع الأول ١٣٩٦ هـ ـ مارس ١٩٧٦ م

نظرة الرسول إلى الكون والإنسان

عندما دعيت إلى هذا المؤتمر الإسلامى العالمى للسيرة النبوية آثرت أن أختار «نظرة الرسول إلى الكون والإنسان» موضوعًا لحديثى إليكم .

ذلك لأن دراسات السيرة ـ عمومًا ـ يمكن أن نقسمها إلى قسمين رئيسيين :

الأول : تحقيقى : يستهدف تمحيص حقيقة أو نص تاريخى

الثانى : دراسات وثيقة الصلة بقضايا الحياة المعاصرة والمتجددة .

وإذا ما كانت لبحوث التحقيق قيمتها وأدواتها وجدواها ، باعتبارها تحافظ على المادة الأساسية للسيرة ، وتنفى عنها الخطأ ، وتضيف إلى المكتبة النبوية ما أبدعته العقول المؤمنة عبر القرون من تراث متصل بها ، فإن القسم الثانى هو ثمرة مرجوة من القسم الأول يفتح الطريق أمام الإنسانية المعاصرة لترى المزيد من الضوء النبوى فى وقت تشتد فيه حاجتها إلى هذا الضوء ، وهى تشق طريقها ، تتجاذبها الصراعات بين القوى والمطامع .

وأملنا أن يكون من لقائنا هذا ما نستطيع أن نوقد به بعض المصابيح ، بأقباس من نور النبوة ، متذكرين دائما قول ربنا :

«يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا» (الأحزاب : ٤٥ ـ ٤٦) .

قبـل البعثـة

ويقيم الإسلام بين الإنسان والكون محبة تشمل أرضه وسماءه ، وآفاقه ، وحيوانه ونباته ، كما يقيمها بين الناس إخاءً شاملاً .

ولنعد إلى الرسول ﷺ فى الفترة التى كان فيها ربنا يصطنعه لرسالته ، وقد امتدت أربعين عامًا .

إنه لم يكن يعلم أنه الرسول المنتظر. وهذا كتاب الله يسجل «وما كنت ترجو أن يُلقَى إليك الكتاب ، إلا رحمة من ربك» (القصص : ٨٦) . فهذا غيب حجبه الله حتى جاءه الوحى .

ولكنا نجد فى القرآن مشاهد من هذه الرعاية الربانية ، مثال ذلك قوله تعالى «ألم يجدك يتيمًا فآوى : ووجدك ضالاً فهدى : ووجدك عائلاً فأغنى» (الضحى : ٦ – ٨) . وقوله تعالى «وإنك لعلى خُلق عظيم» (القلم : ٤) .

هذا الإيواء فى اليتم ، والإغناء عن العيلة ، والتكوين الخُلُقى الكريم ، كان قبل بعثته .

وإذا كان هذا بعض ما ذكره القرآن عنه ، فقد وصفه قومه بأنه «الصادق الأمين» ورضوه حكمًا بينهم فى خلافهم حول وضع الحجر الأسود عند إعادة بناء الكعبة .

وتصف السيدة خديجة هذا الخُلُق الطيب ومجالات ظهوره ، فتقول له عندما جاءه الوحى :

«والله لا يُخزيك الله أبدًا . إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكَلَّ وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق» (المشكاة ٣ : ١٤٧)

ولقد كان هذا منه قبل البعثة صلة كريمة بكل من حوله ومن يتصل بهم يشهد بها أقرب الناس إليه .

ونقف فى هذا الحديث عند قول أمنا خديجة الكبرى «والله لا يُخزيك الله أبدًا» ..

فذكر الله والقسم به ومعرفته كانت قائمة .. وإن كانت عند كثير من أهل مكة غائمة وليست واضحة . وقد جاء الإسلام ليعيد إلى عقيدة التوحيد صفاءها الأول وليعبد الناسُ ربهم الذى خَلَقهم والذين من قبلهم ، ولا يجعلوا له أندادًا .

وإذا ما كان فيما ذكرنا حبًّا من الرسول ـ قبل بعثته ـ للإنسان ، ومسارعة إلى معونته ، وحبًّا فيما كان عليه إبراهيم وإسماعيل من نقاء العقيدة .. فلقد كان فيه أيضًا حُب لهذا الكون الذى أبدعته قدرة الله .

لقد كان يحب العزلة وقضاء الأيام والليالى ذوات العدد فى غار حراء ، ليس معه كتاب إلا كتاب الكون المفتوح أمامه ، يطلّ عليه من غاره النائى ، كأنه فى شُرفَة بين السماء والأرض . ويرى فى صفحاته نجوم السماء كأنها زهور مضيئة . ويسبح قمره فى جلال الصمت . يبدو وجهه سافرًا ، وتغطيه أحيانًا غلالات من السحاب .. ويمضى الليل ، وتطلع الشمس من وراء الأفق ، تسبقها أشعة يحتفل بها المشرق ، فإذا بالحياة تدبّ ، وينطلق الطير باحثًا عن رزقه خفيفًا نشيطًا . وما تلبث الحياة أن تتواصل حركاتها ، والشمس تصعد إلى قبّة السماء ، ضياؤها تسبيح يعمّ الوجود .. وتتقاصر الظلال ، وتهدأ الحياة عند الظهيرة ، ثم تهبّ نسائم الأصيل . وتقترب الشمس من المغرب فى ركوع تتهيأ به لسجود الليل الطويل ، لتعود مع الفجر ، تنشر شعاعها ، وترفع جبينها من سجودها مع الصبح الجديد .

لا يستطيع أن يبقى الأيام والليالى ذوات العدد فى غار حراء إلا قلب شديد التآلف مع الكون الكبير . وما نريد أن نقحم أنفسنا على ما كان يدور فى خلد الرسول قبل بعثته ، وهو يمضى أيام عزلته يأنس بالسكون والصخر ، والظلمة والنور ، والظل والحرور .

وإنه مع تآلفه هذا مع الكون الكبير ، كان متآلفًا مع الإنسان . ولك أن تقول : إنه كان متآلفًا مع الوجود ، صامتًا ومتحدثًا ، ساكنًا ومتحركًا .. وإن خاتم الأنبياء والمرسلين كان يُعَدُّ هذا الإعداد الربّانى ، ليكون أقدر ما يكون على حمل رسالة ترمى إلى تآلف الإنسان مع الإنسان ، والإنسان مع الكون ، فى عبودية لله ينعم فيها بحب من الله ومع الله .

أولاً : الإنسـان

نفس واحدة

نظرة الإسلام إلى الإنسان كما يحددها القرآن الكريم : أننا جميعا من نفس واحدة :

«ياأيها الناس اتقوا ربّكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيرًا ونساءً ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبًا» (النساء : ١) .

ونحن كما يعلمنا الرسول الأعظم أسرة كبيرة واحدة «إنّ ربّكم واحد . وإنّ أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب» قال هذا فى خطبته المشهورة فى حجة الوداع .

الوحدة فى التنوع

وتنظر حولك فترى الناس مع وحدة الخلق متباينين : تختلف ألسنتهم وألوانهم وتصرفاتهم ، مع أن الله خلقهم من نفس واحدة . ويشرح لنا المصطفى ﷺ ذلك فى قوله :

«إن الله خلق آدام من قبضة قبضها من جميع الأرض . فجاء بنو آدم على قدر الأرض : منهم الأحمر والأبيض والأسود ، وبين ذلك . والسهل والحزن ، والخبيث والطيب » (رواه أحمد والترمذى وأبو داود عن أبى موسى ـ المشكاة ١ : ٣٦)

فنى الحديث يلفتك إلى ما حولك من ظواهر الأرض : فى صخورها ، وتربتها المتباينة لونًا ، وفى سطحها المتباين انبساطًا ووعورة ، وأنت تنظر إلى ذلك كله فتراه فى تنوعه متكاملاً .. إنه الأرض التى تضم ذلك كله. وأنت : ألست من هذه الأرض ، مصداقًا لقول الله تعالى « والله أنبتكم من الأرض نباتًا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجًا» (نوح : ١٧ ـ ١٨) . فليكن الإنسان هذه

الأرض مصغرة بكل ظاهراتها .. بل إن هذا الشعاع الذى تراه فى وحدته ، ألاَ يجمع ألوان الطيف كلها ؟ ومنه تبدو الألوان إذا مرت على منشور زجاجى ، أو انعكست كقوس قزح فى صفحة السماء .

وأنت مدعو بدعوة الرسول إلى آن ترى هذا الإنسان فى وحدته الأولى .. وألا تفقد هذه الوحدة وأنت تراه متنوعًا . وإذا ما أخذنا اصطلاحًا حديثًا كان الوجود الإنسانى قائما على أساس «وحدة الإنسان فى تنوعه» .

لا عصبيـة

· وهذا التباين لا يعدو عند المصطفى ﷺ أن يكون مظهرًا لقدرة الله تعالى .. وآيات للتدبر وزيادة التقرب إلى الله بالعبادة ، ومن الناس بالإحسان إليهم ..

أما أن يتخذ البعض ـ فى عصور وأقطار ـ من هذا التباين مادة استعلاء أو انتقاص ، ويحاولون تقسيم المجتمع على أسس لونية أو طبقية أو عنصرية فأمورٌ جاء الإسلام ليضع لها ميزانًا لا تضطرب به الحياةُ ولا يضل الأحياء ..

يقول عليه الصلاة والسلام «ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل عصبية وليس منا من مات على عصبية» (أبو داود عن جبير بن مطعم ـ المشكاة ٢ : ٥٩٥)

· ويفرق بين حُب الإنسان قومه ـ وهو أمر فِطرى ـ وبين الانحياز إليهم بالباطل ويسأله رجل :

يارسول الله أمن العصبية أن يحب الرجل قومه !

قال : لا . ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم (أحمد وابن ماجة المشكاة ٢ : ٩٦٢)

ومازالت التفرقة العنصرية من أخطر ما تتعرض له الإنسانية فى عصورها المتتابعة ، وعليها تقوم أمم وشعوب وأديان تهدر كرامة الإنسانية فى جوهرها الواحد ، وتقف عند حدود لون البشرة أو المكانة الاقتصادية والتقسيم الاجتماعى .

بينما أعطت جماعة المسلمين فى مكة ومجتمعهم الأول فى المدينة النموذج العملى لهذا الإخاء .

نماذج من فجر الإسلام

١ ــ فمن الناحية اللونية كان فيهم بلالٌ الحبشى وصهيب الرومى وسلمان الفارسى .

٢ ــ ومن الناحية الاقتصادية كان فيهم الثرى السابق إلى الإسلام كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ، والفقراء كآل ياسر .

٣ ــ ومن الناحية الاجتماعية كان فيهم قوم من ذؤابة قريش كمن آمن من بنى هاشم ، وقومٌ من غمار الناس .

٤ ــ وكان فيهم مهاجرون من مكة ، وأنصار من المدينة . وبعبارة أخرى : جمعت المدينة بين عناصرٍ من أصولٍ عدنانيةٍ وقحطانيةٍ وهما القسمان الرئيسيان لعرب الجزيرة .

٥ ــ وكانت فيهم أعمار متباينة جمعها الإيمان فى ظلال الإسلام والنبوة : فعند الهجرة كان الرسول فى الثالثة والخمسين من عمره . وكان مصعب بن عمير دون العشرين أو زهاءها . وكان عبد الله بن الزبير ابن أسماء بنت أبى بكرٍ أول من ولد مسلمًا للمهاجرين فى المدينة .

فالمجتمع الإسلامى الأول لا نستطيع أن نقيمه على أساسٍ لونىٍّ أو طبقىٍّ أو اجتماعىٍّ وإنما كان خلاصةً للإنسانية ونموذجًا لها .

ويطيب لكثير من الكتاب أن يذكروا أن الوظيفتين الرئيسيتين فى مسجد المدينة ــ وهما الإمامة والأذان ــ كانتا تمثلان هذا الإخاء الإنسانى الكريم : الأولى للنبى العربى القرشى الهاشمى ، والثانية لبلال الحبشى .

التفاضل بالتقوى

ويوضح الرسول ﷺ أساس التفاضل فى الحياة . وأنه أمر كسبى يستطيعه من

أراد أن يبتغى إلى ربه سبيلاً ، فيقول حاثًا الناس على العمل الصالح فى خطبة الوداع :

«ألا لا فضل لعربيٍ على عجمى ، ولا لعجمى على عربيٍ ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى . إن أكرمكم عند الله أتقاكم» .

وهذا العمل الصالح تتنوع مظاهره ومجالاته ولكن هدفه واحد ، وهو صالح الدين والمجتمع ، مع إخلاص النية فيه لله .

وإذا عدنا إلى فصول المناقب من كتب الحديث الصحيحة وجدناها تذكر مناقب المصطفى ﷺ والخلفاء الراشدين وبقية العشرة المبشرين بالجنة وأهل البيت النبوى وأزواج الرسول . وتأتى بعد هذا مناقب الصحابة رضوان الله عليهم دون نظر إلى أوضاعهم الاجتماعية أو الاقتصادية .

ومع أن بعض المشركين كانوا إذا حاوروا الرسول ﷺ يودون لو صرف الفقراء عن مجلسه ، إلاّ أننا نقرأ توجيه الله لرسوله ورعايته لهؤلاء .

فعن سعد قال : كنا مع النبى ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبى ﷺ اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميها . فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع . فحدّث نفسه فأنزل الله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) (الأنعام : ٥٢) رواه مسلم .

ويبدو من هذا الحديث ونظائره ما كان يحاول المجتمع الإسلامى أن يزرعه فى حقل الإنسانية من قيم جديدة وموازين للبشر على أساسٍ من أعمالهم ، بعد أن تيبست أوضاعها قروناً على موازين التفرقة الاجتماعية والاقتصادية .

ومع أن أبواب المناقب تعرضت لكثير من التمحيص باحتمال أن يكون بعض ما فيها مدخلاً إلى نوع جديد من التفرقة والتمييز بين القبائل ، يستند إلى ما ذكر لها الرسول من فضل ، أو ما نسب إلى الرسول أنه قاله . فإن الحقيقة القرآنية الكبرى

تبقى فى إشراقها وحيًا منزّلاً من عند الله .. «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (الحجرات : ١٣)

آفاق مفتوحة للنشاط

وما دام التفاضل فى الحياة بالتقوى ، وليس على الإنسان فى نظر الرسول قيد من وضع اجتماعى أو اقتصادى أو لونى ، فله أن يبدع فى المجتمع قدر ما تستطيع مواهبه أن تطيق ؛ ولنأخذ نماذج لذلك :

١ ـ حين يجد الرسول ﷺ من بعض أصحابه تفوّقًا فى حفظ القرآن يدعو الآخرين إلى الأخذ منهم فيقول «استقرئوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة وأُبىّ بن كعب ومعاذ بن جبل» متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو ـ (المشكاة ٣ : ٢٧٠) .

٢ ـ وهو يشجع ثابت بن قيس بن شماس على الخطابة . وكان خطيب الأنصار .. وعندما نزل قول الله تعالى «ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى» .. إلى آخر الآية (الحجرات : ٢) جلس ثابت فى بيته ، ظنًّا منه أنه رفع صوته فوق صوت النبى فحبط عمله ، فلما بلغ ذلك النبى ﷺ قال : «بل هو من أهل الجنة» رواه مسلم عن أنس . (المشكاة ٣ : ٢٧٣) .

٣ ـ وإذا كان خالد بن الوليد هو القائد الذى أرهق المسلمين فى غزوة أحد واستطاع الالتفاف حول خطوطهم واختراقها وكسب منهم جولة من جولات هذه المعركة ، فإن طاقته بعد إسلامه تحولت إلى خدمة الإسلام ، ولم يكن موقعه وهو على الكفر فى غزوة أحد حائلاً دون أن يسند إليه الرسول من المهام الكبيرة فى الإسلام ، وأن يسميه «سيف الله» . وهكذا كان فى حروب الردّة مع أبى بكر وفى فتوح العراق والشام فى عهد الصاحبين أبى بكر وعمر .

٤ ـ وإذا ما ظهرت من زيد بن ثابت مواهب فى تعلم اللغات فليضم إلى كتابة الوحى ما يكلفه به الرسول من تعلم اللسان العِبرى فضلاً عما كان يجيد من ألسنة أخرى . وليكن المؤتمن على قراءة ما يرد إلى الرسول ﷺ بهذه الألسنة

من خطابات وإعداد الردود عليها . الترمذى عن زيد بن ثابت . (المشكاة ٢ : ٥٤١)

٥ ـ وإذا ما ظهرت فى أم عطية رغبةٌ ودربةٌ فى تمريض الجرحى ورعاية شئونهم فى المعارك والمدينة ، فليوفر لها الرسول ﷺ هذه الفرص وليسند إليها هذه الأعمال .

وهكذا نستطيع أن نراجع من أنشطة الصحابة رجالاً ونساءً مجالات متعددة فتحتها لها قدراتهم ، أو وجههم إليها الرسول ﷺ . ولم يضع قيدًا على أى منهم إذا ما أراد أن يتقدم بخدمته إلى المجتمع فيما يحسن .

مواقف الناس من الإسلام

ويعود الرسول ﷺ فى أكثر من حديث إلى تشبيه صنوف الناس بصنوف الأرض فى مدى تقبلها للخير .

وأنت فى القرآن الكريم تجد كثيرًا من الترابط بين آيات نزول الوحى ونزول المطر : هذا تحيا به القلوب وهذا تحيا به الأرض بعد موتها ، نكتفى منها بنموذج واحدٍ من سورة الرعد :

«أنزل من السماء ماءً فسالت أوديةٌ بقدرها ، فاحتمل السيل زَبَدًا رابيًا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله . كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزبدُ فيذهب جفاءً وأما ماينفع الناس فيمكثُ فى الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال . للذين استجابوا لربهم الحسنى . والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعًا ومثله معه لافتدوا به . أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد . أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى . إنما يتذكر أولوا الألباب» (الرعد : ١٧ ـ ١٩) .

أما فى الحديث الشريف فتقرأ قوله عليه الصلاة والسلام :

«مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها

أجادب (وهى الأرض الصلبة التى تمسك بالماء) أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا . وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعَلِم وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» متفق عليه عن أبى موسى . (المشكاة ١ : ٥٤) .

وأنت إذا ما أدرت النظر حولك وجدت هذه الصنوف من البشر : القلوب الطيبة كأنها جنةٌ بربوة تقبل الماء وتثمر ، يتمثل فيها القبول والعطاء ، وأرض صلبةٌ لا تستفيد من الماء ، وإنما يستفيد منها غيرها . وثالثة يغور ماؤها فلا هى أمسكته لنفسها أو لغيرها .

ولا يقتضى هذا أن تجمد القلوب على مواقفها ، فالقلوب الصخرية قد تنفجر منها بعد حين ينابيع الخير .. وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار .. والصخر الأصم قد يتحول إلى تربةٍ خصبةٍ مثمرةٍ ، إذا ما تابع المطرُ النزول عليه أو جرى عليه الماء .

فالأمر تفاعلٌ مستمر .. وبعض القلوب أسرع تقبلاً من بعضٍ .. فلنعرض قلوبنا للخير حتى تستقبل منه الكثير .

التراحـــم

ورسم الرسول ﷺ بسلوكه وتوجيهه الأساليب التى تعين على تماسك المجتمع واحترام الإنسان : صغيرًا أو كبيرًا ، رجلاً أو امرأةً ، مسالمًا أو محاربًا ، وكلها تنبع من أساس واحد هو محبة الإنسان واحترامه .. ولنأخذ نماذج متكاملةً لذلك :

١ ـ فهو يدعونا إلى إفشاء السلام بيننا . والسلام ليس مجرد كلمة تقال ، ولكن رغبة حقيقية فى أن تقوم العلاقات على أساس من حب السلام . وهو فى ديننا من أسماء الله الحسنى . ويعلمنا المصطفى ﷺ فيقول :

«لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا . ولا تؤمنوا حتى تحابّوا . أَوَلاَ أدلكم على شىء

إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم» مسلم عن أبى هريرة . (المشكاة ٢ : ٥٣٧)

٢ ـ ويدعونا إلى التصافح والتهادى «تصافحوا ، يذهب الغل ، وتهادوا تحابّوا وتذهب الشحناء» مالك عن عطاء مرسلا . (المشكاة ٢ : ٥٥١) .

٣ ـ ويدعونا إلى صلة الرحم «من أحبّ أن يُبسط له فى رزقه ، ويُنسأ له فى أثره فليصل رحمه» متفق عليه عن أنس . (المشكاة ٢ : ٥٩٨)

٤ ـ ويخص الوالدين بمزيدٍ من البر ويسأله رجل عن حق الوالدين على ولدهما فيقول فى حديث من جوامع الكلم «هما جنتك ونارك» ابن ماجة عن أبى أمامة (المشكاة ٢ : ٦٠٣)

٥ ـ ويمد يد البرّ والرحمة إلى اليتيم فيقول «خير بيت فى المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُحسن إليه . وشرّ بيت فى المسلمين بيتٌ فيه يتيم يُساء إليه» ابن ماجة عن أبى هريرة . (المشكاة ٢ : ٦٠٩)

٦ ـ وتمتد مظلة الخير فى الإسلام لتشمل الناس جميعًا فيقول «الخلق عيال الله . فأحب الخلق إلى الله من أحسن إلى عياله» البيهقى فى شعب الإيمان عن أنس . (المشكاة ٢ : ٦١٣)

٧ ـ وتظل هذه الرحمةُ قائمةً حتى إذا ما اضطر المسلمُ أن يحمل من أجل الحق سلاحه ويوصى جيشه قائلاً «اغزوا باسم الله فى سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا» مسلم عن سليمان ابن بريدة عن أبيه . (المشكاة ٢ : ٣٨١)

وهذا التراحم أول ما يطالعنا به القرآن الكريم وصفًا لربّنا الرحمن الرحيم ، ويقتضى منا دائمًا أن نحفظ هذا الإنسان وننميه .

علينا أن نوفر له البيئة الأسرية الصالحة حتى قبل أن يولد عن طريق اختيار الأب والأم . وأن نرعاه فى طفولته فى صحته ثم نتابع رعايته فى تعليمه وإعداده

للحياة وتأكيد الدين فى قلبه وعقله ثم نفتح له باب العلم والعمل ما دام قادرًا عليهما ، وباب الرعاية حين تقعد به القدرة .

وفى الإسلام لا ينفصل المضمون الاجتماعى عن المضمون الاقتصادى ولا عن الأساس الدينى الذى تقوم به الحياة .

وإذا كان طلب العلم فى الإسلام فريضة على كل مسلم ومسلمة ، فإن الزكاة فى الإسلام هى صنوُ الصلاةِ . ومسئولية الدولة والمجتمع عنهما قائمة . ولعل حروب الردّة تمثل نموذجًا فريدًا فى تاريخ الإنسانية ، وقفت فيه الدولة إلى جانب حق الفقير بسلاحها ضد جموح الأغنياء ورغبتهم فى التحلل من هذه الفريضة .

ذلك لأن الفقير والغنى والحاكم والمحكوم .. كلهم محاسبٌ على ما يعمل ومجزى به .

والإسلام ـ على هذا الأساس ـ لا يقبل قسمة العالم إلى الذين يعرفون والذين لا يعرفون . ولا قسمته على أساس الذين يملكون والذين لا يملكون . ويستهدف إخاءً شاملاً يكون فيه العلمُ ومواردُ الحياة مجال تعاونٍ إنسانىٍّ وليست أسلحةً فى يد الأقوياء يشهرونها فى وجوه الضعفاء .

إن الإنسان الذى ترسم صورته أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام هو الذى رأينا نماذجه فى صدر الإسلام وحاولنا أن نبيّن أبرز ملامحه ، وما أشد حاجتنا كبشر إلى أن نترجم هذا الهدى النبوى إلى حياة نابضة .

ثانيًا : الكون

كان هذا الكون كله قريبًا من الرسول عليه الصلاة والسلام .. وإذا كان الله قد جمع له فى أصحابه أجناس البشر من العرب والروم والفرس ، والأغنياء والفقراء ، فقد طوى له الزمان والمكان فى ليلة الإسراء والمعراج .

وبهذا الفضل الإلٰهى كان خاتم الأنبياء والمرسلين هو « الإنسان الكونى » الذى

أسرى به ربه ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إلى السموات العلى. وأراه من آياته الكبرى ، وأوحى إليه ما أوحى .

فى الصلاة

وأنت تحس هذا المعنى الكونى فى الإسلام فى عباداته ومعاملاته :

ولنبدأ بالوضوء للصلاة والتطهر للحياة ..

يقول الرسول ﷺ : «الطهور شطر الإيمان» مسلم عن أبى مالك الأشعرى . (المشكاة ١ : ٩٣) .

ويقول ﷺ : «من توضأ فأحسن الوضوء ، خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره» متفق عليه عن عثمان . (المشكاة ١ : ٩٤) .

وما الوضوء ؟ إنه عبادة تستخدم فيها ماءً طاهرًا تغسل به أعضاءً محددةً من جسمك هى ــ عمليًّا ــ وسائل اتصالك بالعالم من حولك .

وما مصدر الماء ؟ إنه هذا الكون من حولك : من ماء المطر أو العيون أو الأنهار أو البحار .

وأنت . حين تجمع هذا الماء بين يديك إنما تجمع جزءًا من هذه الطبيعة حولك . جزءًا طاهرًا تمر به على أجزاءٍ من جسمك . وكأنك تصافح الكون من حولك عن طريق هذا الماء .. وكأن لهذا الماء معك حديث ونجوى : إنه طاهر فكن طاهرًا . إنه يسبح بحمد ربه فكن أنت مسبحًا بحمد ربك .

ولنتأمل هذا الحديث الذى أمامنا .. من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره .. ليس الأمر فى الوضوء حسيًّا فقط ، وإنما هو عبادة كاملة لها جانبها الحسى والمعنوى فى ذات الوقت . عبادة أنت تذكر فيها فضل الله عليك وتستغفره مما اجترحت من إثم ، وتدعو ربك حين تتم وضوءك أن يجعلك ويجعلنا من التوابين والمتطهرين .

وكذلك التيمم أنت به تقصد الصعيد الطيب تمسح به وجهك ويديك . وما وضع اليد على الصخر أو على أديم الأرض الطيّبة ؟. إنه اتصالٌ بهذا الكون

الكبير وتذكر لأرض ننبت منها ، ونثوى فيها ، ونخرج منها ، وبقدرة الله التى خلقت هذا كله وجعلته مسبحًا بحمده ولكن لا نفقه تسبيحه ، وإن كان كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه .

وتقف للصلاة متجهًا إلى القبلة من أى مكان أنت فيه. وبهذا تتخطى حدود المكان من حولك لتقف على نقطةٍ من محيط دائرةٍ كبيرةٍ يقف عليها آلافٌ والآفٌ من إخوانك المؤمنين ، ليلاً ونهارًا ، متجهين إلى البيت العتيق .

وتستطيع أن ترى منها دوائر صغيرةً بعينيك إذا ما ذهبت إلى مكة وصليت مع إخوانك هناك .. دوائر دوائر حول الكعبة .

وتؤمن وأنت فى صلاتك التى تعلمتها من أشرف الخلق ﷺ «صلوا كما رأيتمونى أصلى» أن كلمتك المؤمنة قادرةٌ على أن تجد إلى ربها سبيلاً .

ماذا يحدث للكلمة الطيبة ؟ إن ربنا يعلمنا فيقول «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه» . (فاطر : ١٠) .

حركة الشفتين وخفقةُ القلب الطاهر ، تستطيع أن تصعد إلى السموات العُلى ، وأن تُسجَّل عند الله «فى صحفٍ مكرمةٍ مرفوعةٍ مطهرةٍ بأيدى سفرةٍ كرام بررة» (عبس : ١٣ — ١٦) .

فى الصلاة إذن تجد نفسك فى لقاء مع الكون .. أنت مع ربك . الأرض مع السماء . الكلمة مع الجزاء . الدنيا مع الآخرة . مكانك مع الكعبة .

وفى الصلاة أنت مرتبط بظاهرات كونية من طلوع الفجر إلى شروق الشمس وزوالها وطول ظلها وغروبها إلى غسق الليل .

وهذا الرباط الكونى فى الصلاة متلازم مع رباط الإنسان تعلو به منزلة صلاة الجماعة ، والسعى إلى المساجد .

فى الصـــوم

وينطبق ذلك على الصوم أيضًا فمواقيته يحددها هلال رمضان ويعلمنا الرسول ﷺ فيقول :

«صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يومًا» (متفق عليه عن أبى هريرة. المشكاة ١ : ٦١٧).

وفى يومك أنت مرتبط فى عباداتك بحركة الشمس سحورًا وإمساكًا وصومًا وإفطارًا وقيام ليل. لا تتدخل إرادةٌ بشريةٌ فى ذلك. وتحس أنك وإخوانك فى مشارق الأرض ومغاربها تؤدون عباداتكم مرتبطين بأهلة تعلمون بها عدد السنين والحساب وبشمس تجرى لمستقر لها.

فى الحـــج

والحج لقاءٌ بين شعائر ومواقيت نأخذها عن رسولنا وجاءت من قبل لخليله إبراهيم عليه السلام.

والحج بدوره لقاءٌ بين الإنسان والإنسان ولقاءٌ بين الإنسان والكون :

هذا أول بيتٍ وضع للناس. وهؤلاء إخوتك جاءوا وقد تساقطت عنهم حواجز اللون والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

وهذا حجر له كرامته نستلمه ونحن نعلم أنه حجر لا يضر ولا ينفع. وأحجار أخرى نرجمها فى «منى» بأحجار صغيرة نجمعها من المشعر الحرام.

وما الذى يميّز حجرًا عن حجرٍ ليكون هذا مجال تقبيل وهذا مجال رجم ؟ وهذا داخل فى بناء الكعبة ، وهذا تصويرٌ للشر ؟

وأنت فى هذا متبع لقول المصطفى «خذوا عنى مناسككم».

وتستطيع أن تتابع العبادات لتجد فيها هذا الترابط القوى بين الإنسان والكون ترابطًا يجعل نظرة الإنسان إلى الكون كأنه بيته الكبير. ومن فيه من الناس أهله وما فيه من الثمرات رزق ، للمحتاج فيه نصيب.

الزكـــاة

ويقودنا هذا إلى كلمة عن الزكاة .. والزكاة زيادةٌ ونماءٌ . والعطاء ظاهرة نقص .. ولكن :

ماذا تقول فى الزارع حين يضع فى الأرض بذوره ؟ إن الحبوب التى عنده تنقص أول أمرها . فجزء منها أصبح فى باطن الأرض . ولكنه مطمئن إلى نمائها بعد هذا . وأن هذه البذرة ستكون سنابل وثمارًا .

والإسلام يعلمنا أن تكون ثقتنا بالله أكبر . وأن ما نغرسه فى أرض الخير ينمو ويزكو ويرتفع . وأن قلوب العباد وحاجات المحتاجين هى أرض طيبة دعانا ربنا إلى أن نضع فيها بعض البذور . وحددت لنا السنّة المطهرة الأنصبة التى نقدمها إلى الغير مما يفيض عن حاجتنا مع حساب الجهد المبذول فيها .

فإذا كانت الزراعة واستخراج المعادن وصيد البر والبحر تعاملاً مع ما خلق الله من خيرات ، فإن الزكاة رباط اجتماعى واقتصادى يذكرنا دائمًا بخالق هذه الخيرات الذى جعل عبادًا يختبرهم فى أن يملكوا ، وعبادًا يختبرهم فى أنهم لا يملكون ، لينظر منا ربنا أيّنا أحسن عملاً وشكرًا .. وفرض على الجميع السعى وجعل الأرض مجال ذلك فى قوله تعالى :

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور» (الملك : ١٥)

النبـــات والحيـوان

وإن الصداقة مع الكون كما رأيناها مع الشمس والقمر والماء والصخر نراها أيضًا مع النبات والحيوان .

١ ـ فإذا كان الحيوان للركوب والحمل والقتال فما ينبغى أن يتخذ تسخيره فيما لايجدى . وفى هذا يقول المصطفى ﷺ « لا تتخذوا ظهور دوابكم منابر . فإن الله تعالى إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ،

وجعل لكم الأرض . فعليها فاقضوا حاجاتكم » . أبو داود عن أبى هريرة (المشكاة ٢ : ٣٧٧)

٢ ـ ونهانا عن التسلى بالتحريش بينها فى حديث رواه الترمذى عن ابن عباس (المشكاة ٢ : ٤٢٩)

٣ ـ وتصل به الرقة إلى أن يقول « لا تسبوا الديك فإنه يوقظ للصلاة » أبو داود عن زيدِ بن خالد . (المشكاة ٢ : ٤٣٥)

٤ ـ ويأمر أصحابه أن يعيدوا إلى حُمَّرة (عصفور) فرخيها ، عندما رآها تفرّش (أى ترفرف باسطة جناحيها قرب الأرض) ويقول لهم «من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها » أبو داود عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه . (المشكاة ٢ : ٢٨٣) وتأمل تعبيره النبوى الكريم : من فجع هذه بولدها ؟

٥ ـ وينهانا فى الغزو أن نقطع شجرة إلا لطعام ، كما ينهانا عن الإسراف فى الطعام ويدعونا إلى القصد فى ذلك كله .

خاتمة

إن الرسول عليه الصلاة والسلام كان ينظر إلى الوجود نظرة حب يتعمق منها إلى ما فيه من بديع صنع الله . ولم تكن حياته صراعًا لهذا الوجود ، أو تحديًا .

إنه كإنسان ، من خلق الله . وهذا الكون من خلق الله . هو مسبِّح بحمد ربه . وهذا الكون مسبح بحمد ربه . والله أعطى الإنسان العقل والفكر وحرية الاختيار . وهذا الكون تحكمه قوانينه الخاصة . والإنسان خليفة الله فى هذه الأرض . وله خلقها وخلق السموات .

وعلى هذا لا نجد فى الإسلام ولا فى توجيه الرسول لنا إلا حب الكون والإنسان .

الكون هو بيتنا الكبير . الناس كلهم إخوة . الحياة عمل واختيار . نعمل فى الحياة دون إخلاد إليها . نقوم بحق خلافة الله فيها . ما جاء من رزق اشتركنا فيه . لا تفرقة بسبب اللون أو العنصر أو الوضع الاجتماعى أو الاقتصادى .

أيها الإخوة والأخوات :

يروى الترمذى عن أنس رضى الله عنه « لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء كل شيء . فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شيء . وما نفضنا أيدينا عن التراب ـ وإنا لفى دفنه ـ حتى أنكرنا قلوبنا » (المشكاة ٣ : ٢٠٤)

ولكن كانت عليهم مسئوليات توجهوا إليها فأضاءت بهم ولهم الحياة . ونحن إذا ما اتبعنا هديه المنير استطعنا أن نغيّر به الحياة دائمًا ، وأن نتغلب على متاعب الطريق ، وأن نصعد فوق الأحزان والآلام ، إلى أفق المسئولية الرحب .

من أجل ذلك ما أود أن ينتهى هذا المؤتمر دون أن نكون على موعد لقاء جديد محدّد القسمات يتعاون فيه أقطار وعلماء الإسلام على تقسيم موضوعات السيرة النبوية ، فى برنامج يكون علامة بارزةً على نهاية هذا القرن الرابع عشر

الهجرى واستقبال القرن الخامس عشر ويحصر فيه التراث النبوى وتترجم روائع هذا التراث إلى اللغات الواسعة الانتشار فيه .

وهنا فى باكستان ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ هل لكم أن تنشروا باللغة العربية سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام التى كتبها العالمان الجليلان مولانا شبلى نعمانى ومولانا سليمان الندوى .

وهل لنا أن نتعاون فى عمل أطلس للسيرة النبوية نضعه بين يدى الدارسين نحدد به صورة مكة فى العهد النبوى والمواقع الواردة فى تاريخنا وكذلك المدينة وطريق الهجرة ومواقع الغزوات .

بل هل لى أن أطمع فى متحف للسيرة النبوية يبيّن هذه المواقع ، دون أى تعرض للأشخاص ، ليكون من السهل بعد هذا عمل نماذج منه توزع على الأقطار الإسلامية ، ونكون معينين لأبنائنا على تمثل الجهد الكبير الذى قام به الرسول ﷺ والذين معه من أجل نشر الإسلام .

وإذا كان هذا الجهد منصبًّا على مزيدٍ من الضوء نلقيه بأساليب العصر على دراسات السيرة ، فنحن أيضًا محتاجون إلى تحديد مشكلات العصر وكتابة بحوث نقدمها باسم الإسلام إلى الإنسانية المعاصرة عسى أن نستطيع الاقتباس من هذا الضوء المحمدى الذى جاء مصدقًا لكل نبى ورسول .

أيها الإخوة والأخوات :

هذا بعض ما وددت أن أقترحه عليكم فى مؤتمركم . هذا ، وأختمه كما بدأته بالشكر وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

مذكرة

كان اعتماد البحث على أحاديث مشكاة المصابيح للتبريزى تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى وطبع المكتب الإسلامى بدمشق ١٣٨٠/١٣٨١ هـ (١٩٦١/١٩٦٢ م) ونشير إليها بكلمة «المشكاة» ، ويعتمد النص الإنجليزى للبحث على ترجمة المشكاة لجيمس روبنسون طبع الشيخ محمد أشرف ـ لاهور (١٩٦٣/١٩٦٥) .

الفصل الثالث

الرسول والتفرقة العنصرية

المؤتمر العالمى الثالث للسيرة والسنة النبوية بدعوة من
حكومة قطر. وهو بدء الاحتفالات بالقرن الهجرى
الخامس عشر : المحرم ١٤٠٠ هـ
الدوحة ٢٤/٢٩ نوفمبر ١٩٧٩ م

الرسول والتفرقة العنصرية

١ ـ مدخل

هذه الدراسة متابعة لبحث عنوانه «الإسلام والتفرقة العنصرية» سبق أن نشرته للكاتب هيئة اليونسكو (١٩٧٠ م) فى سلسلة عنوانها «التفرقة العنصرية والفكر الحديث» متناولةً موقف الديانات والمذاهب الفلسفية الكبرى من هذه المشكلة.[١]

وانتهيت فى البحث السابق إلى نتائج خلاصتها :

١ ـ إن الإسلام يدعو إلى العلم والمنهج العلمى. ومن هنا يأتى تقديره لمنجزات العلم فى الوحدة الإنسانية، وما يرتبط بها من مقاومة التفرقة العنصرية.

٢ ـ إن الاسلام يعتبر الفرد مسئولاً عن عمله، ولايبنى أية مسئوليةٍ على صفة خارجة عن قدرة الفرد كاللون.

٣ ـ يقيم الإسلام العلاقة بين الإنسان والبيئة الطبيعية ومكوناتها على أساس الرحمة والاستفادة الطيبة.

٤ ـ يعتبر الإسلام الإنسانية أسرة كبيرة خلقها الله من نفسٍ واحدةٍ، وإن اختلاف الألسنة والألوان فيها مظهر من مظاهر قدرة الله وحكمته.

٥ ـ يعتبر الإسلام الأنبياء إخوةً، ويدعونا إلى الاقتداء بهديهم.

٦ ـ يطبق الإسلام قاعدة الإخاء والمساواة عمليًّا فى الحياة.

٧ ـ حياة الرسول ﷺ نموذجٌ متكاملٌ لهذا الإخاء، وجاءت على هديه مواقف سلفنا الصالحين، والذين اتبعوهم بإحسان.

٨ ـ لم يرجح القرآن لونًا على لونٍ. والألوان فى الكتاب المبين مظهر لقدرة الله.

٩ ــ ما جاء فى القرآن من تفاضلٍ بين الناس ، كان بعد توفير فرصٍ متكافئةٍ .

١٠ ــ لا يرضى الإسلام بتحول مواهب الأفراد أو مواقعهم الاجتماعية إلى مراكز قوة ، يجتمعون فيها على أساس اللون أو أى مظهر تمييز آخر ، فيضطهدون بقية فئات المجتمع ، وينقلون هذا إلى الأجيال التالية ، فروقًا وأحقادًا .

والآن :

ــ ما مجال الإضافة إلى هذه الأصول والتطبيقات فى موضوع التفرقة العنصرية والإسلام ؟

١ ــ عمليًّا : كان البحث الأول محدودًا بمساحةٍ لا يستطيع أن يتخطاها حتى تكون السلسلة التى يصدرها اليونسكو متوازنةً من حيث الطول .

٢ ــ وكان على كل كاتبٍ أن يكتب عن دينه «من الداخل» مبينًا موقفه من التفرقة العنصرية . وبهذا استبعدت السلسلة الدراسات المقارنة ، وإن جاءت عنها إشارات عابرة لتأكيد إدانة التفرقة العنصرية .

٣ ــ كذلك لم يكن هناك مجالٌ لإبراز الفروق الكبيرة بين ممارسات الحياة الإسلامية التى استطاعت أن تمتص مشكلات التفرقة العنصرية ، وبين الممارسات العنيفة والظالمة التى شهدها العالم الغربى لازالت آثارها وقطاعات منها ، نابضةً بالألم تحاول أن تحطم قيودها لتسعد بالحرية التى لم يحرم منها ربّنا طائرًا يطير بجناحيه ، فضلاً عن أكرم مخلوقاته : الإنسان .. ومنه اصطفى الأنبياء والمرسلين وله خلق ما فى الأرض جميعا ..(٢)

٤ ــ ولقد حاول بعض كتّاب الغرب ــ ولا يزال نفرٌ منهم يحاول ــ تشويه موقف الإسلام من التفرقة العنصرية ، ولا يعدمون فى طول التاريخ الإسلامى وعرضه أمثلة يؤيدون بها وجود مظاهر للعنصرية فى بعض العصور والأقطار الإسلامية ، ويعتبرون هذا «إسلامًا» أو «تطبيقًا إسلاميًّا» . هذا بيت شعر ، أو قولٌ لحاكم ، أو جملةٌ فى حوار ، أو تصرفٌ لأحد الولاة ، أو ثورةٌ قامت على أساس عنصرى ... ويحاولون بتركيز الضغط على هذه

الأحداث صرف الأنظار ـ ولو جزئيًا ـ عن الذروة الرفيعة التى صعدت إليها مبادئ الإسلام بالإنسان ، وعن الممارسات المضيئة والإيجابية التى شهدها المجتمع الإسلامى .

أما ما استندوا إليه من ممارسات فهى توزن بميزان الإسلام الصحيح : يدينها إذا صدرت عن مسلم أو غير مسلم . فحسن إسلام المرء يقاس بمدى إيمانه بالإسلام عقيدةً ، وتطبيقه فى الحياة سلوكًا .

هذا الموضوع ـ وأعنى به شبهات بعض المستشرقين ـ يحتاج بدوره إلى وقفة مراجعةٍ وتصحيحٍ لمنهجه وتطبيقه .

٥ ـ وسيقتصر هذا البحث على الدراسة المقارنة مع الديانات الكبرى مع العناية بالجانب التطبيقى الذى تبدو به مكانة الرسول أو المعلم . وهنا يأتى سؤال أول : ـ

ـ ما علاقة زمان ومكان الرسالة بموضوع الدراسة ؟

٢ ـ رسولٌ من أنفسكم

وتتعدد المدارس الفكرية التى تتناول الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام ويبرز فيها اتجاهان رئيسيّان :

* يحاول الأول أن يؤكد المستوى الخفيض الذى كانت تعيش فيه الجزيرة : أُميَّة وعادات سيئةٍ ، وحروبًا قَبلية طاحنة وثارات ، ووأد بنات ، وعبادة أوثان . كأن الإسلام جاء ليحيل أدنى البيئات إلى أرقى مستويات التقدم .

* ويحاول الثانى أن يبرز مقومات هذه البيئة ـ على أساس مقارن ـ ليبين لماذا كانت أنسب البيئات وقتئذ لظهور الإسلام . (٣)

المكـان :

ومع مايبدو من تعارض ظاهرى بين الاتجاهين : تهوينًا من شأن هذه البيئة أو

إبرازًا لمقوماتها ، فإن البحث الموضوعى يبرز لهذه البيئة ـ عند ظهور الإسلام ـ مقومات لم تكن متوفرةً فى غيرها من بيئات العالم القديم ، وإن كانت لها ـ كأى بيئةٍ أخرى ـ مشكلاتها التى ينبغى عليها أن تقابلها . ولما جاء الإسلام أفاد من مقومات هذه البيئة ليتغلب على مشكلاتها ، وليحمل هدية الله إلى العالم من حولها ...

من حيث الموقع : كانت الجزيرة العربيه متوسطةً بين قارات العالم القديم . كانت مفتوحةً على أفريقيا من الجنوب الغربى والغرب والشمال الغربى ، ولها بها صلات برية وبحرية عبر سيناء والبحر والأحمر ومضيق باب المندب وخليج عدن وبحر العرب . وظلت هذه الصلات قائمة عبر التاريخ .

وكانت على صلة بأرض الروم فى ديار الشام ـ وقتئذ ـ وما وراءها فى الغرب والشمال الغربى .

وكانت على صلة بأرض فارس وما وراءها برًّا وبحرًا إلى قلب آسيا وأقطارها الموسمية فى الجنوب والشرق .

وانعكس هذا على علاقات السلالات البشرية فيها .. فكانت من أنسب الأماكن وقتئذ ، إن لم تكن أنسبها جميعًا للقاء السلمى والتعايش بين البشر .. كانت أيضا وسطًا من حيث المكان ، نزلت فيها رسالة أخرجت أمةً وسطًا من حيث المبادئ والتطبيق .. (والوسط المقصود هنا هو الأفضل والأرفع المصون عن الإفراط والتفريط) . (٤)

لم تكن منطقة تراكمٍ كالهند إذا دخلتها الحضارات تجمعت فيها وتدافعت ولا تجد لها من الجنوب منفذًا ، فالهند من الجنوب طريق مغلقٌ . ولم تكن الجزيرة العربية منطقة نائية كالشرق الأقصى أو جنوب إفريقية أو غرب أوروبا .

كذلك لم تكن منطقة رعوية عنيفة مائجة بالصراعات كقلب آسيا ..

الزمـــان :

وكانت مبرأةً من القهر السياسى والترف الحضارى الذى تعيش فيه وقتئذ أقوى

قوتين عالميتين : هما دولتا الفرس والروم .

كانت أنسب مناطق الحرية فى العالم ، فضلاً عن حرمة البيت العتيق ، أول بيت وضع للناس ...

وعند قيام الإسلام كانت الصراعات فى هذه المنطقة الوسطى قد أنهكت قوى الفرس والروم ، وتطلعت النفوس إلى دورةٍ جديدةٍ من دورات الحياة يقودها النبى الأمى «الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون» (الأعراف : ١٥٧)

الإنســـان :

ويأتى المصطفى ﷺ من بيت إبراهيم وذرية إسماعيل :

نشأ إبراهيم فى العراق ، وهاجر منها إلى ديار الشام ، ثم إلى مصر وهى موطن زوجه هاجر أم إسماعيل .. وعاشا فى الحجاز وتزوج إسماعيل من جرهم المهاجرة من اليمن .. فجاء بيته صورة حية للقاء بين هذه الأقطار جميعا .. ورفع إسماعيل مع أبيه القواعد من البيت ليكون مثابةً للناس وأمنًا .. وفى هذا الجو التاريخى والمكانى ، وعلى حين فترة من الرسل ، جاء المصطفى ﷺ .

وتعودت عينه فى طفولته ، كما تعود قومه من حوله فى أن يروا أناسًا تختلف ألسنتهم وألوانهم ، تجمعهم رحاب مكة ، ويفد إليها الحجيج فى الأشهر الحرم ، يعيشون إخاءً إنسانيًا وسماحةً هى من ميراث إبراهيم عليه السلام . ووثّقت قريش روابط الجزيرة برحلة الشتاء والصيف . وامتدت آفاق الرحلات إلى مناطق الاستقرار حولها ؛ واتسعت دوائرها وتعددت وسائلها ، وإن كان شريانها الأساسى طريق التجارة بين اليمن والشام .

مثل هذه الظروف المكانية الزمانية والإنسانية ، تفتح الطريق أمام سماحة أشمل ، هى عودةٌ إلى المنابع الأصيلة التى ارتوت منها مكةٌ .. منابع وصفها الله

بقوله فى كتابه «وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدًا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير» . (الحج : ٧٨)

٣ - ألم يجدك يتيما فآوى ؟

هناك جانب من طفولة المصطفى ﷺ يمس موضوع التفرقة العنصرية :

كانت أم أيمن بركة الحبشية جارية فى بيت عبد الله بن عبد المطلب . وبقيت فى البيت بعد وفاته فى صحبة آمنة بنت وهب . وكان من صنع الله أن حضرت ولادة المصطفى ﷺ وكانت دايته . وهى التى بشرت به جده عبد المطلب . وبقيت فى البيت حاضنة للمصطفى ﷺ تشهد طفولته المباركة . وعندما سافرت آمنة إلى المدينة - والنبى ﷺ فى السادسة من عمره - لزيارة أخواله ومثوى عبد الله ، كانت أم أيمن فى صحبتها ، ويذكر المصطفى ﷺ هذه الأيام وما مارَس فيها وتعلّم من أنواع الرياضة كالسباحة(٥) - وفى طريق العودة إلى مكة مرضت آمنة ..

وكما شهدت أم أيمن ميلاد المصطفى شهدت معه وداع آمنة ، وأودعاها مثواها فى الأبواء .. ذهبوا إلى المدينة ثلاثة وعادوا اثنين ..

أحيانا يقترن فى ذهنى مشهدان : مشهد الرسول وطفولته وهو يودّع أمه ، فى صحبة أم أيمن رضى الله عنها .. هى الحاضنة والأم بعد الأم ، والرفيقة فى السفر ، والشريكة فى الألم .. ومشهد الرسول ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، ومن حوله الأعداء وفى قلبه الإيمان ، وفى رفقته الصاحب الأمين ، وسكينة الله تتنزل ، وجنود الله تؤيد ..

أذكر الصحراء على اتساعها ، وحفرةً فى الأرض تثوى فيها آمنة بنت وهب فى الأبواء . والمصطفى وأم أيمن يحملان الحزن الكبير .. وما يكاد يسعد برؤية أخواله فى المدينة حتى يفقد أمه .. وهذه الصالحة الطيبة رفيقته فى رحلة العودة .. أذكر

دخوله مكة حزينًا مع أم أيمن وخروجه مهاجرًا حزينًا مع أبى بكر ، وصوت الحق يَعِده بالعودة إليها .. «إن الذى فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد» (القصص : ٨٥).

كان من صنع الله أن يرى المصطفى ﷺ فى طفولته من هذه الحاضنة الحبشية آيات من الحب والمودة ، تبرز حقيقة الجوهر الإنسانى فى أرفع صورها ... حقيقة ترتفع فوق فروق اللون ودعوى العنصرية إلى حيث الإنسان كرامة وإخاء ومرحمة ..

وكان من صنع الله أن تكون طفولة المصطفى ﷺ فى بيت تلتقى فيه الأجناس ، كما كان فى بيئة كرّمها الله بالبيت العتيق ومن حوله يطوف الناس لا فرق بين ألوان وأجناس ..

ولقد ظلت أم أيمن قريبة من المصطفى ﷺ . ورغبة فى توثيق رباطها بالبيت النبوى زوّجها بزيد بن حارثة ، ومنها أنجب ولده أسامة ، وأكرم الله الزوج والابن بالشهادة فى سبيل الله . رضى الله عنهم أجمعين .

وتعيش أم أيمن على الإيمان ، وتطول أيامها فتشهد رحيل المصطفى ﷺ إلى الرفيق الأعلى . ويدخل عليها أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - بعد الرحيل وهى تبكى ، فقالا : يا أم أيمن ما يبكيك ؟ فما عند الله خير لرسوله . قالت : إنى لأعلم أن ما عند الله خير لرسوله ، وإنما أبكى لانقطاع خبر السماء .. فهيّجتهما على البكاء فبكيا .

وفى فصل موجز عقده الإمام ابن القيم فى كتابه زاد المعاد لمرضعات الرسول ﷺ وحواضنه ، تحس هذا الصنع الإلـهى فى حياته .. وكيف تلتقى حول هذه الطفولة : البادية والحضر ، والأشراف والموالى ، من نشأوا فى الجزيرة العربية ومن وفدوا إليها من أفريقيا .. يقول الإمام «فصل فى أمهاته ﷺ اللاتى أرضعنه» فمنهن ثويبة مولاة أبى لهب أرضعته أيامًا وأرضعت معه أبا سلمة المخزومى بلبن ابنها مسروح وأرضعت معهما عمه حمزة بن عبد المطلب ... ثم أرضعته حليمة السعدية بلبن ابنها عبد الله ... ويقول عن حواضنه ﷺ : فمنهن أمه آمنة بنت وهب ،

وثويبة وحليمة والشيماء ابنتها وهى أخته من الرضاعة .. ومنهن الفاضلة الجليلة أم أيمن بركة الحبشية(٦) .

٤ـ أول الوحى .. والإنسان

وأول الوحى نزولاً .. كان خطابًا للرسول والإنسان .. كل الإنسان . جاءه الروح الأمين يحمل آيات الله «اقرأ باسم ربّك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم» (العلق : ١ ــ ٥)

وتحس لأول وهلة جوانب التكريم من الله للإنسان : فإليه أرسل رسوله .

ويصف الله ذاته المقدسة بالربوبية والكرم والعلم . وتبيّن الآية للإنسان رحلتين : رحلة الخلق ، من العلَق حتى يستوى بشرًا سويًّا ، ورحلة العلم موضحةً أهم أدواته وهى القلم ، ثم مساره المستمر فى قوله تعالى «علم الإنسان ما لم يعلم» .

وتأتى الآيات التالية ــ وإن كانت متأخرةً فى نزولها عما قبلها ــ تحذر الإنسان من الطغيان إذا أحس فى نفسه الاستغناء : الطغيان بالمال . بالعلم . بالعصبية . «إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» . ولنتأمل قوله تعالى : «أن رآه ...» أن رأى أنه استغنى . ففى الحقيقة لا يستغنى إنسانٌ عن ربه ، ولا إنسان عن إنسان . نحن أمام الله عباده . ومع الناس إخوةٌ . والعنصرية صورة من صور الطغيان . ويضع ربنا بعدها الميزان بقوله : «إنّ إلى ربّك الرجعى» . الجميع : المؤمنون والفاسقون . الظالمون والمظلومون . الجبّارون والمستضعفون .. «إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدًا . لقد أحصاهم وعدّهم عدًّا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا» (مريم : ٩٣ ــ ٩٥) .

بهذا المنطق الربّانى الإنسانى بدأت الدعوة الإسلامية مسيرتها . واستجابت لها قلوب مؤمنة ، لها مواقعها فى كل قطاعات المجتمع المكى ، وانتشرت دوائرها بعد هذا ، دون أن تتقيد بوضع طبقى أو لونى أو قوة اجتماعية .

٥ـ أول المؤمنـــين

ولقد أطال بعض المستشرقين القول فى أن أول المؤمنين كانوا من الضعفاء والمستضعفين ، وحاولوا الربط بينها وبين ثورات العبيد فى الامبراطورية الرومانية ، وحاولوا ـ من بعد ـ تشبيهها بحركات الجماعات أو القطاعات المقهورة فى المجتمع ، وربطوا هذا بأسباب اجتماعية أو اقتصادية ... ولا زلنا نجد حديثًا عن فقر الجزيرة العربية وغنى ما حولها وقت الرسالة ، وإن هذا دفع العرب دفعًا اقتصاديًا من الأرض الصفراء إلى الأرض الخضراء .. ، وسار على هذا الخط الفكرى نفر من كتاب المسلمين وسنحاول مسَّ الموضوع من حيث ارتباطه بالتفرقة العنصرية .

كان من أول المؤمنين رجال كأبى بكر وعبد الرحمن بن عوف ، وفتية كعلىّ ابن أبى طالب ، ونساء كخديجة بنت خويلد وأم أيمن بركة الحبشية ، وأسر كاملة برجالها ونسائها وشبابها كآل ياسر ... كان فيهم الأغنياء كأبى بكر وعبد الرحمن بن عوف والفقراء كآل ياسر . وفيهم الأحرار والأشراف من ذؤابة قريش كعلىّ بن أبى طالب وجعفر بن أبى طالب ، وفيهم الأرقاء والمستضعفون كبلال بن رباح والنهدية وزنيره . كان فيهم العرب وفيهم الحبش .

ولا نستطيع ـ موضوعيًا ـ أن نربط هذه الجماعة المؤمنة الأولى بأى قطاع محددٍ من قطاعات المجتمع المكى .

نعم : لقد حاربها بعض الأغنياء من سادة مكة ورأوا فيها تهديدًا لأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية ومكانتهم بين العرب ... ولكن لم يكن كل سادة قريش على كلمةٍ سواء فى هذا . قريش ذاتها انقسمت بين مؤمنٍ وكافرٍ . بيوتها انقسمت . فى العهد المكى كانت أم حبيبة بنت أبى سفيان على الإيمانً ، وتحملت أعباء الهجرة إلى الحبشة ، وكان أبوها وقتئذ على الكفر وحرب الإسلام .(٧)

فموازين الفقر والغنى والتحليل الاقتصادى لا تستطيع أن تقدم تفسيرًا موضوعيًا مقبولاً لتكوين المجتمع الإسلامى فى مكة .

هل معنى هذا إلغاء تأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية جميعًا ؟ لا . ولكن

كان المسلمون ينظرون إليها من خلال الإسلام . كان الدين عدلاً وإخاءً ، وكرامةً إنسانيةً تخرج الناس من عبادة الأوثان وبطش الطغاة ومنكر القول والعمل إلى عبادة الله والمرحمة . والإسلام فطرة . والحق يخاطب القلب دون حجاب . بل إنه ليخترق هذه الحجب ليصل فى القلب إلى نقطةٍ منيرةٍ لايزال يتابع تغذيتها حتى تملأه نورًا ....

ولم يحفظ الإسلام فى مكة للأغنياء غناهم ولا نمّى لهم ثرواتهم . ولنذكر مثالين : كهلٌ وشابٌّ . أما الكهلُ فأبو بكر رضى الله عنه . أهلك ماله فى شراء الرقيق المعذَّبين وعتقهم . قال له أبوه : يابنى إنى أراك تعتق رقابًا ضعافًا ، فلو أنك إذ فعلت أعتقت رجالاً جلدًا يمنعونك ويقومون دونك ؟ فقال أبو بكر : يا أبت إنما أريد الله عز وجل .وعندما هاجر من مكة بعد ثلاثة عشر عامًا من إسلامه ، كانت ثروته أقل بكثير مما كانت عليه عند بدء الدعوة .

أما الشاب فمصعب بن عمير رضى الله عنه : كان غنيًّا موسعًا عليه فى الرزق ، فلما أسلم حرمته أمه ماله ليعود إلى الكفر ، فأبى وتحمل شظف الحياة وهاجر من مكة كأفقر ما يهاجر المؤمنون .

ولنتأمل فيما أورده ابن هشام فى ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم :

«وكان أبو جهل الفاسق الذى يغرى بهم (أى بالمؤمنين) فى رجال من قريش ، إذا سمع بالرجل قد أسلم ، له شرف ومنعة ، أنّبه وأخزاه وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك . لنسفهنّ حلمك ولَنُفيّلَنّ رأيك ، ولنضعن شرفك» (وفيّل الرأى قبّحه وخطّأه) . وإن كان تاجرًا قال : والله لنكسدنّ تجارتك ولنهلكن مالك . وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به» (١ : ٣٤٢) . فكان ممن أقبل على الإسلام ـ حين نتأمل هذا الخبر ـ أصحاب الشرف والمنعة ، والتجار والضعفاء ... أى أنهم يمثلون ـ من أول الأمر ـ قطاعاتٍ اقتصاديةٍ واجتماعيةٍ متنوعة ، جمع بينهم الإيمان . والذين أعتقهم أبو بكر كانوا أرقاء ولكنهم من أصول شتى : عربية وغير عربيةٍ ، ولم يكن للحاجز اللونى أىُّ قيمةٍ فى نظر أبى

بكر ، عندما أنفق ماله فى استنقاذ الأرقاء من أيدى الكفار .

٦ـ وفى المدينة المنورة

وازدادت معالم الصورة وضوحًا فى مجتمع المدينة المنورة : فقد اجتذب قلوبًا طاهرةً من مختلف قطاعات المدينة ومستوياتها الاقتصادية والاجتماعية ، كما اجتذب مؤمنين أقبلوا إليه من كافة أجزاء الجزيرة العربية وما حولها . ويصور مولانا سليمان الندوى هذا التكوين العالمى لمجتمع الإسلام فى المدينة فيقول :

«والآن تعالوا نشاهد مدرسة الرسول العربى الأمى : أى طالب هذا ؟ هذا أبو بكر ، هذا عمر ، ذاك عثمان ، وذلك على ، وهذان طلحة والزبير . ومن هؤلاء ؟ هؤلاء تلاميذ من قريش البطاح ، بطاح مكة ، وذانك من غير قريش ، إنهما أبو ذر وأنيس من تهامة من قبيلة غفار . وهذان أبو هريرة وطفيل جاءا من اليمن من إحدى قبائلها وتسمى دوس . ومن هذان ؟ هذا أبو موسى وذاك معاذ بن جبل قدما من اليمن من قبيلة أخرى ، وهذا ضماد بن ثعلبة من قبيلة الأزد القحطانية . وهذا خباب بن الأرتّ أخو تميم . ومن أى قبيلة هؤلاء القوم ؟ منقذ بن حبّان ومنذر بن عائذ من قبيلة عبد القيس استجابا لهذه الدعوة ووفدا إليها من البحرين على الخليج الفارسى . وفيهم عبيد وجعفر من سادة عمان . وفيهم فروة من معانٍ فى بلاد الشام . ومن هؤلاء الغرباء ؟ هذا بلال من بلاد الحبشة ، وهذا الأبيض يدعى صهيبًا الرومى ، وهذا اسمه سلمان الفارسى من إيران ، وهذا أخو الديلم يدعى فيروز الديلمى . وهذا سيخب ومَرَكُبود من الأمة الفارسية . فها أنتم ترون نماذج لمن تتلمذ على نبى الإنسانية النبى الأمى العربى خاتم المرسلين . لقد كانت حلقة هدايته مفتوحة لكل الأمم من شتى طوائف البشر» .[(٨)]

ثم يعقب على هذا بقوله . «لقد تبيّن لكم أن مدرسة محمدٍ رسول الله كانت جامعةً للناس من جميع الطوائف ، وكانت عامة للأمم على اختلاف ألسنتهم وأموالهم وطبقاتهم فى الثقافة والمجتمع ، وإنه لم يكن هناك أى قيد يمنع أى إنسان من الالتحاق بها[(٩)] » . ثم بين بعد هذا تنوع دراساتها وتخصصاتها وأنها كانت

مفتوحةً أمام الصحابة ليختاروا منها ما يوافق أذواقهم ويلائم طباعهم[١٠] . ولم يكن أى تخصص أو طريق مغلقًا أمام أى صحابى مادام قادرًا على سلوكه لا يحول بينه وبين التقدم فى المجتمع حاجزٌ مالىٌّ أو لونى أو اجتماعى .

٧ ـ كانوا معه دائمًا

يبدو من هذا كيف كان من صنع الله لرسوله أن تفتحت عينه ـ منذ مولده ـ على صورةٍ من السماحة العنصرية : أمٌّ عربية وحاضنةٌ حبشيةٌ . وأكاد أنظر بعين القلب عبر التاريخ إلى حجرة فى شعب بنى هاشم تشهد هذا اللقاء الإنسانى بين الأجيال والألوان ، والنبى الوليد بين أربعة أذرع تختلف لونًا وتلتقى حنانًا وحبًّا . وترحل الأم العربية وتبقى الحاضنة الحبشية يخاطبها بقوله «يا أمه »... وتظل قريبة منه فى مكة والمدينة حتى رحيله إلى الرفيق الأعلى . ويصحبه من الرجال بلال بن رباح . يدخل الإسلام من أشق أبوابه فلا يصرفه العذاب عن الإيمان ، ويهاجر مع المصطفى ﷺ إلى المدينة يراه كل يوم خمس مرات على الأقل ، يؤذّن للصلاة ويقيم الصلاة بين يديه . وله فى نفوس الصحابة كل توقير واحترام . يقول عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) » أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعنى بلالاً .[١١]

وشهد بلال بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، فلما قبض رسول الله ﷺ جاء إلى أبى بكر فأستأذنه فى الخروج إلى الشام ليرابط فى سبيل الله فقال أبو بكر : أنشدك الله يابلال وحرمتى وحقى قد كبرتْ سنى ، وضعفت واقترب أجلى . فأقام بلال مع أبى بكر حتى توفى أبو بكرٍ . ثم جاء إلى عمر فقال مثل ما قال لأبى بكر فأذن له ، فخرج إلى الشام ، فلم يزل بها حتى توفى[١٢]

ولم يؤذّن بعد النبى ﷺ لأحدٍ من الخلفاء . فلما قدم عمر (رضى الله عنه) الشام لقيه فأمره بالأذان فأذّن ، فبكى عمر والمسلمون معه[١٣] . ويبشره المصطفى ﷺ بمكانته فى الجنة ، ويروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة (رضى الله عنه) : قال رسول الله ﷺ لبلال عند صلاة الغداة «يابلال حدثنى بأرجى عمل عملته عندك فى الإسلام منفعة ، فإنى سمعت الليلة ، خَشْف نعليك بين يدى فى الجنة . قال بلال : ما عملت عملاً فى الإسلام أرجى عندى منفعةً من أنى لا

أتطهر طهورًا تامًّا فى ساعة من ليلٍ ولا نهارٍ إلا صليتُ بذلك الطهور ما كتب الله لى أن أصلى[١٤] » (وخشف النعل صوته) .

فهذه الصحبة الكريمة للمصطفى ﷺ تتخطى حدود الحياة الدنيا إلى دار الجزاء ، وتظل قائمة بعد أن تتبدل الأرض غير الأرض والسموات . وما اللون ؟ إنه لا يعدو أن يكون مظهرًا لقدرة الله تعالى واختبارًا لنا نحن البشر . هل نستطيع ـ بنور من الإسلام ـ أن ننفذ إلى جوهر الإنسان حيث التقوى ، أم تحجبنا السحب الملونة عن رؤية شمس الحقيقة ؟ .

٨ ـ الرسـول والأب الأول

وترتبط مقاومة التفرقة العنصرية بقصة الخلق كما جاءت فى القرآن الكريم وكما بينتها الأحاديث الشريفة .

يقول الله تعالى « يأيها الناس اتقوا ربّكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساءً . واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبًا » . (النساء : ١)

وفى يوم فتح مكة وقف الرسول ﷺ على باب الكعبة ممسكًا بعضادتيه وكان مما قال : يامعشر قريش إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم. وآدم من تراب . ثم تلا قوله تعالى « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » [١٥] (الحجرات : ١٣)

وحدة الأصل مقررة فى الإسلام وسنقف قليلاً عند كلمة تراب .... وما يتصل بها ـ فى الكتاب والسنّة ـ من كلمات « طين وصلصال وماء مهين » . فأحيانًا يعقد بعض الكتاب مقابلة بين الطين والروح . بين مادة الأرض والنفخة الإلٰهية . وقد يربطون بين الشهوات والتراب والأصل الطينى ....

والتراب مظلوم ..

إن ربنا جلت قدرته يقول عن خلق الإنسان فى كتابه العزيز « ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شيءٍ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالةٍ من ماءٍ مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون » (السجدة : ٦ ـ ٩) . والآيات كلها فى مقام الإحسان والتفضل .

الطين من مادة هذه الأرض التى قال الله فيها « والله أنبتكم من الأرض نباتًا » (نوح : ١٧) . والله جل وعلا هو الذى سوى آدم ، وهو الذى اختار له هذه المادة . مادة الأرض المنبتة التى تحيا بالمطر ، كما تحيا النفوس بالوحى . الأرض كريمة لأنها من خلق الله . خلقها كما خلق السماء . أما الماء المهين فهو الماء الضعيف[١٦] الذى لا يستطيع أن يحمى نفسه إلا أن تتولاه رحمة الله وعنايته فتجعل منه اللحم والعظم والسمع والأبصار والأفئدة .

وعلينا ـ بهدى القرآن الكريم والسنة المطهرة ـ أن نحسّ كرامة الأصل ، كرامة المادة التى خلق الله منها الإنسان . فلقد كانت الاختبار لإبليس « أأسجد لمن خلقت طينا » (الإسراء : ٦١) . وكأن فى الشعور باحتقار الأصل الترابى لمحة من منطق إبليس ، تتسرب إلى الذهن واعيًا أو مقلدًا .

إن القول بارتباط الشهوات بالطين والأرض ، لا أعرف له فى مصادر الإسلام أساسًا . والمقياس الذى وضعه رب الناس للناس هو « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات : ١٣) وإن اختبار الله للإنسان ـ فى الدنيا هو بوجوده هذا المتكامل المنظور . بوجوده الحى . يقول ربنا عن القرآن « إنْ هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيًّا ويَحِقّ القولُ على الكافرين » (يس : ٦٩ ـ ٧٠)

فمع كرامة الأصل نحس أيضًا « وحدة المسئولية » التى يتحملها الإنسان دون ظلم للجسد الترابى .. ولنعد إلى بساطة الإسلام دون محاولة لتمزيق الوجود الإنسانى إلى جسمٍ وروح ، ونفس وقلب ، فى حوار نظرى يحس به الفرد أنه اثنان أو ربما ثلاثةً أو أكثر . وكما أننا لا نقبل انقسام الشخصية ـ عقليًا وصحيًا ـ فنستطيع ـ من

نفس القاعدة ـ أن نرفض انقسام المسئولية . ونحن حين نعاقب إنسانًا نعاقبه جميعًا ، لا نعاقب جسدًا ونترك نفسًا وروحًا . وحين نثيبه فنحن نثيبه جميعًا ، ولا ينفى هذا «تخصص» الأجهزة فى الكيان الإنسانى : فبعضها يخزن المعلومات وبعضها يصدر الأمر وبعضها ينفذ . ولكن كل هذه الأجهزة إنسان واحد .

فى هذه الوحدة ـ وحدة الأصل ووحدة المسئولية الفردية ـ جانب له أهميته فى دراسة التفرقة العنصرية . ذلك لأن تمام هذه المسئولية ، وعدالتها يقتضى ألا يحمل إنسان مسئولية آخر . يقول ربنا «وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا . من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه . ومن ضل فإنما يضل عليها . ولا تزر وازرة وزر أخرى . وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» . (الإسراء : ١٣ ـ ١٥)

وأول ما تلقانا هذه المسئولية ـ تاريخيًا ـ فى قصة آدم وعلاقتنا به . وفى الجزء من القصة المتعلق بخلق آدم نجد تقاربًا بين ما جاء فى سفر التكوين وما جاء فى القرآن الكريم :

ففى سفر التكوين «وجبل الرب الإله آدم ترابًا من الأرض . ونفخ فى أنفه نسمة حياة» (تكوين ٢ : ٧) . أما الجزء المتعلق بالحياة فى الجنة والمسئولية والمعصية ونتائجها فيختلف اختلافًا جوهرًا . وهو ما تعنى به هذه الدراسة :

١ ـ يقول سفر التكوين إن حياة آدم وحواء كانت فى الجنة عريًا كاملاً دون خجل « وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان» (تكوين ٢ : ٢٥) ويقول الله تعالى فى كتابه الكريم مخاطبًا آدم « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » (طه : ١١٨ ـ ١١٩) . وهذه الأربع هى الحاجات الأساسية التى يحيا بها الإنسان : المأكل والمشرب والملبس والظل . وهو من أهداف السكن . هذا بعد أن أكرمه الله بالعلم «وعلم آدم الأسماء كلها» (البقرة : ٣١) وسجد له الملائكة تحيةً لا عبادة .

٢ ـ الإغراء فى سفر التكوين كان من الحية «أحيل جميع حيوانات البرية التى

عملها الرب الإله» (تكوين ٣ : ١) . وهي التي أغرت حواء . وإن حواء أعطت آدم معها فأكل .. فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر . وإن الشجرة المحرّمة هي «شجرة معرفة الخير والشر» . «لأنك يوم تأكل منها تموت موتاً» (تكوين ٢ : ١٦ – ١٨) . بينما المسئولية في القرآن مشتركة . الإغواء من الشيطان . «فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما . وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين» (الأعراف : ٢٠ – ٢٢) .

فإذا كانت المعرفة قد توفرت لآدم ، ومن بعدها التقدير المتمثل في سجود الملائكة ، ثم السكن في الجنة والأمان من الجوع والعرى والظمأ وحر الشمس ... فما بقي له ؟ جاءه الشيطان من الأمل في «الخلد وملك لا يبلى» . وبهذا يتفوق على الملائكة بما آتاه الله من العلم ، ويستوي معهم في الخلود . كان خطأً إلى أعلى – إذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير – أخطأ آدم حبًّا في الاقتراب من الله ، فزلت قدمه وهو يظن نفسه يصعد . «فدلاهما بغرور» .. (الأعراف : ٢٢) .

٣ – وعندما حاسب الله آدم على الخطيئة في رواية سفر التكوين كان من قوله «المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت . فقال الرب الإله للمرأة : ما هذا الذي فعلت . فقالت المرأة : الحية غرتني فأكلت . (تكوين ٣ : ١٢ – ١٣) آدم يلقي المسئولية على حواء . حواء تلقي المسئولية على الحية . والحية وحدها هي التي تلوذ بالصمت دون أن تتبرأ مما فعلت ... والصورة في القرآن مختلفة : فما دامت المسئولية مشتركة بينه وبين زوجه فلا مجال لأن يحملها أحدهما دون الآخر ، وإنما بادرا بالاعتراف بالخطأ والتوبة «وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» .. (الأعراف : ٢٢ – ٢٣) .

٤ ـ وتصل بنا القصة إلى ذروتها فى قضية المسئولية :

ففى سفر التكوين يحمّل الله آدم وحواء والحية المسئولية ، وتنتقل إلى أعقابهم ، بينما يقبل الله توبه آدم فى القرآن ، ليبدأ بعد هذا مرحلة جديدة من حياته .. مرحلة ـ بعد قبول التوبة ـ بصحيفة بيضاء ليس فيها عقاب الخطأ الأول ... ولنعد إلى سفر التكوين لنقرأ « فقال الرب الإله للحية لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية . على بطنك تسعين وترابًا تأكلين كل أيام حياتك . وأضع عداوة بينك وبين المرأة ، وبين نسلك ونسلها . هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه . وقال للمرأة : تكثيرًا أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولادًا . وإلى رَجُلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك . وقال لآدم : لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ، ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك . وشوكًا وحسكًا تنبت لك وتأكل عشب الحقل . بعرق وجهك تأكل خبزًا حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها . لأنك تراب وإلى تراب تعود » .(تكوين ٣ : ١٤ ـ ١٩) . ويستطيع أى دارس لهذا النص أن يحصى كلمات اللعن والسحق والعداوة والتعب والشوك والعرق ... لآدم وذريته حتى تقوم الساعة من أجل خطأ واحد ، كان تجربة أولى للأب الأول .. ما ذنب أبناء آدم ؟ بل ما ذنب أبناء الحية إذا اعتبرناها مسئولة ؟ أتقوم الحياة الإنسانية كلها من هذا البدء بكل ما فيه من عقوبة لا ذنب للأبناء فيها ؟

إن القرآن يختلف عن هذا . وتوبة آدم وقبولها جاءتا فى سورة البقرة وسورة طه . يقول الله تعالى :

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم » (البقرة : ٣٧) .

« وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » . (طه : ١٢١ ـ ١٢٢) .

حدثت المعصية وتتابعت بعدها الأحداث : توبة من آدم . قبول من الله فإنه « هو التواب الرحيم » . تكليف من الله لآدم برسالة . هداية على طريق الرسالة .

آدم فى القصة هو المجتبى المهدى المقبول التوبة . هو المخطىء الذى امتدت إليه يد التوبة تقيل عثرته رحمةً من الله وفضلاً .

أما أن الحية تمشى على بطنها فهذا فى القرآن لا يعدو أن يكون مظهرًا لقدرة الله تعالى « والله خلق كل دابة من ماءٍ فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيءٍ قدير . . » (النور : ٤٥)

وأما أن المرأة تحمل ولدها وهنًا على وهن . فهذا أمر تشترك فيه جميع الثدييات . وقد أثبت العلم قوة الصلة بين الأم ووليدها ، وأن هذه المعاناة الجسمية والنفسية ، من أسباب هذه الصلة القوية . وكم تفرح الأم بحركة جنينها . وكل تجربة الحمل والولادة فى الإسلام من أبواب الرحمة «ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنًا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير» (لقمان : ١٤)

وأما أن الرجل يتعب فى الأرض ، فإن الإسلام لم يقم العلاقة بينهما على العداوة وإنما خاطبه قائلاً : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » (الملك : ١٥) . ويصفها ربنا فى كتابه على لسان موسى عليه السلام وهو يُعدّد أمام فرعون نعم الله «الذى جعل لكم الأرض مهدًا وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجًا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أخرى » . (طه : ٥٣ ـ ٥٥) الصورة كلها مودّة وتآلف .

ولكن الأمر لن يخلو من عداوة وتنافس وصراع «بعضكم لبعض عدو» . (البقرة : ٣٦) ولكن « ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » (البقرة : ٣٦) ولنتأمل فى كلمتى مستقر ومتاع .. هدوء وسكن . والمتاع كما يقول الراغب الأصفهانى «انتفاع ممتد الوقت[١٧] » ويعقب على الآية السابقة بقوله «تنبيها أن لكل إنسان فى الدنيا تمتعًا مدة معلومة ... وأن ذلك فى جنب الآخرة غير معتد به « فما متاع الحياة الدينا فى الآخرة إلا قليل » . (التوبة : ٣٨)

٥ ـ وقبل أن أنتقل إلى النقطة الأخيرة فى هذه المقارنة أود أن أشير إلى مشهد فى سفر التكوين . ويبيّن النص التالى السبب المباشر لإخراج آدم من الجنة « وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منّا عارفًا الخير والشر . والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا ويأكل ويحيا إلى الأبد . فأخرجه الرب الإله من جنة عدنٍ ليعمل فى الأرض التى أخذ منها . فطرد الإنسان . وأقام شرقى جنة عدن الكروبيم ، ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » . (تكوين ٣ : ٢٢ ـ ٢٤) . فآدم لم يأكل من شجرة الحياة . وإنما أخرجه الربّ من الجنة خشية أن يأكل منها بعد أن أكل من شجرة المعرفة . وزاد على هذا أن وضع لهيب سيفٍ متقلبٍ لحراستها ... وكأن الله ـ فى رواية سفر التكوين ـ أخذ آدم باحتمال الخطأ الثانى ، لا بالخطأ الأول وحده ، وجعله تحت خوف السيف الملتهب لئلا يشق طريقه مرة أخرى إلى الجنة بعد أن خرج منها .

هذه هى الظروف التى خرج بها آدم من الجنة فى رواية سفر التكوين .

٦ ـ بيّن القرآن أن الإنسان فى هذه الأرض خليفة الله «وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة» (البقرة : ٣٠) . ولقد أعطاه الله حرية الإرادة والاختيار ، وأدخله تجربةً ، وعندما أخطأ تاب عليه وبعثه إلى الدنيا رسولاً مزودًا بالنصح والتوجيه «قلنا اهبطوا منها جميعًا فإمّا يأتينّكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» (البقرة : ٣٨ ـ ٣٩) . والخلافة تكريم من الله .. وورَدَ تعبير التكريم فى أكثر من موضع من كتاب الله « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً . » (الإسراء : ٧٠) . وكان هذا الإكرام سببًا لحسد إبليس « قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً »[١٨] . (الإسراء : ٦٢) .

قصة آدم بهذا منتهية الفصول فى القرآن . لم تترك وراءها لذريته ذنبًا ولا خطيئةً ، وإنما درسًا يتعلمه الناس . أما مكانة آدم : فهو نبى اصطفاه الله . وتلقى

من ربه كلمات . وبينت قصة المعراج جانبًا من هذه المكانة عندما لقيه المصطفى عليه الصلاة والسلام فى السماء الأولى .

حياة آدم بدأت فى الجنة . وله عند الله مكان عليّ وجزاء كريم . وأبناء آدم يشعرون جميعًا ـ فى نور القرآن ـ بكرامة هذا الأصل عندما يؤمنون أنهم جميعًا جاءوا من ذرية نبيٍّ كريم .

. أما لو سلمنا بأن الله لم يغفر لآدم ، وأن الخطيئة وعقوبتها انتقلت منه إلى ذريته ، لكان من المنطقى أن نسلم بانتقال الوضع الاجتماعى أو الاقتصادى ـ المرتبط بلون معين أو عنصر معين ـ من جيل إلى جيل . لو كانت نظرتنا إلى أن خطأ واحدًا ووحيدًا من الأب الأول ـ آدم ـ كان سبب الوجود الأرضى بكل ما فيه من آلام ، لكان من المنطقى أن نعتبر أى أبٍ أو جيلٍ سابقٍ مسئولاً عن أولاده أو ذريته ... وأن نحمّل الأبناء ذنوب وأوضاع ونتائج ألوان الآباء .

فتحرير المسئولية الفردية فى الإسلام يقتضى منا أولاً تحرير مسئولية آدم . وهو ما يؤكده القرآن الكريم ، وما جاءت به السنة المطهرة . وهذه الأبعاد كلها يمكن أن نجدها فى قول المصطفى ﷺ «الناس لآدم وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم» .

لسنا فى الإسلام ـ إذا ما ذكرنا الأب الأول أو الأم الأولى ـ نذكر معها ذنبًا وخطيئة ومسئولية عما نحن فيه من عناء قد يجعل بعضنا يغفل أحيانًا عن قوله تعالى «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» (إبراهيم : ٣٤) ، نعم الوجود والهداية والخلافة ... ثم ارتباط العمل بالجزاء فى ظل العدل والرحمة التى تشع من قوله تعالى «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» (النجم : ٣٩) وقوله تعالى «نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم» (الحجر : ٤٩ ـ ٥٠)

٩- مع أنبيــاء العــهد القديــم

وتسير بنا الدراسة المقارنة بين تحرير المسئولية الفردية ، وهو ما يؤكده الإسلام ، وبين انتقال المسئولية كما تصورها بعض نصوص العهد القديم . ولنذكر من ذلك نماذج :

١ - ودعا موسى جميع بنى إسرائيل وقال لهم : ... « لا يكن لك آلهة أخرى أمامى . لا تصنع لك تمثالاً منحوتًا صورةً مما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من أسفل ، وما فى الماء من تحت الأرض . لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء وفى الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضوننى ، وأصنع إحسانًا إلى ألوفٍ من محبىَّ وحافظى وصاياى » (تثنية ٥ : ٧ - ١٠) .

٢ - وفى نفس السفر نقرأ « لا يدخل عمونى ولا مؤابى فى جماعة الرب حتى الجيل العاشر . لا يدخل منهم أحد فى جماعة الرب إلى الأبد . من أجل أنهم لم يلاقوكم بالخبز والماء فى الطريق عند خروجكم من مصر» (تثنية ٢٣ : ٢ - ٤) .

وتتغير اللهجة بعد هذا ، وفى ذات السفر ، لنقرأ هذه النصوص المشرقة بالعدل والرحمة :

٣ - لا تظلم أجيرًا مسكينًا وفقيرًا من إخوتك أو من الغرباء الذين فى أرضك فى أبوابك . فى يومه تعطيه أجرته ولا تغرب عليها الشمس لأنه فقير ، وإليها حامل نفسه لئلا يصرخ عليك إلى الرب فتكون عليك خطية (تثنية ٢٤ : ١٤ - ١٥)

٤ - لا يُقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يُقتل الأولاد عن الآباء . كل إنسانٍ بخطيئته يُقتل . (تثنيه ٢٤ : ١٦)

٥ - ويتأكد هذا المفهوم فى سفر حزقيال .. وكأنه يقص حوارًا حدث بينه وبين قومه : « وأنتم تقولون لماذا لا يحمل الإبن من إثم الأب ؟ أما الإبن فقد فعل حقًّا وعدلاً : حفظ جميع فرائضى وعمل بها فحياة يحيا . النفس التى تخطئ هى تموت . الإبن لا يحمل من إثم الأب . والأب لا يحمل من إثم الإبن . برّ البار

عليه يكون . وشرّ الشرير عليه يكون . فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التى فعلها وحفظ كل فرائضى وفعل حقًّا وعدلاً يحيا . لا يموت . كل معاصيه التى فعلها لا تذكر عليه ، فى بره الذى عمل يحيا . هل مسرة أسرّ بموت الشرير ؟ يقول السيد الرب . إلا برجوعه عن طرقه فيحيا . (حزقيال ١٨ : ١٩ ـ ٢٣) ويسير بنا السفر فى هذا الخط المشرق بالعدل والتوبة والترغيب فى الطاعة والترهيب من المعصية .

ومع الاتجاهات الفكرية المتباينة لهذه النصوص أذكر ما كتبه موريس بوكاى عن أسفار العهد القديم «لقد دونت وأكملت وروجعت الأسفار التى يتكون منها فيها بين القرن العاشر والقرن الأول قبل الميلاد ..... إن الوحى يختلط بكل هذه الكتابات . ولكننا لا نملك اليوم إلا النصوص التى خلفها لنا الكتّاب الذين عالجوا النصوص على سجيتهم وحسب الظروف التى عاشوها والضرورات التى كان عليهم مواجهتها (١٩) .

١٠ ـ مع نصوص العهد الجديد

وإذا كنا قد رأينا فى العهد القديم نصوصًا تذهب إلى تأكيد المسئولية الفردية ، ونصوصًا تذهب إلى انتقال المسئولية عبر الأجيال ، بحيث يحمل الأبناء ـ فى ظلها ـ أوزار الآباء ، أو الثمار المرة لأوضاعهم الاجتماعية ، أو الحاجز اللونى الذى يعيشون فيه ، فإن هذه القضية قابلها العهد الجديد وكان عليه أن يبحث لها عن حل .

وكانت نصوص سفر التكوين ـ وبخاصة قصة آدم والخطيئة الأولى فيه وما وقع على آدم وزوجه ـ وحتى على الحية ـ من عقوبة ـ أول هذه القضايا ، باعتبارها مرتبطة ببدء الحياة الإنسانية على الأرض .

١ ـ وحين نرجع إلى إنجيل متى نقرأ ما جاء به على لسان المسيح عليه السلام ، فى الموعظة على الجبل ، من توجيه إلى فعل الخير حتى مع الذين يسيئون ، ودفع السيئة بالحسنة ، والإخلاص فى العمل . وفى ختامها فقرة تؤكد المسئولية الفردية

بكل وضوح :. «فكل من يسمع أقوالى هذه ويعمل بها أشبهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر.، فنزل المطر وجاءت الأنهار ، وهبت الرياح ، ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط ، لأنه كان مؤسسًا على الصخر. وكل من يسمع أقوالى هذه ولا يعمل بها يُشبَّه برجل جاهل بنى بيته على الرمل ، فنزل المطر وجاءت الأنهار ، وهبت الرياح ، وصدمت ذلك البيت فسقط ، وكان سقوطه عظيمًا» . (متى ٧ : ٢٤ - ٢٧) .

أذكر معها قول الله تعالى «أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لايهدى القوم الظالمين» . (التوبة : ١٠٩) .

٢ - وفى نفس الموعظة نقرأ ما جاء على لسان المسيح عليه السلام «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل .. (متى ٥ : ١٧) . وما جاء فى سفر التكوين عن انتقال المسئولية لا يجد العهد الجديد أمامه إلا أن ينفيه أو يلحقه بمغفرة . والنفى غير وارد لأنه نقض للناموس ، فلم تبق إلا المغفرة ... ولكن المغفرة تكون لصاحب الخطأ . والخطأ هنا انتقل أثره وسار طولاً فى الأجيال ، وعرضًا فى الآفاق ، يحمله كل من ينتسب إلى آدم . ومن هنا نبعت عقيدة «الفداء» . ولا نستطيع أن نتصور العدل الإلـٰهى مع وجود هذه الخطيئة مستمرة الأثر فى حياة الناس . وفى هذه العقيدة نقرأ النصوص الآتية :-

٣ - من أراد أن يصير فيكم عظيمًا يكون لكم خادمًا . ومن أراد أن يصير فيكم أولاً يكون للجميع عبدًا . لأن ابن الإنسان أيضًا لم يأت ليخُدم بل ليخدِم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين (مرقس ١٠ : ٤٣ - ٤٥) .

٤ - والنص على الفداء فى إنجيل يوحنا أكثر وضوحًا «لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل يخلص به العالم» . (يوحنا ٣ : ١٧) .

٥ - وتولى بولس الرسول الدعوة إلى هذه العقيدة وشرحها . يقول فى رسالته إلى أهل رومية «الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله ، متبررين مجانًا بنعمته بالفداء

الذى بيسوع المسيح ، الذى قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه ، لإظهار بره ، من أجل الصفح عن الخطايا السالفة ، بإمهال الله ، لإظهار بره فى الزمان الحاضر.....» (٣ : ٢٣ ـ ٢٦) . وبغير الفداء ـ فى العهد الجديد ـ تظل الخطيئة قائمة كما جاءت فى العهد القديم .

٦ ـ ويرتبط بهذا أيضا سرّ التعميد فى المسيحية ، فهو يطهر الوليد من الخطيئة الأصلية . ولابد أن يقوم به رجل الدين عندما يغمس الطفل فى ماءٍ بشعائر معينةٍ . وينشأ الطفل ليعتقد أن المسيح حمل عن البشر وزر الخطيئة . وأنه المخلص والفادى . وأن أثر الخطيئة ظل من عهد آدم حتى جاء المسيح فحملها عمن قبله ومن بعده[٢١]

والهدف الذى قصده العهد الجديد ـ وهو المغفرة ـ وصل إليه بعد رحلةٍ طويلة بين الخطيئة الأولى ، وانتقالها ، ثم مجىء الفادى والمخلص . أى أن العهد الجديد أقرّ أولاً مبدأ انتقال المسئولية من جيلٍ إلى جيلٍ ، ثم فتح الطريق إلى المغفرة بالفداء .

أما الإسلام فجعل المغفرة من الله لآدم مباشرة . ولم يدخل أبناء آدم فى القصة «وعصى آدم ربّه فغوى ثم اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى» (طه : ١٢١ ـ ١٢٢) . والعدل الإلٰهى بهذا فى القرآن أقرب . وقصة الإنسانية مشرقة . وحياتنا هنا خلافة الله . والوحى نور . وباب التوبة مفتوح من عهد آدم . والأرض صديقة . والسماء صديقة . والكون صديق «هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعًا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شىءٍ عليم . وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة» (البقرة : ٢٩ ـ ٣٠) .

ومع تأكيد مسئولية آدم الفردية ، وإعطائه فرصة التجربة والخطأ ، فى ظل من التوبة والرحمة والهداية ، تتحدد مسئوليات الأفراد من بعده ، بحيث لايحمل إنسان مسئوليةً آخر . وبالتالى يسقط الأساس «الدينى» لأى تفرقة عنصرية .

أقول : يسقط الأساس الدينى للتفرقة العنصرية لأن بعض الكنائس اتخذت من بعض نصوص العهدين القديم والجديد ، ما تبرر به استعباد الأفريقيين أو

الهنود الحمر . وعلى سبيل المثال كنيسة الإصلاح الهولنديه فى جنوب أفريقيا تحاول أن تبرر عدوانها على الأفريقيين بنصوص دينية : كالنص الخاص بكنعان بن نوح فى العهد القديم على لسان نوح «ملعون كنعان . عبد العبيد يكون لأخوته» (تكوين ٩ : ٢٥) ثم ما جاء عن وجوب طاعة العبيد لسادتهم فى رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس «أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح» (٦ : ٥)

ثم يوصى السادة بالعبيد «وأنتم أيها السادة افعلوا لهم هذه الأمور تاركين التهديد عالمين أن سيدكم أنتم أيضًا فى السموات وليس عنده محاباة» (٦ : ٩) .

ولقد استطاع السادة أن يفرضوا سلطانهم وينالوا ما يرونه حقًّا لهم . أما العبيد ومن جاء بعدهم من أصحاب الأرض فى أفريقية ، والذين تم استعبادهم فى أرضهم أو عبر المحيط ، فلم يستطيعوا أن يستخلصوا حقًّا إلا بعد أن دفعوا فيه الغالى من الدماء والأرواح ، ومازال الصراع قائمًا .[٢١]

١١- مع البرهمية والهندوكية

لكل دين إيجابيات أعطته القدرة على البقاء وتنظيم الحياة . وحينما جاء الإسلام أقر ما كان قبله من مآثر رآها صالحة للبقاء ، ووضع عن الناس الآصار والأغلال التى كانت عليهم . وأقرب النماذج إلى ذلك ما كان بين الجاهلية والإسلام . ويمثلها قول المصطفى عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة «ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج .[٢٢]

وفى الديانة الهندوكية نقرأ فى الرج ـ فيدا كمثال :

«إذا كنا أخطأنا فى حق من أحبّنا ، وأسأنا إلى صديق أو صاحب ، وآذينا جارًا أو غريبًا ... فاغفر لنا ربنا عدواننا»[٢٣] . والهندوكية تؤمن بتعدد الآلٰهة وإن كانت ترد هذا التعدد فى قمته العليا إلى إلٰه واحد .[٢٤]

ولكنا هنا سنقصر القول على ما يتعلق بالتفرقة العنصرية . وهى أمر لا ينكره حتى كبار فلاسفة الهند وإن حاولوا أن يبرروا ظروفه التاريخية :

يقول رادا كرشنان عن الانقسام القديم للمجتمع الهندى إلى أربع طبقات :

« حتى نفهم الطريقة التى نشأ بها هذا الوضع ينبغى أن نذكر أن الغزاة الآريين كانوا متميزين عن السكان القدامى ولهم أصولهم العنصرية . وكان الآريون القدامى طبقة واحدة ، ويمكن أن يصبح الواحد منهم كاهنًا أو محاربًا أو تاجرًا أو زارعًا ، ولم يكن هناك امتياز خاص أول الأمر للكهنة . وأدى تعقد الحياة إلى تقسيم الطبقات بين الآريين . وبدأ تميز نظام الكهنة والأرستقراطية عن الطبقة العاملة . كان اصطلاح الفايسيا يطلق أول الأمر عليهم جميعًا . وعندما أخذ تقديم القرابين للآلهة دورًا هامًّا فى المجتمع ، تقدمت بعض الأسر التى تميزت بالعلم والحكمة والمواهب الأدبية على غيرها فى أداء الشعائر الدينية . ومع تطور الديانة الفيدية وكثرة شعائرها كونت هذه الأسر من نفسها طبقة خاصة . ولما كانت هذه الطبقة تتولى الحفاظ على تقاليد الآريين ، أعفيت من ضرورات الصراع من أجل البقاء . أما أولئك الذين شغلهم الضرب فى الأرض وكسب العيش فلم يكن عندهم من وقت طويل ينفقونه فى التفكير والتأمل .

. . .

بهذا تكونت طبقة مختصة بالأمور الروحية . وأصبح « البراهمة » أرستقراطيةً عقلية مختصة بصياغة الحياة العليا للناس . وتتولى « الكشاترية » مسئولية الحكم ورعاية البراهمة . وكلمة « كشاترا » تعنى الحكم والسيطرة . وتحمل نفس المعنى فى اللغة الفيدية والنصوص الفارسية . وكان الباقون هم عامة الناس من التجار والزراع والمحترفين أو « الفيسيا » . وإذا كان النظام بدأ مهنيًّا ، فسرعان ما تحوّل إلى وراثى فى كل هذه الطبقات الثلاث . ولهم دائرة واسعة تجمعهم . وبينهم وبين الجماعات المقهورة خندق واسع . وينقسم هؤلاء المقهورون إلى قسمين : الدرافيديين الذين يكوّنون الطبقة الرابعة ، والقبائل البدائية وهم فى حضيض المجتمع .

فالتقسيم بين الآريين والداسيا ـ أو بين الغزاة والمقهورين ـ عنصرى يستند إلى السلالة والدم . ومع اختلاف النظريات فى أصل الطبقة الرابعة ـ السودرا ـ وهى التى تخدم الطبقات الثلاث الأعلى ، وهل هى كلها من السكان الأصليين ، أم

أن الآريين جاءوا ومعهم فكرة النبذ ، أو أن المنبوذين جزء من السكان الأصليين فقط.[٢٥] إلا أن الحقيقة القائمة من قديم ، والتى ظلت عبر التاريخ نحو ثلاثة آلاف عام ، هى أن المجتمع الهندى تتميز فيه أربع طبقات كبرى تنطوى تحتها فروع كثيرة. هذه الطبقات هى البراهمة والكشاترية والفيسية والسودرا[٢٦].

ويذكر رادا كرشنان أن نظام الطبقات ليس آريًّا ولا درافيديًّا ، وإنما جاء ليقابل حاجات المجتمع عندما عاشت أجناس مختلفة معًا فى وئام ـ هكذا يقول ـ وكان الهدف هو صالح البلاد مهما تكن النظرة الحالية إليه. وكانت هذه ـ عنده ـ الطريقة الوحيدة لحماية الحضارة التى هددتها أخطار وخرافات أعداد ضخمة من السكان الأصليين. وذلك بوضع معالم حديدية للفوارق الحضارية والعنصرية[٢٧]. ولسوء الحظ فإن هذا الأسلوب الذى أرادوا به حماية النظام الاجتماعى من الانهيار والفناء قد عاق المجتمع حتى من مجرد النمو. ولكن هذا لايدعونا ـ والقول لرادا كرشنان ـ إلى أن نحتقر نظام الطبقات عندما جاء أول مرة. فإن الهند بنظام الطبقات قد استطاعت أن تحل بالسلم قضاياها العنصرية الداخلية التى حلها غيرهم عن طريق القتال. ويرى أن هذا النظام حفظ كلاً من المنتصر والمهزوم وعاشا معًا فى ثقة وانسجام»[٢٨].

آثرت أن أذكر هذا بشىء من التفصيل ، لأن نظام الطبقات فى الهند هو أقدم النظم العنصرية وأعمقها جذورًا. نظام استطاع أن يستمر ثلاثين قرنًا ـ وإن عراه تغيّر ـ وحدثت بينه وبين الإسلام مواجهة عقائدية وتطبيقية فى الحياة اليومية ، كانت من أسباب تكوّن باكستان :

١ ـ ولقد أحسّ الهنود أنفسهم بقسوة هذا النظام. وظهر هذا الإحساس فى التراث الدينى ، وأبان عنه صراع الآلهة عندهم :

لقد صور كتاب الرج ـ فيدا الإله «إندرا» ممثلاً لروح الآريين المنتصرين وملامحهم : صوّروه أشقر. جميل الصورة. له مركبة حربية خيولها شقر. هو الإله البطل الذى حارب سكان الهند الأصليين ، ودمّر مدنهم ، واقتحم حصونهم ، وأمعن فيهم قتلاً حتى ألجأهم إلى الغابات والصحارى والجبال. وتمر القرون وتأتى

الأساطير الشعبية الهندية كما تمثلها ملحمة «المهابراتا» لتبرز شخصية إله آخر هو «كرشنا» إله أسمر اللون كأنه رمز المقهورين. يضيق بجبروت إندرا الذى تحوّل إلى طغيان، وحرب للنسّاك والزهّاد، وغواية للنساء. وتدور الحرب بين إندرا وكرشنا، أو قل بين البيض والسُمْر، أو بين القاهرين والمقهورين وتنتهى بخضوع إندرا الأشقر لكريشنا الأسمر. (٢٩)

٢ ــ وتصور الرج ــ فيدا فى جزئها الأخير نظام الطبقات محاولةً ردّه إلى نشأة الخليقة. فالإنسان الأول «بوروشا» أخرج من رأسه أول برهمى، ومن ذراعيه أول كشاترى، ومن ساقية أول فيسى، ومن قدميه أول سودرى. (٣٠) وعلى هذا الأساس تحددت الطبقات وأعمالها، واتخذت من سمرة السودرا مدعاة لوضعها فى أسفل الطبقات. وتأتى المهابراتا فتذكر أن البراهمة شقر، والكشاترية حمر، والفيسيا صفر، والسودرا سمر. وكأنها تحدد الهجرات البشرية التى جاءت إلى الهند وحاولت الاستقرار فيها. المهابراتا بعد هذا تعلى من شأن نسّاك وزهّاد لهم آباء أو أمهات من السودرا مثل فيديورا وفياسا، دون أن تقصر الفضل على البراهمة كرجال دين، والكشاترية كرجال حكم وحرب. وإذا كانت المهابراتا تمثل صيحة احتجاج شعبية ضد السيطرة البرهمية، التى يمثلها الرج ــ فيدا، إلا أن نظام الطبقات بكل ثقله الاجتماعى والسياسى والاقتصادى، استطاع أن يستمر فى الحياة الهندية (٣١).

٣ ــ وتؤمن الهندوكية، بعقيدة التناسخ. ويقصد بها العودة بعد الموت إلى الحياة فى ولادة جديدة. والصورة الجديدة «جزاء» لعمل الصورة السابقة. هذا هو قانون «الكارما». وبه تكون الولادة الجديدة، فى صورة أسمى، إذا كان الإنسان عمل صالحًا، وقد تكون فى صورة إنسان أدنى أو حيوان أو نبات إذا عمل غير صالح. وذلك فى سلسلة ــ لا سبيل إلى قطعها ــ إلا بإخلاص فى العمل والواجبات الدينية والمعرفة وما يرتبط بها من مرآن خُلقى طويل بالتأمل والتركيز. أى بنوع من اليوجا. فإذا نجح الإنسان فى ذلك اتحدت روحه بعد الموت مع «براهمان» الروح الكلى لهذا الوجود. (٣٢)

فالحياة ــ حسب التناسخ والكارما ــ عمل وجزاء فى ذات الوقت . والمسئولية الفردية غير كاملة . وإذا كنا رأينا التفرقة العنصرية قائمةً على مستوى الطبقات ، فهى هنا تزداد حدة حين تدخل قيود التناسخ والكارما على المستوى الفردى أيضًا .

ولقد حاول كبار المفكرين الهنود إيجاد صيغٍ جديدةٍ من الهندوكية ، تقل بها وطأة العنصرية القديمة ، وتعطى مجالاً أوسع للمسئولية الفردية . ورغم ما تلقاه الهندوكية من منافسة البوذية والمسيحية والإسلام ، ورغم الجهود الإصلاحية والتجديدية فيها ، فقد بقيت القوة الكبرى فى الهند . وبقى نظام الطبقات ومكانة البراهمة على رأس السلم الاجتماعى أساس الحياة بها(٣٣) . ومع مسار الحياة ظهرت طبقات جديدة كانت قبائل من قبل . وتنوعت الحرف ، وتبدلت المساكن ، حتى زادت الطبقات عن ثلاثة آلاف ، تحتها طبقات فرعية . ولكن هل استطاع هذا أن يصمد أمام المدّ المعاصر ؟ لا . فالاحتكاك بالفكر العالمى ، واتساع فرص التعليم ، وتأثير حياة المدينة ، بكل ما تحمل من متطلبات الحياة والسكنى والطعام والانتقال والعمل وصعوبة أو استحالة الاحتراز فى التعامل اليومى من طبقات أو جماعات معينة . كل أولئك قد هز قوائم نظام الطبقات ، وكان يعطى الدليل بعد الدليل ، فى الحياة اليومية ، على أن عنصرية هذا النظام لا تستطيع أن تصمد أمام تدفق الحياة .. فقد حرم القانون عام ١٨٢٩ شعيرة حرق الزوجة بعد موت زوجها ، وصان عفاف البنات من شهوات بعض المعابد فى جنوب الهند .(٣٤) حتى أن بعض كتابهم يقول عن الموقف العقلى لبعض الهنود المثقفين « ثم مسّوا العلم فإذا بعقائدهم القديمة قد تحطمت أشلاء كأنما نزلت بها نازلة ساحقة ، ولما تجرد هؤلاء الهنود المستغربون عن عقيدتهم الدينية التى هى روح الهند ولبابها ، عادوا إلى وطنهم وقد زالت عن أعينهم الغشاوة التى كانت تزين القبيح ، وسادهم الحزن ، وسقط ألف إله أمام أعينهم من سمائهم صرعى » .(٣٥) ومن البديهى أن هذا القول لا ينطبق على الجميع ، وإن كان خط التطور يشق طريقه مقتربًا من العدالة مبتعدًا عن مقاييس التفرقة العنصرية .

أذكرُ هذا الصراع الطويل كلّه ، وأذكر معه كلمة خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام «الناس لآدم . وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم» .

وأذكر الإخاء الإنسانى الذى نادى به القرآن الكريم ، وطبقه الرسول ﷺ فى حياته اليومية .

١٢ـ مع البوذية

يقول ول ديورانت إننا لا نعرف شيئًا عن بوذا معرفة اليقين . وما نذكره ليس تاريخًا يراد إثباته ولكنه جزءٌ من التراث الهندى والأسيوى(٣٦) . ويحدد العلماء مولد بوذا بقرب من عام ٥٦٣ ق . م وتتناول الأساطير بقايا قصته وتتحدث عن المبشرات بمولده ، وما رأت أمه فى منامها ، وكيف فسره كبار البراهمة بأن وليدها سيكون ملكًا على الدنيا بأسرها . ثم أجاءها المخاض إلى جذع شجرة ، ونزل الوليد طاهرًا كما ينزل الواعظ من منبر وعظه ، وأشرقت السماء بالنور وأقبل الملوك من أطراف البلاد يرحّبون بمقدمه . ونمرّ سريعًا على طفولته السعيدة فى قصر أبيه الحاكم ، ورعايته العسكرية باعتباره من الكاشتريه ، والدينية على يد البراهمة ، وكيف تزوج وعاش فى كنف السعادة حتى خرج من القصر يومًا ، فرأى كهلاً . وفى اليوم الثانى رأى مريضًا . وفى الثالث رأى ميّتًا . وجرت خواطره : كلّ شباب إلى كهولة وشيخوخة ، وكل صحة إلى مرض ، وكل حياة إلى موت . وما دمتُ ممن يجوز عليهم الولادة بما فيها من تعاسة فلأبحث عمن لا يولد . عن السكينة العليا . عن النرفانا .(٣٧)

ويقرر اعتزال حياة النعيم ويدع القصر والوالد والزوجة والولد الصغير ، ويأوى إلى حديقة يفرغ فيها إلى تأملاته . يستعين على التأمل بالصوم الطويل والزهد فى كل متاع الحياة ، ثم استعان بالصمت الطويل ، ثم أشرق فى نفسه أن تعذيب النفس ليس طريق الحياة . بل أحيانًا يصحب نجاح الفرد فى مجاهداته نوع من الزهو ، الذى تضيع به قداسة ما يصنع . فأقلع عن هذا ، وجلس ساكنًا فى ظل شجرةٍ مصممًا ألاّ يبرح المكان حتى يأتيه «التنوير» .

وفى تأمله هذا يرى الحياة تيارًا متدفقًا «ولادة وفناء» وعودة إلى الحياة فى ولادةٍ جديدةٍ دنية أو سنية ، خيّرة أو شريرة ، سعيدة أو شقية حسب ما يكون لها

من «كارما» وفق ذلك القانون الشامل الذى بمقتضاه سيلقى كل فعل خيرّ ثوابه ، وكل فعل شرير عقابه ، فى هذه الحياة أو فى حياة تالية تتقمص فيها الروح جسدًا آخر.(٣٨)

ولا سبيل لوقف هذه الولادة إلا إذا استطاع الإنسان أن يعيش حياة يسودها العدل الكامل ، والصبر والشفقة على الناس . بل على الكائنات جميعًا . فإذا تطهرت النفس من كل سوء اتحدت باللانهاية اللاواعية . وأدركت النرڤانا .

ولا تكتفى البوذية بتطبيق عقيدة التناسخ والكارما على مستوى فردى وإنما هناك كارما للجماعات يسمونها «الداتو»(٣٩) .

وكما أن هناك صورًا غير محدودة للكارما ، فكذلك للداتو صور غير محدودة ، تتدرج من أنظمة الوجود الكبرى كالمجرات السماوية والأجناس والحيوانات إلى التجمعات البشرية والجماعات والنقابات والأسر ، حتى إلى ما بين اثنين تحابًا أو تعاديا . ولا يقتصر الأمر على الحياة والكراهية ، وإنما يمتد إلى نمو الأجناس وضعفها ، وقيام الممالك وانهيارها ، فكل حركة صغيرة أو كبيرة فى الكون هى حلقةٌ من حركة كونية كبيرةٍ من قوى الكارما والداتو.(٤٠)

وكان لهذا انعكاسه على حياة الأفراد والجماعات . فأعطت لها امتداداتٍ تسبق الحاضر ، وتمتد إلى ما حوله ، وما بعده ، وتتنوع لتشمل مناشط الحياة جميعًا . كلها ينبغى أن يتناولها التطهير حتى تتجنب مهاوى الكارما السيئة . وتبدو فى البوذية أهمية تدريب الفكر والإرادة على تزكية أى عمل ، كما أنها أشاعت المحبة فيما بينهم . وهنا يكمن جانب من أسس الإحسان والرحمة فى المجتمع البوذى والتعاون بين الأفراد وكثرة مؤسسات البر وتشجيعها(٤١) .

ومع ما فى البوذية من نزعة تشاؤمية أو قدرية ـ بمفهوم الكارما والداتو ـ فقد انتشرت انتشارًا واسعًا فى العالم الأسيوى . وعندما طلب تلاميذ بوذا منه أن يحدد معنى الحياة السليمة ، صاغ لهم قواعد خلقيةً خمسًا يهتدون بها قد تكون أشمل نطاقًا وأعسر التزامًا من الوصايا العشر الواردة فى العهد القديم . هذه الوصايا هى :

١ ـ لا يقتلنّ أحد كائنًا حيًّا .
٢ ـ لا يأخذنّ أحد ما لم يُعطَه .
٣ ـ لا يقولنّ أحد كذبًا .
٤ ـ لا يشربنّ أحد مسكرًا .
٥ ـ لا يقيمنّ أحد على دنس .[٤٢]

وتحس روحًا إنسانية عامة فى وصاياه «على الإنسان أن يتغلب على غضبه بالشفقة ، وأن يدفع الشرّ بالخير ، والكراهية بالحب» .[٤٣]

وواضح من اعتقاد البوذية فى الكارما والداتو أنها تجعل الفرد أو المجتمع مسئولا عن أعمال غير أعماله ، وعن أجيال غير أجياله . وهذه أبرز نقاط تعارضها مع المسئولية الفردية التى يؤكدها الإسلام . «وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا» (مريم : ٩٥) .

ولا تبعد بنا كثيرًا ـ من هذه الزاوية ـ عن عقيدة «الخطيئة الأولى» فى العهد القديم . وبها تمسكت اليهودية والمسيحية . وإذا كانت المسيحية قد عالجت الخطيئة بعقيدة «الفداء» ، فإن البوذية عالجتها «بالنرفانا» . ولم تأت فيها بجديدٍ . وإنما تابعت فيها الهندوكية . وبهذا تكون البوذية ـ إذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير ـ هى «العهد الجديد» للهندوكية ، أو أحد صور هذا العهد الجديد .

ولكنها فى ذات الوقت كانت كالنهر الذى ينحت فى هدوء وتصميم ليقتلع من طريقه صخورًا ويشق لنفسه مجرىً : وكانت الصخرة نظام الطبقات الهندوكى وامتيازات البراهمة .

فمع أن بوذا كان من الكشاترية وعاش حياة النبلاء ، إلا أنه فتح ذراعيه للجميع ، لكل إنسان مهما يكن وضعه أو طبقته التى ينتمى إليها . يقول بوذا لتلاميذه بكل وضوح «انتشروا فى الأرض كلها وانشروا هذه العقيدة . قولوا للناس إن الفقراء والمساكين ، والأغنياء والأعْلَيْن ، كلهم سواء . وكل الطبقات فى رأى هذه العقيدة الدينية تتحد لتفعل فعل الأنهار ، وتصب كلها فى البحر» .[٤٤] ويرفض الاعتقاد فى أى كائنات أعلى من هذه الطبيعة كما يرفض

تقديم القرابين للآلهة أو الدعاء لكائن أعلى . ويرى أن طريقه هو الخلاص للكافرين والمؤمنين .

جانب المساواة فى العقيدة فتح أمامها باب القبول أمام أهل جنوب شرق آسيا ، مع شعور الإنسان فيها باحترامه لذاته بعد أن نأت البوذية بنفسها عن نظام الطبقات . ولكن سرعان ما تسرب إليها براهمة الهندوكية وكونوا فيها طبقة من الكهنة التى أَثْرَت مما ابتدعوه فى البوذية من شعائر ومناسك ، حتى وصل الأمر إلى صدامٍ بينهم وبين الحكومات من أجل السلطان والثروة ـ كما حدث فى الصين ـ[٤٥] بينما نظرت إليها اليابان نظرةً ودودًا . وازداد عدد الرهبان والعباد فى سيام وسرى لانكا (سيلان) وبورما ، وتعددت فيها مناشطهم الاجتماعية والتربوية والثقافية .

ومما يستوقف النظر أن تنفى البوذية وجود الخالق الذى يسأل الناس عما يفعلون ، وتعطى الفرد مكانته دون أن تقيده بنظام الطبقات ، ثم تقيده بعد هذا بعقيدة من الكارما والداتو . وكأنها نفت جانب الغيب من العقيدة ، ثم عادت فأدخلت فيها غيبًا جديدًا لا نستطيع له تفسيرًا .

١٣ ـ مع الكونفوشية والتاوية

عاش كونفوشيوس بين ٥٥١ ـ ٤٧٩ ق م . ووضع لأهل الصين فلسفة عملية تقوم على أسس دينية وأخلاقية إنسانية . كان معلمًا ومؤرخًا يعنى بالواقع الذى يعيشه الناس دون أن يشغل فكره أو فكرهم بما وراءه . كان يؤمن بوجود كائنٍ أعلى يسميه « السماء » . وهو قوة مدبرة للكون ذات صفات روحانية وأخلاقية . وآمن بعدالة القدر وأداء العبادات والصوم . وعنى بالعلاقات الاجتماعية الرئيسية وهى عنده خمس : العلاقة بين الأب والإبن ، وبين الزوج وزوجه ، وبين الأخ الكبير والأخ الصغير ، وبين الصديق والصديق وبين الحاكم والرعية . وهذه العلاقات يحكمها مبدأ عام هو «لا تعامل الغير بما لا تحب أن تعامل به» ، كما تحكمها الآداب والعادات الحسنة المأثورة . ويجمع كونفوشيوس الخلق الكريم كله فى

كلمه واحدة هى «جن» أو «ين» وعندما سئل عن مفهومها قال فى إيجاز «أحب الناس» ... وبشرح أوسع «أحبب الناس بسرور ومن صميم قلبك»[٤٦] .

سأله أحد مريديه عن عبادة الأرواح السماوية والأرضية فكان رده : نحن لا نعرف كيف نخدم الإنسان ، فكيف نعرف عن خدمة الأرواح .. ؟

فسأله المريد : وماذا عن الموت ؟

قال كونفوشيوس : نحن لا نعرف عن الحياة ، فكيف نعرف عن الموت ؟

وكان يقول : إن الرجل الحق هو الذى يتبع القواعد دون ضغط من الخارج ويكره ما يعارضها دون خوف من عقاب[٤٧] .

ولا نجد فى الكونفوشية ما يهدر كرامة الإنسان . لا من حيث الأصل ، ولا السلوك فى الحياة ، ولا الرقى الاجتماعى ما دامت مواهبه تؤهله لذلك ، وليست هناك من عقبة لونية أو غير لونية تعوقه عن التقدم .

كانت عناية الكونفوشية بالتماسك الاجتماعى فى نظام مركزى يبدأ من الأسرة ، ومكانة الأب فيها راسخة ، حتى الدولة حيث الإمبراطور هو الأب الكبير . ويظل احترام الآباء قائمًا بعد موتهم ، احترامًا يصل إلى التقديس . فكان فى المجتمع ترابط رأسى وأفقى استطاع أن يحفظه رغم المجاعات المدمرة ودورات الجدب والمجاعات والحروب .

وعاش هذا المجتمع سماحة دينية نادرة . يقول حكيمهم «كل الناس بين البحار الأربعة إخوة» وعجبوا عندما اتصلوا بالحضارة الحديثة ورأوا فيها حروبًا لم تثرها إلا العصبيات الدينية الجامحة ، كما فى الحروب الصليبية مثلاً . ولم يكن غريبًا فى الصين أن يعتنق أحد أفراد الأسرة مذهبًا معينًا ، والآخر دينًا غيره ، والثالث يخالف الاثنين ، والجميع يعيشون فى وئام .

ولا تختلف التاوية عن الكونفوشية فى هذا المجال من حيث احترامها للإنسان وإيمانها بالمساواة . وهى الأخرى نشأت فى القرن السادس قبل الميلاد . والتاو هو الطريق . وإذا كان تركيز الكونفوشية على السلوك الاجتماعى ، فإن تركيز التاوية

على التربية الذاتية ، وترمى إلى تآلفٍ بين الإنسان والكون وبين الكائنات بعضها مع بعض . وتعتبر مبادئها أقدم ما أخرج الفكر الصينى من قيمٍ إنسانيةٍ لها طابعها العالمى الداعى إلى كرامة الإنسان .(٤٨)

ولقد مرت كل من هاتين الفلسفتين بمراحل وتطورات من عهد كونفوشيوس ولاوتسى حتى العصور الحديثة . ولكن يعنينا منها موقفها من الإنسان ، من حيث التفرقة العنصرية أو المساواة .

وقبل أن أدع هذا العرض المقارن أود أن أذكر أن الفكر الصينى لا يماثل الفكر الحديث أو الغربى من حيث البناء المنهجى الذى يضع المقدمات والنتائج ويقسم الموضوعات ، ويتناول كلاً منها على حدة دون استطراد ، ولكنه أقرب ما يكون إلى تدفق النهر أو سير الحياة وتصب فيه مجموعات ضخمة من الحكم والتراث والخبرات الإنسانية والقصص . وعلى الذين يدرسونه أن يدركوا طبيعته وعنايته بالقيم والممارسات الإنسانية والتطبيقية أكثر مما يعنى بالجوانب النظرية فى الحياة .(٤٩)

وإذا كانت الكونفوشية تؤمن «بالسماء» فهى تحمل أكثر من مفهوم الذات العليا . قوانين الكون . عالم الأخلاق(٥٠) ويختلف هذا اختلافًا جوهريًّا عن «عالم الآلهة» الذى رأيناه فى الهندوكية والتباين بينهم ، وكأنه جاء انعكاسًا للفروق بين العناصر والسلالات التى كونت سكان الهند .

لم أجد عند دراسة الكونفوشية والتاوية أثرًا للتفرقة العنصرية . ووجدت المسئولية الفردية مندمجة فى المسئولية الجماعية عند دراسة البوذية . وبدت التفرقة العنصرية فى أشد صورها مع دراسة الفكر الهندى .

وبعد هذه الرحلة نعود إلى الجزيرة العربية حيث مهد الإسلام ، وإلى عهد النبوة لنجمع خيوط البحث التى نشرناها شرقًا وغربًا ، ولنا قبل ذلك :

١٤ـ وقفة مع العلم الحديث

عنيت الأمم المتحدة ومنظماتها المتخصصة بمشكلة التفرقة العنصرية ، وأصدرت فيها أكثر من وثيقةٍ ، تختلف فى التفاصيل التى عرضت لها ، وتلتقى جميعًا فى أساس المساواة الإنسانية العريض .

كمثال جاء فى : «بيان عن العنصر والتمييز العنصرى» الصادر فى باريس سبتمبر ١٩٦٧ ، عن مجموعة من العلماء العالميين بدعوة من هيئة اليونسكو :

«إن الناس جميعًا ولدوا أحرارًا ومتساوين فى الكرامة والحقوق . جميع الناس الذين يعيشون الآن يرجعون إلى نفس الجنس وينحدرون من نفس الأصل . إن تقسيم الناس إلى أجناس ، جزء منه اعتبارى وجزء منه تحكمى . وإن معرفتنا البيولوجية الحالية لا تتيح لنا القول بإرجاع إنجازاتٍ ثقافيةٍ إلى فروق فى الإمكانات الوراثية (الجينية) . وإن الفروق فى الإنجاز بين مختلف الشعوب ترجع فقط إلى تاريخها الثقافى . إن العنصرية تزيّف معرفتنا بالبيولوجيا الإنسانية . ولكى نجتث العنصرية ، لا يصح الاكتفاء بأن يفند البيولوجيون خرافاتها ، وإنما على علماء النفس والاجتماع أن يبينوا أسبابها . فالبناء الاجتماعى عامل هام دائمًا » .[٥١]

١٥ـ خاتمة

وتصل بنا هذه الوقفة إلى المرحلة الختامية فى هذا البحث وفيها نرى :

١ ـ إن ما انتهت إليه سفينة العلم الحديث بعد رحلة طويلة ـ سعيًا إلى الإخاء الإنسانى ـ التقى مع ما جاء به القرآن الكريم وحيًا من عند الله تعالى ونادى به الرسول ﷺ مبشرًا ونذيرًا .

٢ ـ إن حياة المصطفى ﷺ ، كانت تصويرًا حيًّا لما دعا له من المساواة بين الناس وإن هذه المساواة كانت فى حياته الأسرية الخاصة وفى حياته العامة .

٣ ـ إنه دعا أصحابه إلى الإيمان بهذه المساواة ، ونبذ دعوى العصبية والجاهلية وتعظمها بالآباء . وأدان أى انحرافٍ عن هذا النهج السوى .

٤ ـ إننا فى دراستنا المقارنة رأينا كيف عالج القرآن موضوع خطيئة آدم بحيث لم يجعل أبناءه مسئولين عن أى جانب فيها . وإن آدم جاء إلى الدنيا مغفورًا له ليقوم بمسئولية خلافة الله فى أرضه . ونحن جميعًا أبناء نبى كريم وحياتنا الدنيا ليست عقوبةً ولا تكفيرًا ، ولا تحتاج ـ فى العقيدة الإسلامية ـ إلى تكملة يحمل مسئوليتها من يخلص الناس من الخطيئة ويفديهم . فالتوبة والمغفرة فى الإسلام جزء من قصة آدم . ذلك لأننا لو سلمنا بانتقال الخطيئة لفتحنا الطريق لانتقال أثر اللون والعنصر. وتنتفى بهذا قاعدة المساواة ، كما يصورها الإسلام . ومن هذه الزاوية يبدو جانب من التباين فى قصة الخلق كما جاءت فى القرآن الكريم وما جاء فى سفر التكوين من العهد القديم وما ترتب عليه فى العهد الجديد .

هذا إلى أنه فى العهدين ـ إلى جانب ذلك ـ نصوصٌ عن الإخاء الإنسانى والعدل وإدانة العنصرية تلتقى مع ما جاء به الإسلام وما ينادى به العلم الحديث .

٥ ـ فإذا انتقلنا إلى الشرق الأقصى وجدنا العنصرية فى أشد صورها كما تصورها الهندوكية القديمة ، وكيف انتقل الصراع من البشر عندهم إلى الآلهة على أساس عنصرى . والكتب المقدسة عندهم مجهولة الأصل يستوى فى هذا الفيدا والمهابراتا وغيرهما . وإذا كان البراهمة قد أحاطوها بكل هذه القداسة ، فإن الحقيقة العنصرية فيها لا تخفى فى الدين ولا فى الحياة . واضطرت الهندوكية تحت ضغط الحياة إلى التخلى عن جوانب من صلابتها القديمة اقترابًا من الإخاء الإنسانى .

٦ ـ وتأتى البوذية فى جوهرها ثورة فكرية على الهندوكية ، تنادى بالمساواة بين الناس . ولكنها تظل محتفظةً بعقيدة التناسخ وبها تنتفى المساواة . هى تؤمن بالكارما الفردية والجماعية . ولكن البوذية فى مجموعها أقرب إلى العدالة كثيرًا من الهندوكية ، وجذورها التاريخية معروفة : من بوذا الذى طلب التنوير إلى أتباعه الكبار من بعده ، ورؤساء المدارس الكبرى فى نحلته .

٧ ـ وإذا كانت الكونفوشية قد عنيت بالأرض والحكومة والناس والنظام الاجتماعى . فإنها قللت كثيرًا من مساحة السماء فى العقيدة ، وركّزت على احترام

الدولة والآباء احترامًا وصل إلى التقديس . والقضية فى الكونفوشية أنها لا تعنى كثيرًا لا بالبدء ولا بالمعاد . وإنما تعنى بما هو هنا . بحياتنا نحن . بينما تركز التاوية على التربية الذاتية دون عناية كبيرةٍ أيضا بالبدء والمعاد . وإيمان التاوية بالمساواة كريم . هنا نجد فيلسوفين تحولت آراؤهما إلى ديانات ، وإن لم ينا ديا بدينٍ جديدٍ . نادى كل منهما بطريق : طريق بالمفهوم العقلى والنفسى والاجتماعى . أحدهما يركز على الخارج والمجتمع : والثانى على الذات والداخل . ينصرفان عن البدء والمعاد اشتغالا بواقع الحياة ، ولا يدعان للغيب إلا القليل . وهنا يبدو جانب من الفرق الكبير بين الإسلام وبينهما .

٨ ـ وينادى العلم الحديث بالمساواة بين الناس ويدين التفرقة العنصرية . ولكن ماهى الوسيلة لتطبيق ذلك ؟ القول جميل . ولكنهم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا . العسف الذى يلقاه الأفريقيون فوق أرض قارتهم فى أقصى الجنوب . ما يلقاه إخوتنا وأهلنا تحت الاستعمار الإسرائيلى . البطش الذى يلقاه إخوتنا من الأقليات الإسلامية فى بعض أقطار الشرق الأقصى . الحاجز اللونى الذى ما زالت آثاره قائمةً فى الحياة الأمريكية . وبعض هذا تسرب إلى أقطارنا الإسلامية . وفى عدد من قضايانا السياسية وصراعاتنا ، كان صوت القومية ـ والطائفية والعنصرية أحيانًا ـ أعلى من صوت الدين . فالعنصرية عريقة فى الإنسان . وعندما نادى الرسول ﷺ بالمساواة بين الناس وجد بعض العقبات وأرادت العنصرية أن ترفع رأسها حتى بين الصحابة فبادرها المصطفى ﷺ بالإدانة ونبه أصحابه إلى دعوات الجاهلية وتعاظمها بالآباء والتكاثر بهم .

وهنا تبدو أهمية الربط بين القول والعمل ، وبين العقيدة والتطبيق ، بحيث تصبح هذه القواعد نماذج حية تسير بين الناس حبًّا وإخاءً ورحمة .

هذه الزاوية تميز بها الإسلام عن العلم الحديث : تطبيق العقيدة والأمر الإلـٰهى فور نزوله : أن يكون المصطفى ﷺ القائد الذى يبدأ بنفسه ، ويدعو من حوله ليعطى الإنسانية صورةً من الوحى حيًّا ناطقًا . وليكون المجتمع الإسلامى إسلامًا منظورًا متحركًا إلى جانب الإسلام المقروء .

١٦ـ وعلينــا مسئوليـــة

ما قصدت بهذا البحث أن يكون مجرد دراسة مقارنةٍ تضاف إلى دراسات سابقة . ولا أستطيع القول بأن نتائج الدراسة المقارنة كانت بهذا الوضوح فى ذهنى قبل البدء فيها . ولكنى أحسست كثيرًا من الاطمئنان والمسئولية عندما بدأت أكتب خاتمة البحث .

فالمصطفى ﷺ أرسله الله رحمةً «للعالمين» لا يختص بعصرٍ دون عصر ، ولا أمة دون أمةٍ . والإسلام له امتداده الزمانى والمكانى والموضوعى . هو «كلمة الله» وحين تكون كلمته بهذه القوة وهذا الوضوح والبساطة ، فهى ـ من قبل ومن بعد ـ هدية ربّ الناس إلى الناس . ليس فى قوتها انتصار جنسٍ على جنسٍ ولا عنصرٍ على عنصرٍ ولا دينٍ على دينٍ .

ولقد رأينا كيف تسير الديانات والفلسفات سيرًا حثيثًا ـ أو بطيئًا ـ نحو مانادى به المصطفى ﷺ من وحى رب العالمين . وكيف يسير العلم أيضًا فى هذه السبيل . وكيف تتقارب جهود الإنسانية فى مجالات الاجتماع والنفس والثقافة وعلوم الحياة ومجامعها الدولية . وكيف تتلاقى الأفكار ، لتحقيق ما أراده رب الناس للناس ، وما جاء على لسان خاتم النبيين مصدقًا لما بين يديه وهدى للناس أجمعين .

حقا .. لقد شهد المجتمع الإسلامى مشكلاتٍ من التفرقة العنصرية ، ولكنه استطاع أن يذيب الكثير . وكانت إفاقته أسرع من إفاقة مجتمعات سبقته على طريق العلم الحديث ، لا تزال أصوات الأغلال مسموعة فيها ، ومشكلات التفرقة العنصرية نابضة فوق أرضها بثورة الكلمة والمقاومة والسلاح أحيانًا .

وما جاء به الإسلام من نقاءٍ ومساواةٍ علينا واجب إشاعته بين الناس بأكثر من لغة : بالكلمة المكتوبة والمسموعة . بالحوار . علينا أن نتتبع الشبهات التى تثار حول الإسلام : ردًّا عليها وإظهارًا للحق . فهو من عند الله لا من عند أنفسنا . علينا أن نبرز هذا التلاقى السمح بين ما انتهى إليه العلم وما جاء به الإسلام . علينا أن نؤكد ضرورة اللقاء بين الفكر والقرار والتنفيذ . علينا أن نتابع السعى لتكون التفرقة العنصرية من مخلفات ماضٍ آخذٍ فى الغروب .

ويحتاج هذا منّا إلى متابعته فى الجهود ، وتحويل لها من المستوى الفردى إلى المستوى الجماعى . من جهود العلماء إلى جهود المؤسسات . هكذا يسير البحث العلمى الآن فى عصر تدافع فيه الإنتاج الفكرى تدافع السيول تحمل الغثاء وما ينفع الناس .

ونحن حين نتابع هذه المسيرة متعاونين ، لا نؤدى فقط بعض حقّ الرسول ﷺ علينا ، وإنما نعين على أن تصالح الإنسانية ربّها ، وتدرك عظمة ما أنزل الله على رسوله ﷺ وما هى بحاجةٍ إليه ، وما اتفقت فيه كلمة الإسلام مع كلمة العلم .

ما أكرم ما قال وما تتطلع إليه الأفكار والقلوب :

«أيها الناس إنّ ربّكم واحد . وإنّ أباكم واحد . كلكم لآدم . وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربيٍ فضل على عجميٍ ولا لأحمر فضل على أسود إلا بالتقوى» .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

مكتبـــة البحـــث

١ ـ عبد العزيز كامل : الإسلام والتفرقة العنصرية . اليونسكو ١٩٧٠ ـ من سلسلة المسألة العنصرية والفكر الحديث . وله طبعات بالإنجليزية والفرنسية والفارسية صادرة أيضًا عن اليونسكو .

٢ ـ كنموذجٍ يمكن الرجوع إلى :

BANTON, M.: RACE RELATIONS, P.P. 99-130, LONDON.

(بنتون : العلاقات العنصرية) .

وفى هذا الفصل السادس من كتابه يدرس الرمد والعالم الجديد .

٣ ـ عبد العزيز كامل : قيام الإسلام : دراسةٌ فى الجغرافيا التاريخية .
محاضرة فى الموسم الثقافى الثالث للأزهر الشريف . قاعة الإمام محمد عبده .
١٣٨٠ هـ/١٩٦١ م .

٤ ـ الراغب الأصفهانى : معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ط . بيروت ص ٥٩٩ .

٥ ـ طبقات ابن سعد ١ : ١١٦ ط . بيروت .

٦ ـ ابن القيم : زاد المعاد . ١ : ١٩ ط المصرية . القاهرة .

٧ ـ سيرة ابن هشام ٤ : ٦ ط . الحلبى . وفى مراجعة مهاجرى المسلمين إلى الحبشة ـ كنموذج ـ نرى كيف كانت الأسر منقسمةً بين مؤمنٍ وكافرٍ .

٨ ـ سليمان الندوى : الرسالة المحمدية ص ١٥٠ ط . دمشق .

٩ ـ نفس المرجع ص ١٥١

١٠ ـ نفس المرجع ص ١٥٢

١١ ـ طبقات ابن سعد ٧ : ٣٨٥

١٢ ـ نفس المرجع ٧ : ٣٨٦

١٣ ـ ابن خلكان : وفيّات الأعيان ٣ : ٧٠ ط . بيروت .

١٤ ـ المنذرى : مختصر صحيح مسلم ٢ : ٢٠٦ ط . الكويت .

١٥ ـ ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ١٦٥

١٦ ـ مفردات الراغب الأصفهانى : مادة مهن ص ٥٤٥ .

١٧ ـ نفس المرجع مادة «متع» ص ٤٨١

١٨ ـ يجوز أن يكون من قولهم حنكت الدابة أى أصبت حنكها باللجام والرسن . ويجوز أن يكون من قولهم احتنك الجراد الأرض أى استولى بحنكه عليها فأكلها واستأصلها فيكون معناه لأستولين عليهم استيلاءه على ذلك . يراجع مفردات الراغب الأصفهانى مادة «حنك» ص ١٣٣ .

١٩ ـ موريس بوكاى : دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة . ص : ٢٥ ط . المعارف القاهرة . ١٩٧٨ (الترجمة العربية) .

٢٠ ـ قاموس الكتاب المقدس : مادة فدى ص ٦٧٢ ، عمد ص ٦٣٧ ـ ٦٣٨ عن أسرار الفداء والمعمودية . ط . بيروت ١٩٦٤ (بإشراف د .بطرس عبد الملك وآخرين) .

٢١ ـ بنتون ١٩٦٧ : الفصل السابع عن : السيادة البيضاء فى الولايات المتحدة ص ١٣١ ـ ١٦٣ والفصل الثامن عن السيادة البيضاء فى جنوب أفريقية ص ١٦٤ ـ ١٩٢ . وهناك مكتبة كاملة عن الصراع العنصرى وما قام به السود دفاعًا عن حقهم فى حقوقهم الإنسانية وأبرزكتبها وأوسعها انتشارًا فى أعوامنا هذه «الجذور» لألكس هيلى :

ALEX HAILEY : ROOTS, LONDON, 1977.

٢٢ ـ سيرة ابن هشام ٤ : ٥٤ ط . الحلبى مصر .

٢٣ ـ RADHAKRISHNAN : INDIAN PHILOSOPHY, VOL. I PP. 100. LONDON, 1958.

(رادا كرشنان : الفلسفة الهندية . ١ : ١١٠ ط . لندن ١٩٥٨)

٢٤ ـ ول ديورانت : قصة الحضارة الجزء الثالث : الهند وجيرانها ص ٤٠ ـ

٤٢ط . القاهرة ١٩٥٠ . ..ويورد المؤلف فى هذه الصفحات نقلاً عن رج ـ فيدا فى جزئه العاشر حوارًا بين الأبوين الأولين للبشر جاء فيه .. « والواحد الأحد لم يكن هناك سواه . إن من صدر عنه هذا الخلق العظيم ... هو ربنا الأعلى فى السموات العلى » .

٢٥ ـ رادا كرشنان ١ : ١١٠ ـ ١١٢

٢٦ ـ INTERNATIONAL ENCYCLOPEDIA OF THE SOCIAL SCIENCES, COLLIER & MACMILLAN, 1972.

(دائرة المعارف العالمية للعلوم الاجتماعية ـ ١٩٧٢)

وفى دراسة الهندوكية تتحدث عن الڤارنات أو الطبقات الأربع التى خلقت من جسم الإنسان الأول . وهو بدوره تجسيد للخالق . ولقصة الخلق فى الفكر الهندوكى أكثر من روايةٍ . انظر ٦ : ٣٥٨ .

٢٧ ـ رادا كرشنان : ١ : ١١٣ .

٢٨ ـ نفس المكان .

٢٩ ـ تذكر الرج ـ فيدا الصراع بين الإله ڤارونا وكيف ساد عليه الإله إندرا ثم كيف ظهر البطل المؤله : كرشنا بين المقهورين (غير الآريين) كعدو لإندرا . (رادا كرشنان ١ : ٨٧) ، واستطاع كرشنا أن يستعيد فى عهد الباجافادجيتا كثيرًا من سلطانه الذى فقده ، واتحد مع آلهة أخرى وأصبح أبرز أبطال المهابراتا .. وفيها نرى كرشنا وحوله هالة من التراث الدينى لا تزال باقية حتى الآن : باعتباره بطلاً غير آرىٍ ومعلما روحيًّا . وإله لقبيلة . وكيف تدرج فى المهابراتا حتى أصبح عندهم الإله الأعلى (رادا كرشنان : ١ : ٤٩٤) .

٣٠ ـ دائرة معارف العلوم الاجتماعية ٦ : ٣٥٨ ط ١٩٧٢ وفيها تفصيل فى هذا الموضوع لا تجده فى ط ١٩٦٢ . ويوروشا عندهم الإنسان الأول وهو تجسد للإله الخالق .

٣١ ـ أورد رادا كرشنان (١ : ٤٨٠) تفصيلاً عن مكانة ـ من يدعى ـ ڤياسا

وإنتاجه الأدبى فى المهابراتا . ويراجع أيضا ول ديورانت (٣ : ٢٩٢ . ٢٩٣) حيث يقول : إن المهابراتا منسوبة إلى مؤلفٍ أسطورى يسمونه «ڤياسا» وهى كلمة معناها المنظّم . فقد كتبها مائة شاعرٍ وصاغها ألف منشدٍ . ثم جاء البراهمة فصبوا فيها أفكارهم وخلعوا عليها صورتها الجبارة التى نراها عليها اليوم . وهى قصة عنف ومغامرة وحروب . والشخوص فى هذه القصص تتداخل .. بل البشر والآلهة عندهم . والذى يعنينا هو بروز أو إبراز شخصيات غير آريةٍ إلى المقدمة .

٣٢ـ رادا كرشنان ١ : ٢٤٤ ـ ٢٤٩ ويدرس قانون الكارما كما جاء فى اليوبانشاد . يخصص الفصل الذى يليه (١ : ٢٤٩ ـ ٢٥٦) «للحياة المقبلة» .

٣٣ـ يدرس ول ديورانت ٣ : ١٦٤ ـ ١٧٠ تنظيم المجتمع . ونشأة طبقة البراهمة وتطورها ، وما كان لهم من امتيازاتٍ ثقيلة الوطأة وما عليهم من طقوسٍ يؤدونها وما قاموا به من دورٍ فى تنظيم المجتمع .

٣٤ـ دائرة معارف العلوم الاجتماعية ٢ : ٦٧٨ ط . ١٩٦٢ ويراجع أيضا ول ديورانت ٣ : ٤٢١ عن تحريم حرق الزوجة وتحريم زواج الأطفال والانقراض السريع لراقصات المعابد .

٣٥ـ ول ديورانت ٣ : ٤١٤

٣٦ـ نفس المرجع ٣ : ٦٤

٣٧ـ رادا كرشنان ١ : ٣٤٧ عن نشأة بوذا ـ المستنير ـ وعن النرڤانا فى البوذية ١ : ٤٤٦ ـ ٤٥٣ .

٣٨ـ ول ديورانت ٣ : ٧١

٣٩ـ دائرة معارف العلوم الاجتماعية ٣ : ٣٣ ط . ١٩٦٢ .

٤٠ـ نفس المكان

٤١ ـ نفس المرجع ٣ : ٣٤

٤٢ ـ ول ديورانت : قصة الحضارة ٣ : ٧٧

٤٣ ـ نفس المكان .

٤٤ ـ نفس المرجع ٣ : ٨١

٤٥ ـ دائرة معارف العلوم الاجتماعية ٤ : ١٩٨ ط . ١٩٦٢ .

٤٦ ـ FUNG YU-LAN : CONFUCIANISM AND TAOISM.
BEING, CH. 22 IN :
RADHAKRISHNAN (EDITOR) : HISTORY OF PHILOSOPHY EASTERN AND WESTERN, VOL. I, P.P. 563-4.
LONDON 1952

(فونج يولان : الكونفوشية والتاوية وهو الفصل الثانى والعشرون من كتاب تاريخ الفلسفة شرقًا وغربًا صدر بإشراف رادا كرشنان . لندن ١٩٥٢ ١ : ٥٦٣ ـ ٥٦٤) .

٤٧ ـ LIN YUTANG : THE WISDOM OF CHINA, PP. 291-292, LONDON, 1963.

(لن يوتانج : حكمة الصين ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ : لندن ١٩٦٣) ويترجم المؤلف ـ وهو صينى الأصل ـ نصوصًا من حكماء الصين وأبرزهم لاوتسى وكونفوشيوس . كما يدرس مكانة ومنهج الفكر الصينى مقارنًا بالفكر الغربى) .

٤٨ ـ ويلاحظ أن القرن السادس قبل الميلاد كان قرن نشاطٍ فكريٍّ وفلسفيٍ ودينيٍ كبير : ففيه ظهر بوذا ولاوتسى وكونفوشيوس فى الشرق الأقصى كما ظهر النبى أرميا فى الشرق الأوسط ..وربما زرادشت فى فارس . ويرى لن يوتانج أن كتاب «التاو» أو الطريق للاوتسى هو أروع ما صدر عن الفكر الشرقى القديم موضحًا خصائصه : انظر لن يوتانج : حكمة الصين : ص ٢٥ . وفى المقارنة بين الكونفوشية والتاوية : انظر : ول ديورانت : قصة الحضارة الجزء الرابع ، الشرق الأقصى : الصين (الترجمة العربية)

القاهرة ١٩٥٠ فى آراء لاوتسى ص ٣٠ـ ٣٩ وفى أراء كونفوشيوس ص ٤٠ ـ ٦٤ ولن يوتانج ٢٥ ـ ٢٩ فى عرض الآراء وتليها ترجمة من نصوص كتاب الطريق ـ والكتاب مترجم إلى العربية (مجموعة الألف كتاب . القاهرة) .

٤٩ ـ لن يوتانج : حكمة الصين : مقدمة الكتاب من ص ٩ إلى ص ١٩ دراسة مقارنة فى خصائص الفكر الصينى .

٥٠ ـ LO CHIA-LUEN : GENERAL CHARACTERISTICS OF CHINESE THOUGHT. BEING CHAP. 21 IN RADHAKRISHNAN (OP. CIT. (1952) VOL I:557).

(لوشيالوين : المميزات العامة للفكر الصينى وهو الفصل الواحد والعشرون من كتاب رادا كرشنان السابق الذكر (١٩٥٢) ١ : ٥٥٧) .

٥١ ـ KUPER, L. (EDITOR): RACE, SCIENCE AND SOCIETY, PP. 360-364. UNESCO. 1975.

(كيوبر (مشرف) العنصر والعلم والمجتمع ص ٣٦٠ ـ ٣٦٤ اليونسكو ١٩٧٥) .

القسم الثاني

المجتمع

الفصل الرابع

دور المرأة في إقامة المجتمع الإسلامى الأول

من بحوث الندوة العالمية عن مكانة المرأة فى الأسرة الإسلامية بدعوة من المركز الدولى الإسلامى للدراسات والبحوث السكانية بجامعة الأزهر.

القاهرة ٢٠ ـ ٢٢ ديسمبر ١٩٧٥ م

دور المرأة فى بناء المجتمع الإسلامى الأول

عندما التقيت بالزملاء المشرفين على تنظيم هذا المؤتمر ، تدارسنا عدة موضوعات وانتهينا إلى اختيار «دور المرأة فى بناء المجتمع الإسلامى الأول» لأتحدث فيه إليكم .

وأول ملاحظة على الموضوع : أنه على مستوى المجتمع ، بينما لقاؤنا على مستوى الأسرة ، والثانية أنه يصور مرحلةً تاريخيةً ومساحةً مكانيةً مضى عليها أربعة عشر قرنًا ، بينما أذهاننا أكثر توجّهًا إلى اليوم والغد . وإذا كان أكثر الحديث فى عالمنا المعاصر عن المتغيرات ، فما مجال هذه الثوابت التاريخية فى حوارنا ؟

وأود أن أذكر ابتداء أن الاختيار كانت له أبعاده الزمانية والمكانية التى تجعل الفصل بين حياة الأسرة والمجتمع غير منطقىٍ ، لقد كان ذلك المجتمع مجالاً أساسيًّا لنشاط الأسرة ، يتبادل التفاعل معها . وجانب كبير من دور المرأة فى تكوين أبنائها أو معاونة زوجها أو أخيها أو أبيها كان ينعكس على أنشطة المجتمع وانطلاقته العملاقة .

هذا فضلاً عن أن ذلك النشاط كان تغييرًا قويًّا فى نمط الحياة الإنسانية ، ومكانة المرأة فى أسرتها ومجتمعها ، وعلينا ونحن ندرس هذا المجتمع أن ننظر إليه على أساسٍ مقارنٍ : ماذا كان قبله ؟ وماذا كان حوله ؟ هل كان بأحداثه خطوة واسعة إلى الأمام ؟ إذا كان الأمر كذلك فطبيعته تقدمية ، وعلينا أن نحافظ على هذه الطبيعة : نتقدم بالحياة على هَدى من التوجيهات الربّانية . فالأمر بهذا ليس مجرد سرد أحداثٍ أو تصوير مجتمع فى إطاره الزمانى والمكانى ودور المرأة فيه ، وإنما محاولة التعرف على طبيعته والقوى المحركة فيه ، وأن ننظر إليه فى إطار حركته وهى جزء من حركة التاريخ فى تدفقه الذى يلتقى فيه وحى السماء بجهد البشر من أجل حياة أفضل .

أول مـــن آمـــن

ولا نستطيع أن نبدأ دراسة هذا المجتمع دون أن نرجع إلى جذوره المكية ، حيث الجماعة الإسلامية لا تسيطر على الأرض ولا على نظام الحياة فيها . نرجع لنركز نظرنا على أضيق الدوائر التى تعاونت مع الرسول عليه الصلاة والسلام . وفى هذه الدائرة نركز النظر على أول من آمن .

وهنا تبرز أمامنا شخصية أُمّنا خديجة زوج الرسول ، فعندما جاءه الوحى فى غار حراء وعاد إليها ، آمنت به وصدّقت أنه رسول من عند الله . وقالت له : « والله لن يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلّ وتُكسِب المعدوم وتُقرى الضيف وتُعين على نوائب الحق » .

وتصحبه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فيؤكد ورقة أنه الوحى والرسالة ، وتبدو أمامنا صحيفة الإسلام الأولى : رجل يحمل الرسالة ، وأول من تؤمن به سيدة ونعود مع التاريخ إلى المسيحية ..

نبىٌّ كريمٌ يتكلم فى المهد هو عيسى عليه السلام .

« قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًّا ، وجعلنى مباركًا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيًّا ، وبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جبارًا شقيًّا . والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًّا » (مريم ٣٠ ـ ٣٣)

وتكون أمه مريم أول من يؤمن به .. ومرة أخرى :
رجل يحمل الرسالة وأول من تؤمن به سيدة
ونعود إلى قصة موسى عليه السلام

يقص علينا القرآن الكريم كيف رعته أمّه ، وعندما خافت عليه ألقته فى اليم ، تتبعه عين أخته ، حتى وصل إلى يد أمّه الثانية : امرأة فرعون ليكون فى كفالتها حتى يبلغ أشده ويستوى .

ونسمع قول الله وتعالى « وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه

فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين» (القصص : ٧)

ومرة أخرى نرى رجلاً يحمل الرسالة وأول من تؤمن به سيدة. آمنت به حينما آمنت بوعد الله وبشارته «إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين».

قصة تتكرر فى النبوات الكبرى.. فى التوراة والإنجيل والقرآن ـ مع موسى وعيسى ومحمد عليهم من الله صلاة وسلام ـ تكون المرأة فيها أول المؤمنين، وتقوم بدور كبير، أمًّا وزوجة.

ولو عدنا إلى زاوية التربية والنشأة الأولى، وجدنا دور آمنة بنت وهب أمّ نبينا محمد، ومريم أمّ عيسى، وأمّ موسى، عليهم وعلى جميع الأنبياء صلاة وسلام.. وجدنا الدور بارزًا فى الرعاية والتربية كما رأيناه بارزًا فى الإيمان. ثم نجد المرأة مشاركة بعد هذا فى تحمل أعباء النبوة والرسالة. ونحن جميعا نعرف دور خديجة ومريم وأمّ موسى فى هذا المجال. وبرزت هذه المسئولية فى مجال الأسرة كما كانت فى مجال المجتمع الكبير.

فى مكـــة

وتسرى الدعوة الإسلامية من البيت الصغير إلى المجتمع الكبير، تسرى بعد أن آمن البيت بمن فيه من بنين وبنات.

لقد مات أبناء النبى الذكور صغارًا وعاشت له زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة.

وآمن بنات الرسول بالإسلام وجاء مع الإيمان التضحية وتحمل الإيذاء فقبل الرسالة، كانت رقية وأمّ كلثوم معقودًا عليهما لعُتْبة وعُتَيْبة ابنى «أبى لهب» عمّ الرسول، وعندما جاء الإسلام حارب الرجل (أبو لهب) وزوجه الرسول حربًا لا هوادة فيها. وأخذ الرجل وزوجه يضغطان على ابنيهما ليردا بنتى الرسول إليه حتى تشغله همومه عن هموم الدعوة الإسلامية.

ويرى الرسول الذى سبق له أن فقد ولديه ـ القاسم وعبد الله ـ صغيرين،

كيف تعود إليه ابنتاه بكل ما كان يحمل زواجها من أمل فى سعادة وذرية يحسّها كلّ أبٍ وأمٍ .

ويأبى أبو العاص بن الربيع ـ زوج زينب ـ كبرى بنات الرسول وابن خالتها هالة ـ أن يطلق زوجه الحبيبة . ويقف معارضًا قومه لا يلين . ولكنه لم يؤمن بالإسلام بعد ، وتعيش زينب وزوجها هذه المعاناة : بين أبٍ تحبه وتؤمن به ، وزوجٍ تحبه وتحب له الإيمان الذى لم ينفتح له قلبه بعد .

وتتزوج رقية من عثمان بن عفان .. ولكن يعقب الزواج هجرة إلى الحبْشة ، وإذا بالبيت النبوى وقد انشطر ، جزء فى مكة وجزء فى الحبشة ، وشاركت بعض المؤمنات فى هذه الهجرة .

وكان فى البيت من الذكور علىّ بن أبى طالب ـ ابن عم الرسول ـ وهو أول من آمن من الصبيان ، ووقف إلى جوار الرسول فى حياته حتى لقى ربه ، وشارك فى المسئولية بعده ، ثم حملها على طريق الحق حتى مات من أجلها شهيدًا .. وفى البيت النبوى كان زيد بن حارثة ، ابن الرسول بالتبنى ، قبل أن يحرّم الإسلام ذلك . وقد اختار حياته مع الرسول وآثره على أبيه عندما جاء الأب ليعيد زيدًا إلى قومه .

ولم تقتصر المعاناة على الجوانب العاطفية ، فقد لقيت المرأة المسلمة من الأذى البدنى ما وصل إلى التعذيب والقتل .. كما حدث مع الصحابية الجليلة سمية (أم عمار بن ياسر) حينما جاءتها طعنة غادرة كافرة كانت بها أول شهيدةٍ فى الإسلام .

وتحملت النساء مع الرجال والولدان مسئولية الحصار الاقتصادى ما بين العام السابع والعاشر للبعثة .. ثلاث سنوات من الجوع والعطش والحرمان عاشوها بقلوب عامرة بالإيمان فوق بطون خاوية على أعواد زاوية ما خفضت إلاّ لربّها الجبين .

فى مكة إذن رأينا المرأة مؤمنةً مهاجرةً مجاهدةً صابرةً شهيدةً.. مشاركة فى مسئولية الإيمان مشاركةً كاملةً راضيةً .

وكما رأينا دور المرأة فى الهجرة إلى الحبشة شريكةً صابرة ، نراها فى الهجرة إلى المدينة مشاركةً فى التنظيم ، بالإضافة إلى مسئولية الحياة فى الوطن الجديد .

ولقد تعاون فى الإعداد للهجرة أفراد كانوا يمثلون المجتمع الجديد كله . ونركِّز القول هنا على دور المرأة فى الهجرة ..

فى الهجـــرة

وفى هذا المجال يبرز اسمان .. أسماء وعائشة بنتا أبى بكر الصديق . كانت أسماء حبلى متمة ، ومع هذا كانت تصعد الجبل الوعر إلى الغار الذى آوى إليه الرسول وأبو بكر ثلاثة أيامٍ تحمل إليهما طعامهما فى هدوءٍ وكتمانٍ لم تستطع أعين كفار قريش أن تدرك به دورها .. وكانت تعينها أختها عائشة فى إعداد الطعام ، فكأن جانبا من سرّ الهجرة وخطتها كان مع أسماء .. تعرف مكان الغار وتذهب إليه بالطعام كل يوم .

وهى فى ذات الوقت متعاونة مع أخيها عبد الله بن أبى بكرٍ وكان عليه أن يحمل أخبار مكة إلى الغار فى تقريرٍ يومىٍ . ومن بعدهما يمر عامر بن فهيرة مولى أبى بكر بأغنامه ليُعَفّى على آثار أقدام أسماء وعبد الله بن أبى بكر .

فالأمر إذن لم يكن مجرد إحضار الطعام .. ولكن أمر تعاون وتوقيت بين ثلاثة أفرادٍ : سيدة وشاب وراعٍ ترجع أصوله إلى أفريقية .

وجاءت الهجرة معاناةً قاسية فيها الإيذاء والتفريق بين المرء وزوجه وولده ومصادرة التجارة والحبس والقيد .

ونكتفى هنا بنموذجين : أحدهما من أسرة النبى عليه الصلاة والسلام والثانى لسيدة كريمةٍ شهدت هجرة الحبشة والمدينة .

ولنبدأ ببيت النبوة آخذين النموذج من قصة زينب الكبرى .

زينب الكبرى

كانت حياة زينب تجرى رتيبةً هادئةً زوجها أبو العاص بن الربيع ابن خالتها ، ثم تؤمن هى بالإسلام ويبقى هو على دين قومه ، ويحاول أهله معه أن يطلقها فيأبى ويعرضون عليه من يشاء من بنات قريش فلا يعدل بزينب أحدًا . ويهاجر البيت النبوى وتبقى هى مع زوجها فى مكة .

ولنا أن نتصور هذه الوحدة ، التى خفف منها جنين تحمله زينب وهنًا على وهنٍ .

وتأتى غزوة بدر فى العام الثانى للهجرة ، ويخرج زوجها فى صفوف قريش مقاتلاً ضد المسلمينَ الذين يقودهم رسول الله ﷺ .

ما شعور أبى العاص بن الربيع ؟ وما شعور زينب ؟ وما شعور الرسول الأعظم والمحاربين معه حينما يجدون زوج بنت الرسول فى صفوف الأعداء ؟

وتنتهى المعركة وأبو العاص بين الأسرى .

وتبعث زينب بفدائه ..

وما الفداء ؟

إنه عقد أمها خديجة ! !

أيُعرض العقد الغالى بين الغنائم بعد أن كان حلية جيد أمّ المؤمنين الأولى التى ما عدل بها الرسول أحدًا . والتى بذلت كل ما تملك من صحةٍ ومالٍ فى سبيل الله ؟

وينظر الرسول والذين معه إلى العقد ، وتهيج فى نفسه الذكرى ويخاطب أصحابه قائلا : «إن رأيتم أن تُطْلِقوا لها أسيرها وتردوا عليها ما لها فافعلوا» .

ويذكرون خديجة أمَّهم الأولى ويعيدون العقد والأسير إلى زينب .

ولكن ..

يكلف الرسول أبا العاص أن يبعث إليه بزينب ؛ فقد نزلت آية التحريم ولم

تعد زينب تحلُّ له من بعد أن ظل على دين قومه .

ويعود أبو العاص إلى مكة ليبعث بزينب وهى حبلى إلى أبيها فى المدينة . ولكن : هل تترك مكةُ زينبَ تخرج إلى أبيها بعد أن شهد ميدان بدر من شهد من قتلى قريش ؟

أتعود بنت محمد إلى أبيها وفى مكة من فيها من الأرامل واليتامى والثارات ؟

لقد نسى القوم عدوانهم القاسى على الرسول والذين معه ، ولم يعودوا يذكرون إلا ظَعينةً مسلمة عائدةً إلى أبيها رسول الإسلام . لم يذكروا أَلَمَ فراقها عن زوجها ولا أَلَمَ الحمل وطول السفر .

فليخرجوا بأضغانهم لإيذاء زينب وهى بطريق الهجرة . وكان أبو العاص قد كلّف أخاه كنانة بن الربيع بمرافقة زوجته ، ويفاجأ كنانة بالغدر مجسّمًا يعترض طريقه . وتمتد يد «هبّار بن الأسود الأسدى» يُروِّعُها بالرمح ، وهو يذكر إخوةً له ثلاثة صرعهم المسلمون فى بدر . وتسقط زينب من ظهر بعيرها على صخرة ينزف دمها وينثر كنانة سهامه ويتهيأ للدفاع عنها قائلا : «والله لا يدنو رجل إلا وضعت فيه سهمًا» . وتعود إلى البيت مريضةً قد طرحت جنينها .

وتمضى فى مكة أيّامًا تعود إليها فيها بعض عافيتها ويصحبها كنانة على الطريق حتى يسلمها إلى زيد بن حارثه لتتابع الرحلة إلى المدينة تاركة وراءها زوجها أبا العاص على الحب والوفاء ، حاملة معها صغيريها عَليًّا وأُمامَة .

وفى المدينة تأبى زينب أن تتزوج ..
وفى مكة يأبى أبو العاص أن يتزوج ..

وتمضى بعد هذا سنوات حتى يلتئم شمل الأسرة بعد أن صادر المسلمون فى العام السادس للهجرة قافلةً لأبى العاص بن الربيع ، فترك القافلة وسارع باللجوء إلى المدينة ، فأجارته زينب وقدمته إلى أبيها ، وردّ له تجارته بموافقة المسلمين ، فأعادها إلى أصحابها بمكة وهناك ـ فى مكة ـ أعلن إسلامه بعد أن أبرأ ذمته ثم لحق بالمدينة والرسول وأهله .. (سيرة ابن هشام ٢: ٤٧٧ : ٤٨٣) .

قصة لا تزال ترددها الأجيال فيها حياة أسرة قامت على الحب وكان الإيمان فيها عامل تفريق وتجميع ، حتى التقى الحب والإيمان فى ختام المطاف واجد فيها تفاعل الأسرة مع المجتمع كأشد ما يكون التفاعل والدور الإيجابى البنّاء الذى قام به كل من أبى العاص وزينب حتى التأم الشمل .

ثم تودع زينب دنيانا إلى جوار ربّها فى مطلع العام الثامن للهجرة .

أم سَلَمَة

وهذه قصة أسرة أخرى عرفت طريق الهجرة إلى الحبشة ، وتحمَّل أفرادها : الأب والأم والولد ألَمَ الفراق حتى جمعهم الإسلام فى المدينة .

كانت أم سلمة عريقة الأبوين ذات جمالٍ وذكاءٍ أبوها قرشى مخزومى وأمها كنانية من بنى فراس . وزوجها أبو سلمة : عبد الله بن عبد الأسد بن المغيرة ابن عمة الرسول : برّة بنت عبد المطلب .. وهو أخو الرسول من الرضاعة : أرضعتهما ثويبة مولاة أبى لهب .

كانت أول من هاجر من النساء إلى الحبشة مع زوجها ، وهناك ولدت له ابنهما سلمة .

وعادت إلى مكة وتحملت من اضطهاد قريش ما تحمل المسلمون ، فعزم أبو سلمة على الخروج بها وبولدهما إلى المدينة .

ويراه رجال من بنى المغيرة ـ رهط أم سلمة ـ فيقومون إليه قائلين :

ـ هذه نفسك غَلَبتَنا عليها . أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟

وينزعون خطام البعير من يد أبى سلمة ويأخذون أم سلمة ويغضب بنو عبد الأسد ـ رهط أبى سلمة ـ ويهوون إلى الصغير سلمة قائلين :

ـ والله لانترك ابننا عندها إذا نزعتموها من صاحبنا .. ويتجاذبون الغلام حتى تنخلع يده .

ويتمزق شمل الأسرة ...
أبو سلمة فى طريقه إلى المدينة ..
أم سلمة حبسها أهلها بنو المغيرة ..
سلمة يمضى به بنو عبد الأسد ..

كل فرد فى الأسرة ـ الرجل والمرأة والغلام ـ يحمل من الألم نصيبًا.

وتخرج أم سلمة كل يوم تنفرد بأحزانها ، تبكى حتى تمسى . وتمضى سنة أو مايقرب منها ..

ويمرّ بها رجل من بنى عمها ، فيرى ما بها فيرحمها ويقول لقومها بنى المغيرة :
ـ ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها .
وما زال بهم حتى قالوا :
ـ الحقى بزوجك إن شئت .

وردّ عليها بنو عبد الأسد ولدها ورحّلت بعيرها . واتخذت طريقها إلى المدينة حتى لحقت بزوجها فى رفقة طيبة . (سيرة ابن هشام ٢ : ٣٢١ : ٣٢٣)

ودخلت المدينة فكانت أول ظعينة دخلتها ، كما كانت أول مهاجرة إلى الحبشة .

ولقد أبلى زوجها البلاء الحسن مجاهدًا إلى جوار الرسول حتى لقى ربه وأبت أم سلمة من بعده أن تتزوج من أبى بكرٍ أو عمر ثم تزوجها الرسول عليه الصلاة والسلام فكان لها الرأى الراجح والنصح السديد مع الرسول وبقيت من بعده ، وكانت آخر أزواجه رحيلاً من دنيانا .

أقف عند هذين النموذجين من النساء اللاتى شاركن فى صنع الحياة فى مكة وتابعن الجهد بعد هذا فى المدينة ، عاملات على مستوى الأسرة والمجتمع .

من الفرد إلى الدولة والحضارة

وإذا كانت مكة هى المجال الإسلامى الذى تكوّن فيه الأفراد وبرز فيه تماسكهم فى جماعة ، فإن المدينة كانت القاعدة التى تكوّنت فيها الدولة وظهرت

فيها التخصصات بين الأفراد رجالاً ونساءً ، وانطلق منها المسلمون والمسلمات يكوّنون حضارة لها أصالتها وملامحها ، وإفادتها من خير ما سبقها أو عاصرها ، وإضافاتها الخصبة إلى التراث الإنسانى العالمى .

وإذا كان دور المرأة فى مكة مشاركة وتحمّلاً نبيلاً لمسئوليات الدعوة . فلقد كان الإسلام وهو يعرض نفسه على مكة ومن حولها لايوفر المجال فى هذه المرحلة لظهور وظائف المجتمع وتنوعها ، وبالتالى إلى ظهور تخصصات فى هذه المجالات .

والأمر فى المدينة غير ذلك :

لقد كان على الإسلام فيها أن يتابع تكوين الأفراد ، وأن يضع قواعد الحياة فى الأسرة وينظم العلاقات الداخلية بين أفرادها والخارجية مع المجتمع ، وهو فى تنظيم هذه العلاقات يعنى بها أفقيًّا ورأسيًّا .. بين أجيال الأسرة المتتابعة وأفراد الجيل الواحد .

وهو فى المجتمع يعنى بمجالات الحياة فيه سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا وعسكريًّا ، ولنحاول أن نتعرف على أبرز هذه الأنشطة ودور المرأة فيها فى قاعدة الإسلام فى المدينة .

ولنحاول أن نأخذ لوحاتٍ من حياة المدينة لها ارتباطها بالأفراد والأماكن والمناسبات ، وتعطى فى تكاملها طابع هذه الحياة الجديد ومدى مساهمة المرأة فى صناعتها .

كــرم الضــيافــة

ولنبدأ بكرم الضيافة ، وأعنى موقف الأسرة من ضيف يزورها :

هذا رسول الله ﷺ ينتظره الأنصار وهو داخل المدينة أوّل مرة يدعوه كلّ بيت إلى أن يكون ضيفه .

وأقام الرسول ﷺ فى بيت أبى أيوب الأنصارى ، حتى بنى له مسجده ومساكنه ، ولننظر ما يرويه ابن هشام عن ابن إسحٰق عن هذه المعايشة :

يقول أبو أيوب :

لما نزل عليّ رسول الله ﷺ فى بيتى نزل فى السّفل (أسفل البيت) وأنا وأم أيوب فى العلو.. فقلت له : يانبى الله بأبى أنت وأمى إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى ، فاظهر أنت فكن فى العلو ، وننزل نحن ونكون فى السفل.

فقال : «ياأبا أيوب ، إنه أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت».

ويروى أبو أيوب بعض ما كان منه ومن زوجته الصالحة أم أيوب مع رسول الله ﷺ :

فنى يوم انكسر حبّ (وعاء) لهم فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، مالنا لحاف غيرها ، ننشف بها الماء ، تخوفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شىء فيؤذيه. (سيرة ابن هشام ٢ : ٣٤٥ - ٣٤٦).

والطعام كانوا يقدمونه إلى الرسول ، فيرد عليهم فضله ، فكانا يتتبعان موضع يده حبًّا له وابتغاء البركة منه.

والصورة هنا تبين تعاون الزوج والزوجة : أبى أيوب وأم أيوب على خدمة الرسول وتهيئة أسباب الراحة له بكل ما وسعته مواردهم المحدودة ، هذا التعاون الذى جمع بين قلبيهما على حب الرسول ﷺ وأبرز لنا أن دور الرجل هنا فى التعبير عن شعوره عمليًّا لا يختلف عن دور المرأة.

ولقد كان الأنصار يصنعون هذا مع المهاجرين ومع أضياف الرسول إذا لم يجد عنده ما يطعمهم فيصحب الأنصارى ضيف الرسول إلى بيته ، فيتعاون هو وزوجته على إكرامه ، طيبة بذلك نفوسهم ، وفيهم نزل قول الله تعالى :

«والذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» (الحشر : ٩).

فى ميدان القتـــال

ولم تترك مكة ومن شايعها ، قاعدة الإسلام فى المدينة تسير سيرها فى تكوين المجتمع الجديد.

فالذين هاجروا إليها تعرضوا للإيذاء ومصادرة الأموال . وكان على المدينة أن تحمى نفسها عسكريًّا لتتابع حياتها .

ومن الصفحات الدامية التى يحفظها تاريخنا ، فى هذا المجال ما حدث فى غزوة أحد فى العام الثالث للهجرة . عندما حاولت قريش الغارة على قاعدة الإسلام فى المدينة فتصدى لهم جيش الإسلام فى ظاهرها . وكان للمرأة نصيب فى الدفاع عن الرسول القائد وعن المدينة .

فى هذا اليوم ركّزت قريش هجومها على الرسول لقتله .. ووقف المؤمنون يدافعون عنه .

ولنتذكر هنا دور الصحابية الجليلة أم عمارة نسيبة بنت كعب الخزرجية .

تقول نسيبة فيما يرويه ابن إسحٰق عن أم سعد بنت سعد بن الربيع :

خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس . ومعى سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ ، وهو فى أصحابه والدولة والريح للمسلمين (أى وهم منتصرون على عدوهم) فلما انهزم المسلمون ، انحزت إلى رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس ، حتى خلصت الجراح الىّ .

قالت أم سعد : فرأيت على عاتقها جُرحا أجْوف له غور

فقلت : من أصابك بهذا ؟

فترد نسيبة : ابن قمئه أقمأه الله . (وهو محارب من قريش) .

لما ولّى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول : دلونى على محمد لا نجوت إن نجا فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير . وأناس مِمّن ثبت مع رسول الله ﷺ ، فضربنى هذه الضربة . فلقد ضربته على ذلك ضربات . ولكن عدو الله كان عليه درعان . (ابن هشام ٣ : ٥٩٩ــ ٥٦٠) .

وكانت أم عمارة ممن شهد بيعة العقبة ومعها أختها . وبايعتا الرسول قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وظلت على إيمانها وبذلها مالها ودمها فى سبيل الله ، واشتركت

بعد وفاة الرسول فى حروب الردّة حتى استطاع المسلمون قتل مسيلمة فى حرب اليمامة ورجعت وبها اثنا عشر جرحًا ما بين طعنة وضربة . واستشهد ولدها حبيب فى هذه الحرب ، وأبى أن ينطق بكلمة الكفر بعد أن أخذه مسيلمة أسيرًا ، وأخذ يقطع جسمه عضوًا عضوًا وهو ثابت على دينه لا ينطق إلا بالشهادتين . (ابن هشام ٢ : ٣١٩ - ٣٢٠)

أمومة مجاهدة

وقد رأينا أم عمارة نسيبة الخزرجية فى بيعة العقبة مع أختها ، وكان معها زوجها زيد بن عاصم بن كعب ، وابناها حبيب وعبد الله أبناء زيد .

ورأيناها مع أسرتها : زوجها وأولادها يدافعون عن الرسول ﷺ فى غزوة أحد .

ورأيناها فى حروب الردّة مع ولديها وقد سبق زوجها إلى الله شهيدًا .

فالأسرة : أبًا وأمًّا وأبناءً كانت مع نبض الإيمان فى هذه المشاهد جميعًا .. يسبق الأب إلى الله شهيدًا فى حياة الرسول ﷺ ، ويلحق به ولده فى حروب الردّة . وتبقى أم عمارة لتحمل هذه الآلام بكل بطولة وإيمان .

والأخت الصابرة

وتقدم صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ نموذجًا آخر فى الصبر والتحمل ففى غزوة أحد تعلم أن أخاها لأبيها وأمها ـ حمزة بن عبد المطلب ـ لقى ربه شهيداً ومثل الأعداء به : شقوا بطنه واستخرجوا كبده .

وسجاه الرسول ﷺ وصلّى عليه . ثم أُتى بالقتلى فيوضعون إلى حمزة وصلّى عليهم وعليه معهم . حتى صلّى عليه ثنتين وسبعين صلاة .

وتقبل صفية لترى أخاها الشهيد .. ويسمع الرسول بذلك فيقول لابنها الزبير ابن العوام : القها فأرجعها ، لا ترى ما بأخيها ، ويلقاها ابنها قائلاً : يا أمه ، إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعى .

قالت : ولِمَ ؟ وقد بلغنى أنه مُثِّل بأخى ، وذلك من الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك . لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله .

فلما جاء ابنها إلى الرسول فأخبره بذلك قال :

ـ خلِّ سبيلها ..

فنظرت إليه ، وصلت عليه ، واسترجعت ، واستغفرت له ثم أمر به رسول الله ﷺ فدفن (ابن هشام ٣ : ٦١٢)

طلب العلم

ونعود من ميادين الجهاد إلى ميادين العلم .

فإذا كان الأمر الإلـهى الأول فى القرآن الكريم «اقرأ ..» فقد جعل الإسلام طلب العلم فريضةً على كل مسلمٍ ومسلمة .. يطلبه الإنسان سواء كان قادرًا على الكتابة أو غير قادر وقول الله تعالى «اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم» . (العلق : ١ ـ ٥) هذا القول الإلـهى يجمع بين البيانين : البيان المنطوق والبيان المخطوط . وقد اعتدَّ بهما سبحانه فى جملة مااعتدَّ من نعمه على عباده :

فنى هذه الآيات يجمع الله بين مراتب الوجود بأوجز لفظ : هناك أولاً عموم الخلق ، وثانيًا خصوص خلق الإنسان ، وثالثًا طريق الإنسان إلى العلم مستعينًا بأهم أدواته وهى القلم ، ورابعًا ربط العلم بالإيمان ، فتكتمل بهذا دائرة الوجود بدءًا من الله وعودة إليه .

وكأن الإنسان يمرّ فى رحلتين : رحلة الخلق ورحلة العلم . ويتعامل مع عالمين : النفس والكون . ويستمد التوجيه من وحى الله ومن عقله رابطًا بين الغيب والشهادة ، واليوم والغد ، والعمل والجزاء ، والدنيا والآخرة ، والموت والخلود .

ولقد تكلم علماؤنا فى هذه الآيات معددين جانبًا من نعم الله علينا .
(انظر تفسير القاسمى ١٧ : ٦٢٠٨ ـ ٦٢٠٩)

ويكفى أن القرآن الكريم يعتبر العلم نورًا وحياةً . ولنسمع فى هذا قول الله تعالى : «أو من كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها» (الأنعام : ١٢٢) .

وإذا كانت هذه مكانة العلم فى الإسلام ، فإن بابه مفتوح أمام المرأة والرجل :

وفى المجتمع الإسلامى الأول كان على نساء النبى ﷺ مسئولية التعلم والتعليم . وفى هذا نذكر قول الله تعالى يخاطبهن :

«واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفًا خبيرًا» . (الأحزاب : ٣٤) .

وآيات الله هى القرآن الكريم . والحكمة هى سنة النبى عليه الصلاة والسلام . وذكر ذلك مستوجب للعمل به (القاسمى ١٣ : ٤٨٥٩) .

وكان بيت الرسول مدرسة تعاونه فيها نساؤه ، وبخاصة فى أمور المرأة المسلمة وشئونها الخاصة ، فضلاً عن متابعتهن الدقيقة للكتاب والسنة المطهرة . وكان للسيدة عائشة رضى الله عنها فى ذلك النصيب الأوفى من رواية الحديث .

وكانت (رضى الله عنها) مرجعًا للصحابة فى ذلك ويروى ابن سعد فى طبقاته (٢ : ٣٧٥)

١ ــ عن أبى موسى (رضى الله عنه) قال : ما كان أصحاب رسول الله ﷺ يشكّون فى شىء إلا سألوا عنه عائشة (رضى الله عنها) فيجدون من ذلك عندها علمًا .

٢ ــ وعن قُبَيْصَة بن ذؤيب قال : كانت عائشة (رضى الله عنها) أعلم الناس يسألها الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ .

٣ ــ وعن أبى سلمة قال : ما رأيت أحدًا أعلم بسنن رسول الله ﷺ ، ولا أفقه فى رأى إن احتيج إلى رأى ، ولا أعلم بآية فيما نزلت ، ولا فريضة ، من عائشة (رضى الله عنها) .

٤ ــ وعن مسروق أنه قيل له : هل كانت عائشة تحسن الفرائض ؟ (أى قسمة المواريث) قال : أى والذى نفسى بيده ، لقد رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض .

ولم تكن معارفها مقتصرة على الشئون الدينية أو آداب العرب وأنسابها مع قدرتها الفائقة على التعبير والخطابة .. ولكنها اكتسبت معارف فى الطب سألها عنها عروة بن الزبير ــ ابن أختها أسماء ــ فقالت له : إن رسول الله ﷺ كثرت أسقامه فكانت أطباء العرب والعجم يبعثون له ، فتعلمت ذلك . (الكاندهلوى : حياة الصحابة ٣ : ٨٠١ عن الهيثمى فى مجمع الزوائد ٩ : ٢٤٢ ط . مصر).

وظلت (رضى الله عنها) تفتى فى عهد عمر وعثمان إلى أن ماتت رحمها الله .

أما عن عامة النساء فقد طلبن من الرسول ﷺ أن يجعل لهن يومًا ، فجعل لهن يومًا يعلمهن فيه .. هذا فضلاً عما كن يتعلمنه فى المسجد وفى بيوت النبي ﷺ .

بنـــاء المســاجـــد

وكان للمرأة نصيب فيما نسميه الآن بالخدمات العامة :

لقد ساهمت فى بناء مسجد المدينة :

ويروى الهيثمى عن البزار (٢ : ١٠) أن عبد الله بن أبى أوفى (رضى الله عنه) لما توفيت امرأته جعل يقول :

احملوها وارغبوا فى حملها ، فإنها كانت تحمل ومواليها بالليل حجارة المسجد الذى أسس على التقوى (وهو مسجد قباء) وكنا نحمل بالنهار حجرين حجرين .

(انظر الكاند هلوى ٣ : ٥٤٦)

الإسعـــاف وخدمــات المـرضــى

أخرج مسلم عن أنس (رضى الله عنه) كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم رضى الله عنها ونسوة معها من الأنصار يسقين الماء ويداوين الجرحى . كما أخرج

البخارى عن الربيع بنت معوّذ (رضى الله عنها) قالت : كنا مع النبى ﷺ نسقى ونداوى الجرحى ونرد القتلى إلى المدينة . وأخرج مسلم عن أم عطية الأنصارية قالت : غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات أخلفهم فى رحالهم ، وأصنع لهم الطعام ، وأداوى الجرحى وأقوم على الزمنى (أصحاب الداء المزمن) .

والنصوص كثيرة على مساهمة نساء النبى عليه الصلاة والسلام وأهل بيته فى هذه الخدمات كما حدث من مساهمة عائشة مع أم سليم فى ملء القِرَب وحملها لسقاية المحاربين والجرحى (البخارى ـ عن أنس ـ باب غزوة أحد ٥ : ١٢٥) .

وحافظ المجتمع الإسلامى على هذا الجميل

ولقد حفظ المجتمع الإسلامى هذا الجميل بإكرام النسوة اللاتى ساهمن بهذه الجهود الطيبة .

وأخرج البخارى عن ثعلبة بن أبى مالك (رضى الله عنه) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قسم مروطًا (أكسية من صوف أو نحوه) بين نساءٍ من نساء المدينة ، فبقى منها مرط جيد ، فقال له بعض من عنده : ياأمير المؤمنين اعط هذا ابنة رسول الله ﷺ التى عندك . يريدون أم كلثوم بنت على رضى الله عنهما ـ فقال عمر (رضى الله عنه) : أم سَلِيط (رضى الله عنها) أحق . وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله ﷺ . قال عمر : فإنها كانت تَزْفِر (تخيط) لنا القِرَب يوم أُحد (صحيح البخارى ـ باب غزوة أحد ٥ : ١٢٧ ـ ١٢٨) .

التعاون على مستوى الأسرة

وهذا الجهد المبذول على مستوى الحياة الأسرية كان محل تقدير من الرسول ﷺ ينسحب على مجتمع المدينة ويتكامل مع تعاون الرجل مع المرأة فى مسئوليات المنزل ولقد سأل رجل عائشة (رضى الله عنها) : هل كان رسول الله يعمل فى بيته ؟

قالت : نعم . كان يخصف (يصلح) نعله ويخيط ثوبه كما يعمل أحدكم فى بيته

فهو فى البيت فى خدمة أهله ونفسه . بشرًا من البشر .

(انظر فى ذلك طبقات ابن سعد ١ : ٣٦٦ ، ٣٦٧) .

الترويـــح والرياضـــة

ولم يخل الأمر على مستوى الأسرة من مساهمة المرأة فى الترويح وجانب من الرياضة البدنية فضلاً عما تقوم به من جهد فى شئون المنزل .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : خرجت مع النبى ﷺ فى بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم (أى صغيرة لم يكثر لحمها) ولم أبدن (أسمن) فقال للناس «تقدموا» فتقدموا . ثم قال لى : تعالى حتى أسابقك ، فسابقته فسبقته ، فسكت عنى ، حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت ، خرجت معه فى بعض أسفاره ، فقال للناس : تقدموا ، «فتقدموا» ثم قال لى : «تعالى حتى أسابقك» فسابقته ، فسبقنى ، فجعل يضحك ويقول : «هذه بتلك» . (الكاندهلوى ٣ : ١٨٢ عن صفة الصفوة لابن الجوزى ط . الهند ١ : ٦٨) .

ولهن الجزاء فى الدنيا والآخرة

يبدو من هذا تنوع المجالات التى ساهمت فيها المرأة فى الحياة الخاصة والعامة وبناء الأسرة والمجتمع ، ورعاية الأجيال الجديدة على أساس من الإيمان العميق والمعرفة والأسوة الحسنة والتعاون من أجل حياة أفضل .

وأحبت المرأة المسلمة أن تزداد اطمئنانًا على مكانتها فى الدنيا والآخرة .

وتسأل أم سلمة (رضى الله عنها) رسول الله ﷺ قائلة :

«يارسول الله فما لنا لا نُذْكر فى القرآن ، كما يُذْكر الرجال ، فلم يرعنى منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر وهو يقول «إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم

والحافظات والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات أعد الله لهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا » (الأحزاب : ٣٥) (أخرجه أحمد والنسائى والطبرانى)

كما أخرج الترمذى والطبرانى عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبى عليه الصلاة والسلام فقالت : ما أرى كل شىء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشىء ــ فنزلت هذه الآية .

وجاء فى خواتيم سورة آل عمران قول الله تعالى : « فاستجاب لهم ربهم أنى لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابًا من عند الله والله عنده حُسن الثواب » (آل عمران : ١٩٥) .

ويذكر الإمام ابن كثير فى تفسيره (٢ : ١٨٢) فى سبب نزولها أن السيدة أم سلمة رضى الله عنها قالت لرسول الله ﷺ يارسول الله لا نسمع الله ذَكَر النساء فى الهجرة بشىء . فنزلت هذه الآية .. ولقد ذكرنا قصة هجرة أم سلمة فى أول هذه الدراسة وكيف كانت أول ظعينة من مكة قدمت على الأنصار .

فالقرآن يذكر فضلها مهاجرةً ومقيمةً . ودورها فى بناء الأسرة والمجتمع الأول تسجله آيات القرآن وأحاديث النبى ﷺ .

مستوى المعيشة فى البيت النبوى

حمل البيت النبوى مسئوليات الحرب والسلم . وقامت أمهات المؤمنين بالجهد المبرور تخفيفًا لآلام المحاربين وحفظًا للقرآن والسنة المطهرة علمًا وتعليمًا .

وأقمن فى بيت النبوة لا يجدن من الرغد ما يجده الزوجات فى بيوت الكثير من الرجال مسلمين كانوا أو مشركين . وشقّت عليهن شدة العيش فى بيت لايصبن فيه من الطعام والزينة فوق الكفاف . فاتفقن على مفاتحة الرسول ﷺ فى الأمر ليزيد من النفقة وهى عنده ميسرة لو أراد أن يزيد حصته من الفىء .

ولكنه أمهلهن شهرًا ولهن أن يخترن ــ بعد روية ــ بين البقاء معه على ما تيسر من رزق ، وبين الانصراف بمتعة الطلاق . وفى هذا نزل قول الله تعالى :

«ياأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلاً . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرًا عظيمًا » . (الأحزاب : ٢٨ ــ ٢٩) .

وبدأ بعائشة قائلا :

ــ إنى أريد أن أعرض عليك أمرًا أحب ألا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك .
فسألته : وما هو يارسول الله ؟

فعرض عليها الخيرة مع سائر نسائه فى أمرهن .

فقالت : أفيك يارسول الله أستشير قومى ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة .

وأجاب أمهات المؤمنين بمثل ما أجابت به عائشة (تفسير ابن كثير ٥ : ٤٤٨) .

واستمرت سيرة البيت النبوى راضية بالكفاف من الرزق ، ضاربة المثل الأعلى فى الإيثار والإيمان .

خاتمة

آثرت فى هذه الدراسة أن أركز على المساهمات الإيجابية للمرأة فى بناء المجتمع الإسلامى الأول فى المدينة ، مع إلقاء أضواء أقوى على البيت النبوى بما تحمّل من مسئوليات السلم والحرب ، وما كان فيه من شهداء وعلماء .

كانت الأم فى المدينة تطلب العلم لنفسها وولدها ، وتعيش دينها : علمًا وممارسةً يوميةً ، رعاية لجيل هى منه ، وتربيةً لجيل تُعِدّه للمستقبل .

وكان الواجب فى هذا المجتمع مقدمًا على الحق ، والعطاءُ على الأخذ ، ذلك لأن آداء أى واجب من الواجبات يتضمن عمليًّا رعاية حق أو حقوق مقابلة ، يستوى فى هذا حق الرجل وحق المرأة .

ولم تأت هذه الصورة من كرامة المرأة فى مجتمعها ثمرة كفاح طويل منها ، وإنما هى التطبيق السليم للإسلام أول ما نزل .. ولم ينتظر المسلمون حتى يكتمل الوحى ليبدأوا التطبيق ، ولكن قرنوا بين نزول الوحى وتطبيق الآيات : آية آية وسورة بسورة .

لقد كان آخر ما أوصانا به نبينا عليه الصلاة والسلام وهو فى حجة الوداع ما رواه الترمذى عن عمر بن الأحوص «استوصوا بالنساء خيرًا .. إن لكم على نسائكم حقًّا . ولنسائكم عليكم حقًّا» . (محمد صديق حسن خان : حسن الأسوة ص ١٥٧) . ورفع من شأن الأمومة كما دعا الصحابى جاهمة فى حديث يرويه النسائى إلى البر بأمه ورعايتها قائلاً : «الزمها فإن الجنة عند رجلها» (نفس المرجع ص ١٩٣) .

مسيرة قضية المرأة فى الإسلام لها ــ بهذا ــ طبيعتها الخاصة . ولكرامتها وحقوقها وواجباتها أسسها الراسخة فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وفى التطبيق الواعى لذلك كله فى مجتمع المدينة .

وإذا ما شاب المسيرة بعد هذا جوانب من نقص .. فهو نقص بقدر ما هو بعد عن حق وواجب ، سجلها الإسلام عطاءً للمرأة وكرامةً لها . عطاء يستمد قوته

من عمق الإيمان ونور العلم ونجاح التطبيق السليم الذى رأينا نموذجه فى المجتمع الإسلامى الأول فى المدينة .

المراجع

١ ـ القرآن الكريم
٢ ـ البخارى (أبو عبد الله) صحيح البخارى ، ط . الشعب ، القاهرة ، ١٣٧٨ هـ
٣ ـ ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ط . صادر بيروت ، بيروت ، ١٩٦٠ م
٤ ـ صديق حسن خان (محمد) : حسن الأسوة بما ثبت عن الله ورسوله فى النسوة ، ط . الجوائب ، ١٣٠١ هـ
٥ ـ القاسمى (محمد جمال الدين) : محاسن التأويل ، ط . الحلبى ، القاهرة ، ١٩٥٧ ،
٦ ـ الكاندهلوى (محمد يوسف) : حياة الصحابة ، ط . دار القلم ، دمشق ، ١٩٦٨ م
٧ ـ ابن كثير الدمشقى : تفسير القرآن العظيم ، ط . دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٦ م

الفصل الخامس

الأمومة في المجتمع الإسلامي الأول

المؤتمر الإسلامي العالمي للأمومة بدعوة من المركز
الإسلامي العالمي للبحوث والدراسات السكانية
بجامعة الأزهر :

القاهرة : ١١/١٣ ديسمبر ١٩٧٨ م

الأمومة فى المجتمع الإسلامى الأول

الأمومة لفظ إذا ذكرته ، أحسست أنه لا يعيش وحده : فحين نتحدث عن النفس فالصورة محددة .. صورة الفرد . وحين نتحدث عن الزوج فهذان اثنان . وحين نتحدث عن الأمومة فهنا ما بعد الاثنين. هنا الامتداد غير المحدود والاستمرار ..

وهذه المراحل الثلاث من الواحد إلى الإثنين إلى ما بعدهما نقرؤها فى قول الله تعالى :

«ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا» (النساء : ١)

وقبل أن نتحدث عن الأمومة بعامة وعنها فى المجتمع الإسلامى الأول بخاصة ، هل لنا أن نتحدث عن اللفظ ذاته .. كفرد من أسرة لغوية .. نراه فى أصله ، وفى هجرته وامتداده من معنى إلى معنى ، حتى أصبحت له هذه المكانة فى قاموسنا اللغوى ؟

وأعود إلى كتاب مفردات القرآن للراغب الأصفهانى فأقرأ فيه «يقال لكل ما كان أصلاً لوجود شىء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه : أم. وكل شىء ضم سائر ما يليه يسمى : أمًّا» .

قال الله تعالى : «وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلىّ حكيم» (الزخرف : ٤)
وفاتحة الكتاب أيضا هى أم الكتاب .

وفى المجال الإنسانى يأتى لفظ «أم» بمفهومه الأكثر شيوعًا ، وهو الذى نحن بسبيله فى أكثر من موضع من كتاب الله «وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه» (القصص : ٧)

وقوله تعالى «وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرارٍ ومعين» (المؤمنون : ٥٠) . وقوله «ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنًا على وهن» (لقمان : ١٤)

ويطلق لفظ «أمة» على الفرد الذى يقوم مقام جماعة فى مثل قوله تعالى : «إن إبراهيم كان أمة قانتًا لله حنيفًا» (النحل : ١٢٠)

«والإمام» المؤتم به . يقول تعالى «يوم ندعو كل أناس بإمامهم» (الإسراء : ٧١)

والأمة كل جماعة من الناس يجمعهم أمر ما «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» (آل عمران : ١٠٤)

ومن مجال العلم ننتقل إلى مواطن الاستقرار فننظر قول الله فى وصف مكة «وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها» (الأنعام : ٩٢) .

وفى مجال النظر إلى حياة المسلمين وعلاقتهم بالنبى عليه الصلاة والسلام وأهله الطاهرين ، يعطينا القرآن تصورًا لهذا المجتمع كأسرة كبيرة «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين ، إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا . كان ذلك فى الكتاب مسطورًا » (الأحزاب : ٦)

ففى كل هذه المعانى تحس انطلاقًا من نقطةٍ مركزيةٍ ، وترابطًا معها فى ذات الوقت .

(١) الأمومة صلة دائمة

والأمومة صورة من الرحمة نراها فى عالم الحيوان كما نراها فى عالم الإنسان .

١ ـ ففى الحديث الشريف «جعل الله الرحمة مائة جزءٍ ، فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل فى الأرض جزءاً واحدًا . فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى

ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » (أخرجه الشيخان والترمذى عن أبى هريرة (رضى الله عنه)

٢ ـ وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن لله مائه رحمة : فمنها رحمة يتراحم بها الخلق بينهم . وتسعة وتسعون ليوم القيامة » أخرجه مسلم عن سلمان الفارسى (رضى الله عنه)

وأثبتت الدراسات العلمية التجريبية أن الأمومة أقوى الغرائز عند الحيوان ويأتى من بعدها العطش فالجوع فالجنس فحب الاستطلاع . ومع قوتها فى عالم الحيوان وتصدرها غيرها من الغرائز ، إلا أنها موقوته بحاجة الوليد أو الفصيل إلى أمه ، فإذا استطاع الاستقلال بحياته ، والحصول على رزقه ، كان له كيانه الخاص الذى لا يحول بينه وبين أن يصارع أباه لرئاسة القطيع أو للحصول على فريسة أو طعام. وعلى هذا الأساس يتباين طول فترات الحضانة فى عالم الحيوان والإنسان . كما تبدو أيضًا كرامة الإنسان ، سيد المخلوقات فى هذه الأرض» .

ونستطيع أن نقول إن الأمومة فى الإسلام «عقد دينى» ورابطة لا تنفصم بين الأم وأبنائها : تبدأ أول أمرها رعايةً منها لهم ، فإذا ما اشتد عودهم ، وتقدمت السن بالأم ، تحولت إلى بر ورحمة من الإبن لأمه .. وبهذا تأخذ اتجاهًا مغايرًا ـ أو على الأصح مضافًا ـ إلى خطها الأول .. بعبارة أخرى : تأخذ فى عالم الحيوان خطًا باتجاه واحد : يسير من الأم إلى الوليد ، فإذا كبر الوليد اتجهت أمومته إلى أولاده ، دون رجوع إلى والديه بالرحمة والرعاية .

بل إن الإسلام ليوسع دائرة الأمومة لتشمل الرضاع : فإذا ما ضمت الأم غير ولدها وأرضعته من لبنها رضعات مشبعات ـ تكلم فقهاؤنا فى عددها ـ أصبح لهذا اللبن حق وواجب يظلان مدى الحياة ..

عندنا إذن ثلاثة مستويات فى الأمومة :

١ ـ المستوى الحيوانى : الذى تسير فيه الأمومة فى اتجاهٍ واحدٍ : من الأم إلى أبنائها فترة من الزمن ثم تنقطع .

وبهذا تجمع الآية الجوانب الحسيّة والفكرية والروحيّة . وتعاون الزوجين فى رحلة الحياة على القيام بمسئولياتهما ، والسعادة بحسن الصحبة .

والأسرة هى الخلية الفطرية التى يعيش فيها الإنسان : ابنا وأخا ثم زوجًا ثم أبًا ثم جَدًّا .. هى المدرسة الأولى التى يتلقى فيها دروس الحنان والمحبة وعرفان الجميل والمسئولية .. «ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجًا وذرية» (الرعد : ٣٨) .. وانظر فى وصف يحيى عليه السلام وعلاقته بوالديه قوله تعالى «يايحيى خذ الكتاب بقوةٍ وآتيناه الحكم صبيًّا . وحنانًا من لدنّا وزكاةً وكان تقيًّا . وبرًّا بوالديه ولم يكن جبارًا عصيًّا . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا» . (مريم : ١٢ – ١٥) . ويقول عيسى عليه السلام بعد ولادته المعجزة وعلاقته بأمه «قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًّا . وجعلنى مباركًا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيًّا . وبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جبارًا شقيًّا . والسلام علىّ يوم ولدتُ ويوم أموت ويوم أبعث حيًّا» (مريم : ٣٠ – ٣٣) .

وأول الإحسان إلى الأبناء حسن اختيار الأمهات . والقاعدة العامة فى الإسلام هى قول الله تعالى «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» ولهذا دعا المصطفى ﷺ إلى تفضيل ذات الدين فى الزواج فقال ﷺ «فاظفر بذات الدين تَرِبَت يداك» (رواه الشيخان عن أبى هريرة (رضى الله عنه) .

كما شجع أهل الزوجة على تفضيل صاحب الدين فقال «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه ، فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير» (رواه الترمذى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) .

ودعا إلى تيسير إجراءات الزواج . ويدخل هذا فى عموم قوله تعالى «وما جعل عليكم فى الدين من حرج» (الحج : ٧٨) . ويحضّ عليه المصطفى ﷺ فى حديثه «إن أعظم النكاح بركةً أيسره مئونة» (رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن عائشة رضى الله عنها) (المشكاة : ٢ : ١٦١ حديث رقم ٣٠٩٧) . وإن كان يسر الصداق أمرًا اعتباريًّا يختلف من موطنٍ إلى موطن ، ومن زمنٍ إلى زمنٍ .. هذا مع إقامة حفلٍ ملائمٍ يسعد به الزوجان ، ويجتمع الأهلُ والأصدقاء

٢ ـ **المستوى الإنسانى** : الذى تسير فيه الأمومة فى اتجاهين : نحو الأبناء ثم نحو الأباء . والأول دائم ، والثانى يبدأ مع قدرة الابن على السعى والطاعة وردّ الجميل .

٣ ـ **المستوى الإسلامى** : الذى تتسع فيه الأمومة فى نظام شبكى أقرب ما يكون ـ هنيدسيًّا ـ إلى الزخرفة الإسلامية ، بأطباقها النجمية التى تصدر عنها ، وتصل إليها ، خطوط كثيرة متشابكة واضحة : خطوط من الأم إلى أولادها . خطوط من الأبناء إلى الأم ، وخطوط من أبناء الرضاع وذوى الأرحام .. . وهو نظام إذا تتبعناه فى اتساعه ، وتتابع اتصالاته ، ، وجدناه يربط المجتمع كله فى وحدة إنسانية نذكر معها قول الله تعالى «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ، وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » . (الأحزاب : : ٦) .

(٢) من الزواج إلى الأمومـــة

يقول الله تعالى عن الزواج «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون » (الروم : ٢١) .

وفى الآية الكريمة ثلاث عبر :

١ ـ إن الزوج من النفس .

٢ ـ إن الزوج سكن .

٣ ـ إن الزوجين يتبادلان المودّة والرحمة .

وهذه العبر الثلاث «آيات» لقومٍ يتفكرون . وعميق هنا تعقيب الإمام الفخر الرازى على قوله تعالى لتسكنوا «إليها» يقال : «سكن إليه للسكون القلبى ، وسكن عنده للسكون الجسمانى ، لأن كلمة «عند» جاءت لظرف المكان ، وكلمة «إلى» جاءت للغاية وهى للقلوب» .

والجيران ، دون تمييز غني عن فقيرٍ ، يطعمون معًا ، ويفرحون معًا ، ويدعون للعروسين بالخير..

.. فى هذا الجو الطيب السعيد تتكوّن الأسرة الإسلامية الجديدة. وسوف لانقف كثيرًا عند المرأة «كزوج» ، فهذا ليس مجال البحث فى هذا المقام وإنما سنصحبها «كأم»..

(٣) البنــون والحفــدة

فى الإسلام : تصعد الأمومة والبنوة فوق مستويات الجنس ، والمصلحة القريبة إلى أفق الوفاء والرحمة والمسارعة إلى البر. ويطالعنا القرآن الكريم فى تعداد نعم الله علينا « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجًا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدةً ورزقكم من الطيبات » (النحل : ٧٢) . ونود أن نقف قليلاً عند لفظ « حفدة » .

يقول الراغب الأصفهانى فى مفردات ألفاظ القرآن : («حفدة جمع حافد وهو المتحرك المتبرع بالخدمة أقارب كانوا أو أجانب» . وفى دعاء القنوت «وإليك نسعى ونحفد» وفى لسان العرب « حفد خف فى العمل وأسرع » والمحفود هو الذى يخدمه أصحابه ويعظمونه ويسرعون فى طاعته) .

وفى القرآن الكريم نماذج من الحفد تتمثل فى بر الوالدين وخدمتهما وحسن معاملتهما ، قرنها ربنا بعبادته فى قوله «وقضى ربُّك ألاَّ تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحسانًا» (الإسراء : ٢٣) . ويقول الإمام الفخر الرازى : «المناسبة بين بر الوالدين وعبادة الله ، هى أن السبب الحقيقى لوجود الإنسان هو تخليق الله تعالى وإيجاده ، والسبب الظاهرى هو الأبوان ، فأمر بتعظيم النسب الحقيقى ، ثم أتبعه بتعظيم السبب الظاهرى» . ويقول ربنا «ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنًا على وهنٍ وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير» (لقمان : ١٤) .

ويقرن ربنا فى كتابه بين شكره وشكر الوالدين ، كما قرن قبل هذا بين عبادته والإحسان إليهما . ويعقب الفخر الرازى على هذا بقوله «لما منعه من العبادة لغير

الله ـ والخدمة قريبة من العبادة فى الصورة ـ بيّن أنها غير ممتنعة ، بل هى واجبة لغير الله فى بعض الصور ، مثل خدمة الأبوين» (البهى الخولى : الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة ص ١٣٩ ـ ١٤٤ ط دار القلم ـ الكويت) .

رأينا أن الإحسان إلى الأبوين والشكر لهما من الثمار الطيبة للأبوّة والأمومة ، أو قُل : إنها امتداد لها .. وهل تعدو الأمومة أن تكون برًّا ورحمة ؟ وأن الأبناء الذين يرعون الآباء بعد أن تتقدم بهم السن ، إنما يمارسون ـ عمليًّا ـ نوعًا من الأمومة نحو الأبوين ، أصبح فيه الصغير كبيرًا ، والكبير ضعيفًا ، فى طفولة ثانية ، اقتصادية أو صحية أو اجتماعية . ومن هذه الزاوية نستطيع أن نوسّع مفهوم الأمومة لتكون رعاية من الأم لأبنائها ، ثم من الأبناء لإمهاتهم ، وكأنهم يتبادلون مواقع البر والرحمة .

وبهذا لا يجعل الإسلام فجوة بين الأجيال صعبة العبور ، أو قطيعة يتعذر معها الاتصال . وإذا تأملنا قول الله تعالى «إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولاتنهرهما ، وقل لهما قولاً كريمًا . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة . وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرًا» (الإسراء : ٢٣ ـ ٢٤) . وإذا تأملنا هذه الآيات الكريمة وجدنا فيها أسلوبًا من المعاملة له الأبعاد الآتية :

١ ـ حسن القول : فى قوله تعالى «ولا تقل لهما أفٍّ»

٢ ـ حسن الرعاية ومراعاة وجهة نظرهما : فى قوله تعالى «ولا تنهرهما»

٣ ـ حسن الاستماع إليهما وكريم التعليق على قولهما : «وقل لهما قولاً كريمًا»

٤ ـ حُسن المعاملة التى تصل إلى خفض الجناح من الرحمة لا من ضعف : فى قوله «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة»

٥ ـ اشتغال العقل واللسان بالدعاء لهما والاعتراف بفضلهما وتذكر جميلهما فى قوله تعالى « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرًا» .

(٤) الحضانــة

ويعطى الإسلام الأم الحق الأول فى حضانة الصغير. ثبت ذلك فى السنة والإجماع والمعقول .

والحضانة تربية الولد فى سن معينة ورعاية شئونه ، ممن له حق الحضانة شرعًا .

١ ـ فعن عبدالله بن عمرو بن العاص . أن امرأة جاءت إلى النبى ﷺ وقالت له : إن ابنى هذا كان بطنى له وعاء ، وحجرى له حِواء ، وثديى له سقاء ، وإن أباه طلقنى ، وزعم أنه ينزعه منى ، فقال عليه الصلاة والسلام : «أنت أحق به ما لم تُنكحى ..» (رواه أحمد وأبو داود ـ المشكاة ٢ : ٢٣٩ رقم ٣٣٧٨) .

٢ ـ وأما الإجماع : فقد روى أن عمر بن الخطاب طلق امرأته جميلة ، وكان له منها ولد ، ثم شجر الخلاف بينه وبين مطلقته بشأن حضانة ولده عاصم ـ ابنهما ـ وكل منهما يريد أن يضمه إليه ، فلما رفع هذا النزاع إلى أبى بكرٍ ، قضى بأن يبقى الولد مع أمه ، وقال لعمر بن الخطاب :

«ريحها ومسها ومسحها وريقها خير له من الشهد عندك ياعمر»

وكان هذا بحضور الصحابة ، ولم يحدث أن أنكره أحد منهم .

٣ ـ وأما المعقول ، فلأن الصغير لمَّا كان عاجزًا عن النظر فى أموره ، جعل الإسلام الولاية عليه لأبيه ، لقوة رأيه ، وقدرته على الإنفاق عليه . وجعل الحضانة إلى الأم ، لأنها أشفق على الصغير ، وأقدر على تحمل مشاق خدمته ، وأجدر بالقيام برعايته فى مراحل حياته الأولى . (راجع : أحمد الغندور : الأحوال الشخصية فى التشريع الإسلامى ص ٥٣٧ ـ ٥٣٨ مطبوعات جامعة الكويت : ١٩٧٢ م)

(٥) مكانة الأم حين تفرغ لأبنائها

ويرفع المصطفى ﷺ من مكانة الأم التي ترعى أولادها ، حين تحمل وحدها مسئوليتهم فيقول :

«أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة (وأومأ الراوى بالوسطى والسبابة) امرأة آمت من زوجها ، ذات منصب وجمال ، حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا» (أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه) .

فهو عليه الصلاة والسلام لا يكتفى بالقول تأكيدًا لمكانتها ، وإنما يصور مكانتها ، كأنها والنبوة تنبعان من مصدرٍ واحدٍ ، كما تنبع الأصابع من راحة اليد ، فيشير بأصبعيه السبابة والوسطى المتجاورتين ، إلى صحبة النبوة ومسئوليات الأمومة ، وجزائها الأوفى يوم القيامة .. فى هذا اليوم تتحول السفعة ومظاهر العناء على وجهها وما لاقته فى الدنيا إلى نضرة وبهاء ...

(والسفعة ، نوع من السواد ليس بكثير ، فهى قد بذلت نفسها ليتاماها ، وتركت الزينة والترفه ، حتى شحب لونها واسود . و «آمت» أقامت بلا زوج . ومعنى «بانوا» انفصلوا واستغنوا) .

(٦) حسـن الصحبـة

١ ـ ويوصى الرسول ﷺ بحسن صحبة الأبوين ، مؤكدًا مكانة الأم . فعن معاوية بن جاهمة «أن جاهمة رضى الله عنه أتى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله أردت أن أغزو ، وقد جئت أستشيرك فقال : هل لك من أمّ ؟ فقال : نعم . قال : فالزمها ، فإن الجنة عند رجلها» أخرجه النسائى .

٢ ـ ويوصى بها وإن كانت على غير الإسلام فعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : قَدِمتْ علىَّ أمى وَهى مشركة فاستَفْتَيْتُ رسول الله ﷺ فقلت : قدمت علىّ أمى وهى راغبة : أفأصل أمى ؟ قال : «نعم صِلِى أمك» أخرجه الشيخان وأبو داود .

٣ ـ ويجعل البّر بالأم كفارة للذنب . فعن ابن عمر رضى الله عنها قال : «أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : إنى أصبت ذنبًا عظيمًا فهل لى من توبة ؟ قال : هل لك من أم ؟ قال لا . قال فهل لك من خالةٍ ؟ قال : نعم . قال : فَبرَّها» أخرجه الترمذى وصححه .

(٧) وما بعد الوفاة

١ ـ ويجعل هذا البر ممتدًّا إلى ما بعد موتها . فعن أبى أسير مالك بن ربيعة الساعدى «أن رجلاً قال : يارسول الله : هل بقى من بر أبوىَّ شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم : الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لاتوصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما» أخرجه أبو داود .

٢ ـ وعن ابن عمر قال : «سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن من أبرّ البرّ أن يصل الرجل ودّ أبيه بعد أن يولّى» أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى .

(٨) فى الميراث

وفى الميراث لا تحجب الأم حجب حرمان على أية حال ، فمتى وجدت ورثت . ولها ثلاث حالات :

١ ـ ترث السدس إذا كان هناك فرع وارث مذكرًا كان أو مؤنثًا ، أو اثنان فأكثر من الإخوة والأخوات مطلقا ، سواء أكان من جهة الأم والأب ، أم من جهة أحدهما : لقوله تعالى «فإن كان له إخوة فلأمه السدس» (النساء : ١١)

٢ ـ ترث الثلث أى ثلث التركة كلها فرضًا عند عدم الفرع الوارث ، وعند عدم اثنين فأكثر من الإخوة أو الأخوات . والفرع غير الوارث لا يحجبها من الثلث إلى السدس . كابن البنت وبنت البنت ، وكذلك الواحد من الإخوة أو

الأخوات ، لقوله تعالى «فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث» (النساء : ١١) .

٣ ـ ترث ثلث الباقى من التركة بعد نصيب أحد الزوجين ، إذا اجتمعت الأم مع الأب وأحد الزوجين فقط ، بشرط ألا يكون معها فرع وارث ، ولا أكثر من أخ أو أخت .

ذكرت هذه التفاصيل لبيان مدى عناية الإسلام بالأمومة وحقها وأنها لا تحجب حجب حرمان على أية حال . (أحمد الغندور : الميراث فى الإسلام والقانون ص ٥٤ ـ القاهره ١٩٦٧) .

(٩) أنبياء فى رعـايـة الأمـومـة

ولقد كرم الله الأمومة فجعلها مسئولة عن رعاية أنبياء ..

١ ـ ففى قصة إبراهيم تراه وقد أسكن من ذريته بوادٍ غير ذى زرعٍ . والمقصود هنا زوجه هاجر وولده إسماعيل . «والأم» هى التى تحملت مسئولية رعاية وليدها فى هذا الجزء من القصة وقت أن كان إبراهيم فى ديار الشام .

(أ) وكانت سكنى الأم ، فى «أم» القرى مكة ..

(ب) وكانت محنة الأم التى جاءت من وادٍ ذى زرع ـ أرض النيل ـ أن تعيش فى وادٍ غير ذى زرعٍ . وتفجرت عين زمزم . ومازالت فياضة بالماء حتى الآن . وارتبطت بعض مناسك الحج بسعى هاجر بين الصفا والمروة بحثًا عن الماء لوليدها ونفسها . وبهذا جعلت «الأمومة» فى سعيها جزءًا من مناسك الحج . كما تمثلت «الأمومة» مرة أخرى فى رجم إبليس رمز الشر والمعصية .. فلقد رجمه الوالد والوالدة والابن .. وبقيت هذه المناسك جزءًا من أعمال الحج فى أيام التشريق بمنىً بعد إفاضتنا من عرفات .

٢ ـ وفى قصة موسى نرى دور الأمومة بارزًا : إن موسى رعته الأمومة ، وأنقذته الأمومة :

(أ) أما الرعاية فنى قوله تعالى «وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولاتخافى ولاتحزنى ، إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين » . (القصص : ٧)

(ب) وتُسْلِم الأمُّ وليدها الذى لا يملك من أمر نفسه شيئًا إلى موج اليم مطمئنة إلى وعد الله ، وتمرّ يد الرحمة على قلبها «وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين» (القصص : ١٠) .

(جـ) هذا بينما كان الوليد ينتقل من يد رحيمة إلى يد رحيمة أخرى «وقالت امرأة فرعون قرّة عين لى ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا وهم لا يشعرون» (القصص : ٩) .

ولنتأمل هنا فى قول الله على لسان امرأة فرعون «أو نتخذه ولدًا» لنحس مكانة الأمومة فى هذا الموقف .

٣ ـ ويبدو فى قصة عيسى تقابل يلقى الطمأنينة فى نفس مريم ، وذلك قوله تعالى بعد أن بشرها روح الله بولدها «وهزّى إليك بجذع النخلة تُساقط عليك رُطبًا جَنيًّا . فكلى واشربى وقرّى عينًا ، فإمّا تَرَيِنَّ من البشر أحدًا فقولى إنى نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم اليوم إنسيًّا» (مريم : ٢٥ ـ ٢٦) .

فالجِذْع جاف ، وعندما هزته حمل الرطب ثم أسقطه جنيًّا . وكذلك مريم عذراء ، ولكنها ـ بروح الله ـ حملت بوليدها . وجاءت به مثمرًا .. يتكلم مدافعًا عنها «قال إنىّ عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًّا» (مريم : ٣٠) وبهذا رأت مريم غدة معجزات متكاملة فى عالم «الإنسان والنبات» . هذا ثمرته رطب جنى ، وهذا ثمرته كلمة الله الطيبة . والإثنان على غير موعدٍ .

٤ ـ ولقد عاش نبينا محمد ﷺ يتيمًا فى رعاية أمه بعد موت أبيه .. وكفله جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب . وأحس مع ألم اليتم حنان الأمومة ..

وهكذا نرى أنبياء حملوا رسالة الله ، رعتهم الأمهات ، واشتركوا فى هذه

الظاهرة : «إسماعيل وموسى وعيسى ومحمد عليهم جميعًا الصلاة والسلام» أحيانًا فى وجود الأب ، المهاجر أحيانًا والعائد أحيانًا ، كما فى قصة إبراهيم وولده إسماعيل ، وأحيانًا فى وفاة الوالد كمحمد ، وأحيانًا فى جو المعجزة كعيسى ..

(١٠) الأمومة والمحافظة على العقيدة

وإذا كنا نقرأ فى القرآن كيف جعل ربنا رعاية بعض أنبيائه من أولى العزم ، أمانةً فى أيدى أمهاتهم ، فإنه يمد حبال المودة بين الآباء والأبناء إلى ما وراء هذه الحياة الدنيا . ويعطينا ربنا فى سورة الأحقاف صورتين متقابلتين :

١ ـ صورة الابن الذى حفظ أمانة أبويه ، وتقبل منهما الإيمان كما استقبل الحياة . وحفظ عهد الوفاء لهما فى تربية جسمه وسلامة عقيدته . يقول الله تعالى : «ووصينا الإنسان بوالديه إحسانًا حملته أمه كرهًا ووضعته كرهًا (أى حملته ووضعته بالمشقة) وحمله وفصاله (أى رضاعه) ثلاثون شهرًا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال ربِّ أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحًا ترضاه ، وأصلح لى فى ذريتى . إنى تبت إليك وإنى من المسلمين» (الأحقاف : ١٥) .

فهنا استمرار فى الإيمان : أخذ الابن من أبويه ، وهو يدعو بصلاح ذريته . وهو مع بلوغه الأربعين يذكر فضل الأبوين ويظل على صلة الحب لهما وعرفان جميلهما فى تواضع يمثله قوله تعالى : «إنى تبت إليك» وإعلان لدستور حياته الذى غرس فيه هذه القيم بقوله : «وإنى من المسلمين» .

ولنقرأ بعد هذا ما أعده الله له من الثواب :

«أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ، ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعْدَ الصدق الذى كانوا يوعدون» (الأحقاف : ١٦) .

٢ ـ وتقابل هذه صورة أخرى من العقوق ، يرفض الابن فيها ما يريد الوالدان أن يغرساه فيه من عقيدة سليمة ، ونرى الأبوين يتوجّهان إلى الله داعين لولدهما

بالخير فى لوعة واستغاثة ، راجين أن يسعد ولدهما فى دنياه وأخراه ، بينما هو عن الإيمان منصرف :

«والذى قال لوالديه : أُفٍّ لكما أتعداننِى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى ، وهما يستغيثان الله ويلك آمن . إن وعد الله حق . فيقول : ما هذا إلاَّ أساطير الأولين» (الأحقاف : ١٧) .

ويقيم ربنا ميزان العدل والجزاء لكل إنسان على ماعمل فيقول :

«ولكلٍّ درجات مما عملوا ، وليوفيهم أعمالهم وهم لايظلمون» (الأحقاف : ١٩)

٣ ـ هذا وإن حياة أجيال الأسرة الواحدة على الإيمان والفرح بهم ، يظلّ دعاء على لسان الملائكة قائلين «ربنا وسعت كل شىء رحمةً وعلمًا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدنٍ التى وعدتهم ومن صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقِهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذٍ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم» (غافر : ٧ ـ ٩) .

(١١) فى بيت النبى (ﷺ)

١ ـ كان لخديجة زوج النبى ﷺ المكانة العليا فى نفسه . ذكرتها عائشة مرّة ناقدة بعد وفاتها فقال المصطفى ﷺ :

«والله ما أبدلنى الله خيرًا منها : آمنت بى حين كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء» (السمط الثمين للمحب الطبرى ص ٢٦) .

فكانت أمومتها من مقومات مكانتها فى نفس الرسول ﷺ ، فى حياتها وبعد رحيلها .

وفى فتح مكة سنة ثمانٍ بعد الهجرة ، وقد مضى على وفاة خديجة أكثر من عشر سنوات ، اختار الرسول مكانًا قريبًا من قبرها ليشرف منه على الفتح

وليقيم فى قبة ضربت له هنالك (تاريخ الطبرى : ٣ :٥٧ ط . المعارف . القاهرة) .

لقد كانت أول من آمن به ، وهى التى قالت له لأول الوحى «الله يرعانا ياأبا القاسم ، أبشر ياابن عم واثبت . فوالذى نفس خديجة بيده ، إنى لأرجو أن تكون نبىّ هذه الأمة ، والله لا يخزيك أبدًا . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلَّ ، وتُقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق» (سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٣) .

٢ ـ ويحفظ تاريخنا للزهراء فاطمة صغرى بنات النبى عليه الصلاة والسلام منزلة كريمة كابنة وزوج وأم . ولقد عبر عنها شاعر الإسلام محمد إقبال فى قوله :

والمجد يشرق من ثلاث مطالع   فى مهد «فاطمة» فما أعلاها
هى بنت من ؟ هى زوج من ؟ هى أم من ؟   من ذا يدانى فى الفخار أباها
هى ومضة من نور عين المصطفى   هادى الشعوب إذا تروم هداها

ثم يقول عن علىٍّ بن أبى طالب زوجها :

إيوانه كوخ وكنز ثراثه   سيف غدا بيمينه تيَّاها

وعن الحسنين ولديها :

فى روض فاطمة نما غصنان لم   ينجبهما فى النيرات سواها

ثم يتكلم عن أمومتها :

هى أسوة للأمهات وقدوة   يترسم القمر المنير خطاها
لما شكا المحتاج خلف رحابها   رقت لتلك النفس فى شكواها
جادت لتنقذه برهن خمارها   ياسحب أين نداك من جدواها
نور تهاب النار قدس جلاله   ومنى الكواكب أن تنال ضياها
جعلت من الصبر الجميل غذاءها   ورأت رضى الزوج الكريم رضاها
فمها يرتل آى ربّك بينما   يدها تدير على الشعير رحاها

بلت وسادتها لآلىء دمعها   من طول خشيتها ومن تقواها

(ترجمة الصاوى شعلان فى كتابه إيوان إقبال ص ١٧٦ ـ ١٧٧ ط . القاهرة ١٩٧٧ والقصيدة جاءت فى كتاب رموز بى خودى «نفى الذات» لإقبال) .

(١٢) أمهات مجاهدات

وننتقل من الأمهات فى بيت النبوة إلى المجتمع العريض ، وما صنع الإيمان بهذه النفوس ، وهى تدعو الأبناء إلى كل شريف من المواقف وإن كان وعرًا .. ولنذكر ثلاثة مواقف :

١ ـ موقف الصحابية أم عمارة نسيبة الخزرجية وقد شهدت غزوة أحد سنة ثلاث بعد الهجرة ودافعت مع أهل بيتها عن الإسلام والمدينة والرسول عليه الصلاة والسلام ، حتى خلصت الجراح إليها وأصيبت بجرح أجوف غائر فى عاتقها .. (سيرة ابن هشام : ٣ : ٨٦ ـ ٨٧)

٢ ـ وفى موقعة القادسية بين المسلمين وجيش الفرس (سنة ١٤ هـ) جمعت الشاعرة الخنساء أولادها الأربعة وخطبتهم قائلة :

«يابَنىّ إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحدٍ ، كما أنكم بنو امرأةٍ واحدةٍ ، ما خنت آباكم ولا غيّرت نسبكم . وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين . واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية .. فإذا أصبحتم غدًا ، إن شاء الله سالمين ، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين . فإذا رأيتم الحرب شمرت عن ساقها .. فيمموا وطيسها .. تظفروا بالغنم والكرامة فى دار الخلود» .

ومضى الأبناء على وصية الأم واستشهد الأربعة ، وحين بلغها الخبر قالت : «الحمد لله الذى شرّفنى بقتلهم . وأرجو من الله أن يجمعنى بهم فى مستقر الرحمة» (الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٨ : ٦٦ ـ ٦٧)

٣ ـ ونختم هذه المواقف بأسماء بنت أبي بكر الصديق ـ الخليفة الأول ـ وزوج الزبير ابن العوام ـ أحد العشرة المبشرين بالجنة ـ وأم عبد الله بن الزبير أول مولود ولد فى الإسلام ..

هذا المشهد كان فى عام ثلاثة وسبعين : العام الذى قتل فيه عبد الله ولحقت به أمه بعده بأيام .. وبموتها انتهى عهد الصحابة .. فلقد كانت آخر من بقى منهم على الأرض حيًّا ..

وقف عبد الله بن الزبير مقاومًا بنى أمية ، واشتدت الحرب بينه وبين الحجاج ابن يوسف الثقفى فى بطن مكة . واشتد الحصار على عبد الله وقل أنصاره ويذكر الطبرى فى تاريخه (٦ : ١٨٨ ـ ١٨٩) عن مخرقة بن سليمان الوالبى ، قال : دخل ابن الزبير على أمه حين رأى من الناس ما رأى من خذلانهم ، فقال : يا أمّه ، خذلنى الناس حتّى ولدى وأهلى ، فلم يبق معى إلا اليسير ممّن ليس عنده من الدّفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا . فما رأيك ؟ فقالت : أنت والله يابنى أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له ، فقد قُتِل عليه أصحَابُك ، ولا تمكّن من رقبتك يتلعب بها غلمان أميّة ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنتَ . أهلكت نفسك ، وأهلكت من قُتل معك . وإن قلت : كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك فى الدنيا . القتل أحسن . فدنا ابن الزبير فقبل رأسها وقال : هذا والله رأيى ، والذى قمت به داعيًا إلى يومى هذا . ما ركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى إلى الخروج إلاّ الغضب لله أنْ تُستَحلَّ حُرَمُه ، ولكنّى أحببت أن أعلم رأيك ، فزدتينى بصيرة مع بصيرتى . فانظرى يا أمه فإنى مقتول من يومى هذا . فلا يشتد حزنك ، وسلمى الأمر لله ، فإن ابنك لم يتعمّد إتيان منكرٍ ، ولا عملاً بفاحشةٍ ، ولم يَجُر فى حكم الله ، ولم يغدر فى أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به بل أنكرته ، ولم يكن شىء آثر عندى من رضا ربى . اللهم إنى لا أقول هذا تزكية منّى لنفسى ، أنت أعلم بى ، ولكن أقوله تعزية لأمى لتسلوَ عنّى . فقالت أمه : إنى لأرجو من الله أن يكون

عزائي فيك حسنًا إن تقدمتني ، وإن تَقَدَّمْتُك ففي نفسي ، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك . قال : جزاك الله ياأُمَّه خيرًا ، فلا تدعي الدعاء لي قبل وبعد . فقالت : لا أدعه أبدًا ، فمن قُتل على باطلٍ فقد قُتِلت على حق . ثم قالت : اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك النَّحيب والظَمَأ في هَوَاجِرِ المدينة ومكة ، وبِرَّه بأبيه وبي . اللهم قد سلّمته لأمرِك فيه ، ورضيت بما قضيتَ ، فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين » .

خاتمـــة

وبعد : فهذه رحلة مع الأمومة فى المجتمع الإسلامى الأول بدأناها مع آيات القرآن الكريم ، وحديث المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وتتبعناها فى حقائق العلم ، وفى القصص الدينى فيما قبل الإسلام ، ثم ذكرنا مكانة الأمومة : حقًّا ، وواجبًا ، وتكريمًا ، وتكوينًا ، وعطاء فى الإسلام ، على المستويين النظرى والتطبيقى . ورأينا معًا كيف صعد بها الإسلام إلى مستوى نسأل الله أن يعيننا على تحقيقه لخير الإنسانية .

مكتبة البحث

١ ـ القرآن الكريم :

٢ ـ التفسير :

(أ) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانى ط . بيروت ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م

(ب) تفسير الرازى : مفاتح الغيب ط . القاهرة ١٣٢١ هـ .

(جـ) تفسير القاسمى : محاسن التأويل ط . الحلبى ـ القاهرة ١٣٧٦ هـ/١٩٥٧ م

٣ ـ الحديث :

(أ) تيسير الوصول إلى جامع الأصول لابن الديبع الشيبانى . ط . الحلبى بالقاهرة ١٩٧٠ م

(ب) مشكاة المصابيح للتبريزى . ط . المكتب الإسلامى ـ دمشق ١٣٨١ هـ/١٩٦١ م .

٤ ـ السيرة والتاريخ :

(أ) سيرة ابن هشام ط . الحلبى . القاهرة

(ب) السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين للمحب الطبرى ط . القاهرة

(جـ) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى ط . المعارف . القاهرة

٥ ـ فى قضية المرأة والأحوال الشخصية :

(أ) عباس محمود العقاد : المرأة فى القرآن دار الهلال ـ القاهرة ١٩٧١

(ب) البهى الخولى : الإسلام والمرأة المعاصرة دار القلم ـ الكويت ١٩٧٠

(جـ) أحمد الغندور :

١ ـ الميراث فى الإسلام والقانون ط . المعارف . القاهرة ١٩٦٧ .
٢ ـ الأحوال الشخصية فى التشريع الإسلامى ط . جامعة الكويت ١٩٧٢
٦ ـ بنت الشاطىء (عائشة عبد الرحمن) : تراجم سيدات بيت النبوة ط . دار الكتاب العربى ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م .
٧ ـ الصاوى شعلان : إيوان إقبال ط . القاهرة ١٩٧٧ .

الفصل السادس

تربية الفرد في الإسلام وعلاقتها بالخدمة الاجتماعية

المحاضرة الافتتاحية للموسم الثقافي الأول
لإدارة الخدمة الاجتماعية بوزارة التربية
الكويت : ٧ يناير ١٩٧٦ م

تربية الفرد فى الإسلام وعلاقتها بالخدمة الاجتماعية

(١) أهـــداف

دار حوار بينى وبين بعض الإخوة العاملين فى الخدمة الاجتماعية كان محوره :

ماهى القيم الأساسية التى تسعون إلى إكسابها المواطن من خلال عملكم معه سواء أكان هذا المواطن فردًا أو عضوًا فى جماعةٍ أو فى المجتمع الكبير ؟

واختاروا ثمانى قيم لتكون دليل العمل وهى :

أولاً ــ القدرة على التفكير الواقعى المدرك لحقائق الأمور

ثانيًا ــ الإيمان بالأهداف العامة أو المشتركة

ثالثًا ــ القدرة على التعاون مع الغير

رابعًا ــ احترام النظم العامة والميل إلى اتباعها

خامسًا ــ القدرة على القيادة والتبعية

سادسًا ــ القدرة على الإنتاج

سابعًا ــ اللياقة البدنية

ثامنًا ــ الإحساس بالسعادة

ولخصوا القول فى أن الخدمة الاجتماعية تسعى فى كل ما تقوم به من جهود إنسانية منظمة مع الأفراد والمجتمعات إلى تنمية الشخصية الإنسانية إلى الدرجة التى تجعلها قادرة على تأدية مهامها الحالية والمستقبلية . وهى من هذه الزاوية تعتبر مهنة تنمية أساسًا قبل أن تكون ذات مهام علاجية ووقائية .

(٢) من أنـــت

وأنتقل خطوة أخرى فإذا الأمرُ أمْرٌ : إيمان وإحساس واحترام وقدرات ... والإسلام فى تكوينه الفرد يعود إلى أعماق عميقة فى وجوده . ويحاول أولاً أن يؤكد

الأساس القوى الذى يبنى عليه ما تتطلبه منه من قدرات أو إيمان بأهداف مشتركة أو حرص على لياقة بدنية .

وأنت إذا ما رجعت إلى القرآن الكريم وجدته يعرض لسؤال أصيل :

ـ من أنت ؟

ـ وما مهمتك فى هذه الحياة ؟

وتصوروا إنسانًا نسى اسمه ، أو مَبعُوثًا نسى مهمته ؟ أو عاملاً فقد الإيمان بما يعمل ... ما تنتظر من هؤلاء ؟

الإسلام يبدأ من هذه النقطة لتسأل نفسك : من أنت ؟

ونعود إلى القرآن الكريم ليقص علينا قصة وجودنا وخبر أسرتنا الأولى : الأب الأول والأم الأولى .

ونقف فى هذه القضية عند أمور لها أثرها العميق القرآنى على تكوين الفكر الإنسانى وبالتالى على مواقف الإنسان من الحياة والمجتمع .

ذلك لأن كل إنسان يحس أن له فى هذه القضية نصيبًا .. وقد يصل فى حساب أجداد أقربين أو بعيدين ، ولكنه يذكر دائمًا الأب الأول وقصته . وما زالت هذه القضية فى إجمالها أو بعض مضامينها ورموزها مصدر إلهام للأدباء والفنانين .

والقرآن فى عرضه لقضية الخلق يؤكد عدة حقائق .

ـ أن بدء الحياة ربّانى ...

«إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرًا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين» . (ص : ٧١ ـ ٧٢)

ـ بدء يضم الوجود : الطين والروح .

والطين ليس مادة خسيسة . «والله أنبتكم من الأرض نباتًا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجًا» (نوح : ١٧ ـ ١٨)

فأنت وكل إنسان ــ فيك قبس من الروح الإلـهية المقدسة . «ونفخت فيه من روحى»

ــ بدء كريم عند رب كريم .
وتأتى بعد هذا تجربتان :

الأولى : علم يتعلمه الإنسان . «وعلّم آدم الأسماء كلها» (البقرة : ٣١)

ماالأسماء ؟ لا نقف الآن عند ذلك . وإنما نقف عند كرامة ثانية هى كرامة العلم بعد كرامة الخلق .. وتأتى كرامة ثالثة عندما تسجد الملائكة لهذا الكائن المتحرك بروح الله الحامل لعلم من الله .

الخلق والعلم والمنزلة ...

وبهذه الكرامات كلها يدخل جنة الرحمن هو وزوجه .

«وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدًا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين» (البقرة : ٣٥)

ــ وتضاف كرامة رابعة ... الحرية : فى قوله «وكُلا منها رغدًا حيث شئتما» .
ــ وكرامة خامسة هى النظام فى قوله «ولا تقربا هذه الشجرة» .

هنا جاء الفرق الكبير بين ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم وكواكب جبارة تسبح بقدرٍ «لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون» (يس : ٤٠) ، وبين إنسان قادر على أن يفعل أو يكف .

ولكن ما الذى يدفعه إلى هذه الشجرة بالذات وقد حرّمها الله عليه ؟
لم يكن وحده .

هذه زوجه معه يستطيع أن يشاورها . هى منه . يسكن إليها . وبينهما المودة والرحمة .

ولكن هناك صوتًا ثالثًا يوسوس إليهما معًا ...

ولنعد إلى قول الله فى سورة الأعراف «فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماوورى

عنهما من سوآتهما . وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور . . » (الأعراف : ٢٠ ـ ٢٢)

الوسوسة كانت لهما معًا . لم يؤثر الشيطان على حواء ثم أثرت حواء على آدم .
المسئولية مشتركة . والاقتناع كان مشتركًا .
ولكن ما طريقة التأثير ؟

جاءهما أولاً من ناحية العلم . . . يريد أن يضيف إلى علمهما جديدًا . . . لقد كرمهما الله بالعلم . وبالعلم سجد له الملائكة . وهذا إبليس يحاول من مدخل كرامة آدم أن يدخل .

وجعله ينظر من طاقة المعرفة الخادعة التى فتحها أمامه ليرى صورة من المستقبل الموهوم :

أن يكونا ـ إذا أكلا ـ ملكين أو يكونا من الخالدين . أن يتحول الطين إلى نور ، أو أن يصبح آدم وحواء من الخالدين . . . ويثور الصراع فى نفس آدم وزوجه بين صريح الأمر الإلهى وطموح النفس .

ويريد آدم وزوجه أن يخترقا حاجزًا حذرهما الله من تجاوزه . ولنقف هنا قليلاً :

ـ ما أشد ما نلقى الآن ، وما يلقى الناس عبر التاريخ ؟
ـ أليس صراعًا بين وحى الله وأهواء النفس ؟
ـ أليس صراعًا بين الحرية والنظام ؟
ـ أليس محاولة البعض أن يصبحوا بشرًا فوق البشر ؟
ـ أليس ادعاء البعض الألوهية والخلود ؟ وأنهم آلهة أو من نسل الآلهة ؟

لقد تشكلت القصة ولا تزال تتشكل فى حياتنا . وما زال الصراع قائما بين أوامر الله وأهواء النفوس .

هذا هو جوهر القضية

وعند هذه النقطة يؤكد الإسلام الاشتراك فى المسئولية بين الرجل والمرأة .. اشتراكًا يجعلها يتزاملان معًا طول رحلة الحياة . وإذا ما كانت المودة والرحمة كامنتين فى نفس ، فإن التعبير عنهما ينبغى أن يكون تعاونًا فى ظل المودة والرحمة .

ونتابع النص القرآنى فى قوله :

«فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» (الأعراف : ٢٢ ـ ٢٣)

ونسأل : ماذا بعد العصيان وظلم النفس ؟

ونستمع إلى صوت الحق فى القرآن :

«فتلقى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه إنه هو التوّاب الرحيم» (البقرة : ٣٧)

وقوله :

«وعصَى آدم ربَّه فغوى ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى» (طه : ١٢١ ـ ١٢٢)

بعد الخطأ توبة . وبعد المعصية والغواية اجتباء وتوبة وهداية .

وبهذا ـ بنص القرآن الكريم ـ تنتهى هذه القضية بلا ذيول .

وآدم بهذا يمر فى تجربتين :

١ ـ تجربة نجاح أولى يتعلم فيها الأسماء ، ويذكرها ، وتسجد له الملائكة .

٢ ـ وتجربة خطأ حين تجاوز أمر الله ، وغلب طموحه البشرى على صريح الأمر الإلٰهى .

وهو بعد التجربتين يحمل مهمة كريمة : أن يكون خليفة الله فى أرضه .

(٣) خليفة الله

هو ينزل إلى هذه الأرض فى مهمة ، لا يكفّر عن خطأ ارتكبه . وكيف يكفر عن خطأ وقد غفره الله تعالى ؟

والله تعالى يقول فى كتابه : «وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة» (البقرة : ٣٠)

فهو يتولى هذه المهمة بتكليف من الله بعد الاجتباء والتوبة والهداية .

فلا علاقة ـ فى المفهوم القرآنى ـ بين خطأ آدم ووجود الإنسان فى هذه الأرض . ولا لوم على الأم الأولى ، أكثر مما هو على الأب الأول .

وحياتى وحياتك وحياة كل إنسانٍ تبدأ مع الله بكتاب أبيض ليست فيه سطور خطيئةٍ قديمةٍ ، ولا تحمل وزرًا لادخل لك فيه ... وأنت تسمع قول الله فى المسئولية الفردية :

«وكلَّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا . من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه . ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها . ولاتزر وازرة وزر أخرى . وماكنّا معذبين حتّى نبعث رسولاً . (الإسراء : ١٣ ـ ١٥) .

والله كرّمك بأن جعل لك هذه الأرض ، وسخر لك ما فيها وما فى السموات :

واستمع إلى قوله :

«هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعًا» (البقرة : ٢٩)

«ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة .» (لقمان : ٢٠)

ونستمع فى تفصيل إلى نعم الله علينا فى قوله :

«الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به مّن الثمرات رزقًا لكم . وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الإنسان لظلوم كفار» (إبراهيم : ٣٢ ـ ٣٤)

وتأمل : كم مرة تكررت كلمة «لكم» ؟

فأنت أيها الإنسان : لك الأرض والسماء ، والبر والبحر ، والشمس والقمر ، والليل والنهار. ويُجمع هذا كله فى قوله تعالى فى سورة الجاثية (آية ١٣) . «وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعًا منه إنّ فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون» .

(٤) الوحى والفكر

وبينك وبين خالقك رابطة قوية حملها الأنبياء والمرسلون عبر القرون . وأنت تؤمن بهم جميعًا .

«آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير» (البقرة : ٢٨٥)

ووحى الله يأمرك بالتفكر وإعمال العقل . وينعى على الإنسان أن يسير بغير دليل ، بل إنه يعتبر عدم إعمال العقل خطيئة فى الحياة الدنيا والآخرة .

فى إيمانك بالله يأمرك بالتفكر : وفى إيمانك بالرسول يأمرك بالتفكر. وفى علاقاتك العامة يأمرك بالتفكر.

ويأمرك ربك أمرًا صريحًا ألا تتبع طريقًا أو شخصًا بغير دليلٍ تستخدم فيه حواسك وتفكيرك . واستمع فى هذا إلى قول الله تعالى :

«ولا تقف ما ليس لك به علم . إنّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً » (الإسراء : ٣٦)

والسمع والبصر أهم أدوات الاتصال بالمجتمع حولنا ، وإجراء التجارب العلمية . والفؤاد هو تجميع هذه الظاهرات أو الجزئيات فى صورة كلّية تضم ما أمامك من معلومات ، وما فى حصيلتك من تجارب . وما فى قدرتك على تركيب ذلك وتحليله . وأنت تقرأ قول الله :

«كل أولئك كان عنه مسئولاً» : كل قدراتك وطاقاتك مسئولة عن الطريق التى تختارها فى حياتك .

وأنت حتى لو جاملت فى اتباع غيرك فى حياتك ، وأسلمت قيادك لغيرك على غير بصيرة ، وحاولت أن ترضيه على حساب الحق ، ما نجوت من حساب الله يوم تلقاه :

واقرأ فى هذا قول الله تعالى :

«إذ تبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتَّبعوا : لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا . كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار» (البقرة : ١٦٦ ـ ١٦٧) .

(٥) احـــترام العمـــل

هذه الخلافة عن الله والإيمان به وإعمال الفكر تقتضى منك أن تكون منتجًا فى حياتك ، تنقل أقباسًا من عقلك وروحك إلى ما حولك فيتحرك ويزكو .

وحين ترجع إلى القرآن الكريم وقصص الأنبياء فى السنة المطهرة وأخبار سلفنا الصالحين تجد تأكيدًا لقيمة العمل فى الحياة . فالقيام بحق الخلافة عن الله يقتضى أن تكون منتجًا لا مجرد مستهلكٍ .

فى القرآن الكريم نذكر نوحًا وصناعته السفن . وداود وقد ألان الله له الحديد «أن اعمل سابغات وقدر فى السرد . واعملوا صالحًا إنى بما تعملون بصير» (سبأ : ١١) .

وأَسَالَ الله لسليمان عين القطر (مناجم النحاس) كما مَارَسَ موسى ومحمد عليهما السلام حرفة الرعى .

وفى أسماء أسلافنا من العلماء تحس نوع الحرف التى مارسوها ، أو مارسها آباؤهم : الكسائى والفراء والزجّاج والوَرّاق والجصّاص والماوردى .

وإذا ما رجعنا إلى مجتمع الإسلام الأول فى المدينة وجدنا عناية كبيرة بفتح

آفاق الكسب والعمل أمام المهاجرين من مكة إليها .

ولقد مرّ الرسول على مهاجر تحوّل إلى الزراعة فى المدينة وأصبحت يده خشنة من معالجة أدواتها ، فأمسك بيده بين يديه الشريفتين قائلاً : « هذه يد يحبها الله ورسوله » .

ودعا أصحابه إلى العمل . وهذا أفضل سبل الاستغناء عن الناس . وفى هذا يقول الرسول ﷺ « من استغنى أغناه الله . ومن استعفّ أعفه الله . ومن سألنا لم ندخر عنه شيئًا وجدناه » .

ويصل هذا الاستغناء إلى مرتبة رفيعة فى الحياة اليومية نراها عند أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) ويروى عنه الإمام أحمد : كان ربما سقط الخطام (ما يوضع فى أنف البعير) من يد أبى بكر رضى الله عنه فيضرب بذراع ناقته ، فينيخها ، فيأخذه فقالوا : أفلا أمرتنا نناولكه ؟ قال : إن حبيبى عليه الصلاة والسلام أمرنى ألا أسأل الناس شيئًا .

(٦) المشاركة فى العمـــل

وإذا كانت للعمل هذه المكانة فى القرآن وفى تطبيقه السليم فى المجتمع الإسلامى الأول ، فإنّا نراه إنتاجًا ضخمًا فى كافة مرافق الحياة يتعاون الجميع فيه بدءًا من الرسول القائد عليه الصلاة والسلام ، إلى الصحابة والصحابيات ـ رضى الله عنهم أجمعين :

١ ـ المشروعات العامة كانت من صنع أيديهم : كما رأينا فى تعاونهم فى بناء المسجد النبوى حتى كانوا يرتجزون وهم يعملون :

لئن قعدنا والرسول يعمل   فذاك منا العمل المضلل

يحمل الأحجار ويحملون معه ولا يرضى أن يستريح وهم يتعبون .

٢ ـ والتعاون نفسه تراه فى حفر الخندق ومشاركة الرسول فيه بل والقيام بما يصعب عليهم القيام به من تحطيم صخرة صلبة .

٣ ــ وهو يتعاقب البعير معهم إذا كان ما عندهم من ظهر أقل من عددهم كما رأينا في غزوة بدر :

أخرج أحمد عن عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) «كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير. كان أبو لبابة وعليّ رضى الله عنهما زميلى رسول الله ﷺ قال : فكانت عقبة رسول الله ﷺ فقالا : نحن نمشى عنك ، فقال : ما أنتما بأقوى منى ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما».

(٧) القيادة والزمالة والاتبـاع

وإذا كان القرآن يؤكد قيمة العمل والمشاركة فى الإنتاج ، فإنه يعوّد المؤمنين به القيام بمسئولية المواقع التى يعملون فيها . وهى أساسًا ثلاثة مواقع : قيادة وزمالة ومتابعة ، ولنأخذ هذه المواقع بشىء من التفصيل بادئين بالقيادة :

وفى القرآن موقف عرضته سورة آل عمران يتعلق بغزوة أحد وما كان فيها من أحداث :

لقد كان من رأى النبى عليه الصلاة والسلام أن يتحصن المسلمون فى المدينة فلا يخرجوا منها . وكان من رأى الشباب أن يدافعوا عنها فى ظاهرها ، وكثير من أهل المدينه أخذوا بهذا الرأى فنزل الرسول على رأيهم ..

وعندما أرادوا الرجوع إلى رأيه بعد استعداد ، أصرَّ على الخروج . ووضع خطة ثبت نجاحها . ولكن بعض الصحابة خالفوا عن أمره ، وأخلوا مواقعهم عندما انتصروا . فدار مشركو قريش حولهم بقيادة خالد بن الوليد ، واستطاعوا أن يخترقوا صفوف المسلمين وكادت فى هذه الجولة أن تدور الدائرة عليهم ، لولا أن أمرهم الرسول بالانحياز إلى الجبل ، والثبات فى الموقع الذى اختاره . وانتهت المعركة بأن عجز كفار قريش عن تحقيق هَدَفَىْ المعركة : التخلص من الرسول بقتله ، واختراق المدينة والسيطرة عليها .

وعاد القوم .. فإذا بالرسول يأمرهم بالخروج فجر غدهم إلى حَمراء الأسد . وآثر كفار قريش الانسحاب على معاودة حرب المسلمين.

هنا نجد : أكثر من مخالفة عن أمر الرسول ، وشهداء ، وتباينًا فى الآراء ..
فكيف يقابل القرآن الكريم هذا كله ؟ وكيف يحدد للرسول منهج القيادة ؟

نلاحظ أولاً أن الهدى الإلٰهى لم يتخذ مما حدث ذريعة لإهدار رأى الأغلبية التى رغبت فى الخروج . ولم يطل الوقوف عند الذين خالفوا عن أمر الرسول : وتركوا مواقعهم فقد عاود هؤلاء الحرب بكل قوة . وكان فى وقوفهم الصامد تكفير عما حدث منهم .

ومر بيده الحانية على الشهداء وأسرهم .

وخاطب المؤمنين بقوله :

«ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالّذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غُزًّى : لو كانوا عندنا ماماتوا وماقُتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم . والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم فى سبيل الله أومُتُّم لمغفرة من الله ورحمةٌ خيرٌ مما يجمعون ، ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون» (آل عمران : ١٥٦ ــ ١٥٨) .

وينتقل بعد هذا مباشرة إلى تأكيد الشورى . وأنها واجب على القائد . وهى بهذا حق الجماعة .

وإذا كانت غزوة أحد على مستوى الرسول وأصحابه ، فهى لمن دونهم ومن بعدهم أولى .

ولكن أى شورى ، وفى أى جو تؤخذ ، وما مقدماتها ، وماذا بعدها ؟
لنستمع إلى قول الله :

«فبما رحمة من الله لنت لهم . ولوكنت فظًّا غليظ القلب لانفضّوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين» . (آل عمران : ١٥٩) .

أى إنك يامحمد بعد كل ما أصابك فى أصحابك وأهلك ومواقف القوم معك ، أنت تلين لأصحابك برحمة من الله أودعها قلبك . هى التى تجذبهم

إليك ، لوكنت فظًّا غليظ القلب لانفضّوا من حولك ــ مع أنك رسول ــ فتمام رسالتك الرحمة والمودّة ، فماذا تفعل معهم وكيف تمهد الجو لأخذ آرائهم ؟

لقد رأينا كيف ردّ أمر الشهداء إلى الله . والتفت إلى من معه منْ أصحابٍ يحملون المسئولية ، فإذا به معهم ــ بأمر القرآن ــ باللسان والقلب :

لسانك يعفو عنهم ويصرح بالعفو : فاعف عنهم ..
قلبك يستغفر لهم ... فاستغفر لهم ..
فإذا ما استشعروا الرحمة واللين والعفو والمغفرة أمكنك أن تشاورهم فى أمرك .
فالمشاورة بعد هذا كله ــ وهذا جوها ــ الجو الذى لا يخنق رأيًا ، ولا يحس فيه صاحب الفكرة إلا الاطمئنان والرحمة والاحترام ...

فإذا ماجمع الرسول آراءهم والتقت هذه الآراء على خُطَّةٍ قام بتنفيذها ، وذلك قوله تعالى : «فإذا عزمت فتوكل على الله» .

وإذا ما كان بعضهم يحب بعضًا استحقوا وعد الله «إن الله يحب المتوكلين» .

وهذا هو الأسلوب الذى يستحقون به نصر الله وتأييده :

«إن ينصركم الله فلا غالب لكم . وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بَعدِه . وعلى الله فليتوكل المؤمنون» (آل عمران : ١٦٠) .

وأى عمل ناجح ، ينبغى أن يكون بين أفراده هذا التواد والتراحم . حتى فى أشد المواقف خطورة : عليهم أن يديروا الرأى فيما بينهم ، حتى ينتهوا إلى خطة جامعة ، فإذا أقرّوها فعليهم أن ينفّذوها .

وفى الخدمة الاجتماعية أنت محتاج إلى إتقان هذه المواقف الثلاثة : القيادة والزمالة والاتباع .

ولنأخذ لها نموذجًا من حياتنا اليومية .. من صلاة الجماعة فى المسجد وفيها المواقف الثلاثة :

الإمام : «إنما جعل الإمام ليؤتم به» كما علّمنا الرسول الأعظم . فإذا كبّر

فكبروا وإذا قرأ فانصتوا وإذا ركع فاركعوا .. هكذا فى صلاتنا كلها .

المأموم : عليه أن يتبع الإمام فى صلاته ، وعليه أن يفتح عليه إذا أخطأ فى تلاوة وأن ينبهه بقول (سبحان الله) إذا أخطأ فى حركة .

والمأمومون : يقفون فى الصلاة صفوفًا منتظمة ذاكرين توجيه الرسول ﷺ تصافوا بالأقدام والمناكب . «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم» .

ماذا نستنتج من هذا ؟

١ ـ الإمام له القيادة فى الصلاة . ولكنها ليست قيادة مطلقة . وإنما هى قيادة مشروطة لابد من توافر شروط صحتها أولاً ، وحسن القيام بها .

٢ ـ والمأموم ليس صاحب موقف سلبى ، يترك الإمام كما يشاء . وإنما عليه معاونته وإرشاده إذا سها أو أخطأ .

٣ ـ والمأمومون جميعًا ينبغى أن ينتظموا فى صفوف ، تتحول إلى دوائر منظورة فى مكان واحد ، هو المسجد الحرام حول الكعبة .

وكأن كل مُصَلٍّ ، فى أى مكان على الأرض ، يقف على نقطة من محيط دائرة ، لها بُعد معين عن المسجد الحرام .

وهناك ما يجمعهم جميعًا كالطهارة والتوجه إلى القبلة . وهناك ما يتميز به بعضهم عن بعض بحكم العمل الذى يؤديه إمامًا أو مأمومًا .

(٨) القـــوة والأمانـــة

والشاب أو الفتاة فى قيامه بمسئولية العمل وقدرته على العطاء : قائدًا أو زميلاً أو منفذًا ، لا بد له من توفر القدرة على ذلك لا مجرد الرغبة فيه . وقد رأينا التأثيرات المتبادلة بين المواقع . ولكننا هنا نؤكد على القدرة . وسأتناولها من ثلاث زوايا :

* القدرة البدنية .
* القدرة الأخلاقية .

* القدرة العلمية .

والله يُعلى من شأن هذه القدرات جميعًا فى كتابه . وكيف نستطيع أن نتصور قيام الرسول والذين معه بمسئوليات الإسلام ـ وبخاصة فى المدينة ـ إذا لم تتوفر لهم القدرة البدنية على ذلك ؟

لقد هاجر الرسول فى سن الثالثة والخمسين وقطع رحلة الهجرة فى أسبوعين . وإذا أخذنا الجانب العسكرى وحده من حياته . وجدنا فيه ثمان وعشرين غزوةً فضلاً عما نظمه من سرايا فاقت هذا العدد ..

بعض هذه الغزوات كان فى المدينة كالأحزاب وبنى النضير وبنى قينقاع ، أو قريبًا منها كأحد . وبعضها على طريق مكة كبدر وبعضها وراء مكة جنوبًا بشرق كحنين والطائف . وبعضها فى الشمال من المدينة كالخندق وتبوك .

ومن قبل الرسالة المحمدية وجدنا فى قصة موسى كيف دعت ابنة الشيخ الصالح أباها إلى استئجار موسى قائلة : «إنّ خير من استأجرت القوى الأمين» (القصص : ٢٦)

فجمعت فى هاتين الكلمتين قوة الجسم وقوة الأخلاق .

وفى قصة طالوت نسمع قول الله تعالى : «قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم» (البقرة : ٢٤٧) .

وفى قصة يوسف نرى نموذجًا من قوة الخلق والقدرة الإدارية فى قوله للملك «قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم» (يوسف : ٥٥) .

(٩) التخطيـــط

ووضع يوسف نظامًا استمر تطبيقه خمسة عشر عامًا نجده فى قول الله تعالى :

«تزرعون سبع سنين دأبًا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدّمتم لهن إلا قليلاً مما تُحصِنون . ثم يأتى

من بعد ذلك عام فيه يُغاث الناس وفيه يَعصِرون» (يوسف : ٤٧ ــ ٤٩) .

وفى الآيات نجد مشروعًا له ثلاث مراحل :

مرحلة أولى : تستمر سبع سنوات حدد يوسف أهم معالمها وهى :

* خطة الإنتاج : الزراعة
* مدة الإنتاج : سبع سنين .
* مستوى الإنتاج : دأبًا .. عملاً دائبًا متصلاً .
* زيادة الادخار : فما حصدتم فذروه فى سنبله .
* تقييد الاستهلاك : إلاَّ قليلاً مما تأكلون .

وكأنه فى هذه المرحلة الأولى وازن بين متطلبات الإنتاج والادخار والاستهلاك .

مرحلة ثانية : تستمر سبع سنوات حدد أهم معالمها وهى :

* تقييد وتنظيم الاستهلاك : «ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن» .

* الاستعداد لإعادة الاستثمار : «إلا قليلاً مما تحصنون» . هذه هى البذور التى ينبغى أن تحافظوا عليها كأنها فى حصن حصين .

مرحلة ثالثة : «ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون» : يبذرون ما احتفظوا به فى سنبله من قبل سبع سنوات ، فإذا ما ارتفع النبات وغطى الأرض وزكا الثمر جمعوه وعصروا زيوتهم وفاكهتهم .

(١٠) التواضع والتوجه إلى الله

وحين استطاع أن يصنع هذا كله ، لم يكن يحمل فى قلبه إلا الرحمة حتى للذين آذوه وألقوه فى غيابة الجب وهم : إخوته ، وامرأة العزيز التى تسببت فى سجنه ، واكتفى يوسف بأن أعان على إظهار براءة نفسه وردّ غائلة المجاعة عن وطنٍ آواه ، وأعان من سبقت منهم العداوة .

ونسير مع القصة إلى أن نسمع قول يوسف مناجيًا ربه :

«رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض . أنت وليىّ فى الدنيا والآخرة توفّنى مسلمًا وألحقنى بالصالحين» (يوسف : ١٠١)

هذا الإخلاص والتواضع سمة كريمة ، يزداد تمسك الفرد بها كلما زاد فضل الله عليه .

إن يوسف فى هذه الآيات الكريمة أثنى على ربه وعدّد فضله عليه : ما آتاه الله من الملك وما علمه من تأويل الأحاديث ، وكيف يشتق من ظاهرها حقائق كانت مستورة فيها . وتأمل المقابلة بين تأويل الأحاديث ومعرفة أسرارها ، وبين فاطر السموات والأرض ومخرج ما فيها من أسرار : مطر ينزل من السماء ونبات يشق الأرض . ثم إنابته إلى الله فى قوله «أنت وليىّ فى الدنيا والآخرة» .

وبعد هذا الثناء كله يتوجه إلى ربه بالدعاء :

«توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين»

أن تنتهى حياته وهو مسلم لربه وأن يُلْحِقَه بالصالحين فى دار الخلد والمقامة هذا كل مناه بعد رحلة حياته الطويلة الحافلة .

ونحن نذكر مع هذا ما علّمنا ربنا من قوله :

«تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلُوًا فى الأرض ولا فسادًا ، والعاقبة للمتقين» (القصص : ٨٣)

(١١) جوانــب تطبيقــية

نستطيع أن ننظر إلى العرض السابق من زاويتين :

الأولى : زاوية تاريخية تحليلية ، رأينا فيها ركائز أساسية نستطيع أن نستند إليها فى تربية الفرد المسلم وإعداده للحياة وللخدمة الاجتماعية فيها .

الثانية : زاوية تطبيقية ، باعتبار أن هذه الركائز وجدت سبيلها عمليًّا إلى الحياة اليومية ، عند من يطبقون القرآن على المستوى الفردى أو الجماعى وهذه الزاوية التطبيقية إذا ما نظرنا إليها باعتبارها تاريخًا مضى ، كنا قد غمطناها حقها . ذلك لأن حياتها الحقيقية فى استمرار تطبيقها وإخراجها من صفحات الكتب إلى معترك الحياة اليومية ، تساهم فى صناعة الشباب وتعينه على أن يخدم مجتمعه .

من أجل ذلك علينا أن نقيم المعابر بين هذه الركائز والحياة اليومية . وذلك بأن تتحول هذه الحياة إلى برامج عمل . وإذا أمكن : أن تنتظم هذه البرامج فى خطة شاملة .

ولكن لا أقل من برامج العمل والمشروعات التى تحتويها .

وهذه المشروعات تتحدد فيها مسئوليات الأفراد : تخطيطًا وتنفيذًا ومتابعةً . قيادة وزمالةً واتباعًا . جهدًا واستمرارًا فى ذلك الجهد .. حتى يستطيع الفرد والجماعة أن يشتق من العمل إحساسًا حقيقيًا بالسعادة .. السعادة بالعمل وبالإنجاز وبخدمة الغير .

ومن الطبيعى أن تتعدد المشروعات وأن تتنوع ، وأن تتباين من حيث الحجم والمسئولية . ولكن ستظل هذه الركائز فيها عصارة حية تدفع إلى مزيد من الإنتاج والخدمة العامة .

وهذا الجانب التطبيقى ــ بطبيعته ــ هو ثمرة تفاعل بين الفكر المبدع وبين ظروف البيئة التى يحيا فيها الأفراد وتحيا فيها الجماعة . هو الصوت الذى يستمعون إليه إذا وضعوا آذانهم على احتياجات المجتمع وسمعوا نداءه .

وكما كان هذا الاستماع شاملاً لمرافق الحياة ــ كما رأينا فى صدر الإسلام ــ فأنتج هذه التربية المتكاملة ، كان علينا أن نستمر فى إعادة هذه التجارب ، حتى نستطيع أن نجعل غدنا أكثر إشراقًا من يومنا .. إشراقًا بالعمل والقدرة على رسم ابتسامة الخير على شفاه غيرنا ، والسعادة بأن نقدم الخير وأن نساهم فيه .

كثيرة هى المسئوليات محليًّا وعربيًّا وإسلاميًّا وعالميًّا : ، عندنا مجتمع ينادينا لكى نرفع من شأنه ، ومقدسات أسيرة فى أيدى أعدائنا ، وخيرات طبيعية وبشريةٍ علينا أن نحسن التصرف فيها ليومنا وغدنا ، وجيل جديد نرجو أن يكون أسعد منا حظًّا وأقدر على حمل هذه المسئوليات جميعًا ..

الفصل السابع

القيم الروحية والأخلاقية في تنشئة الأطفال والشباب

الحلقة الدراسية الرابعة عن التخطيط العربي بدعوة من : منظمة الأمم المتحدة للأطفال (اليونيسف) وبالتعاون مع الأمانة العامة لجامعة الدول العربية : الإدارة العامة للشئون الاجتماعية والثقافية ، ودولة الإمارات العربية المتحدة : وزارة التخطيط .

أبو ظبي : ١٢ أبريل ١٩٧٦ م .

القيم الروحية والأخلاقية فى تنشئة الأطفال والشباب

(١) بين الدين والحياة

فى أوائل الستينات استدعت الحكومة المصرية الأستاذ لوثر جيولك L.gulic الخبير الإدارى العالمى والأستاذ بجامعة نيويورك (الولايات المتحدة) ، ليضع تقريرًا شاملاً بمقترحاته عن تطوير الهياكل الإدارية المصرية . ووضع تقريره ومرت سنوات والتقيت به فى ربيع ١٩٧٢ م عندما كان فى زيارة قصيرة للقاهرة .

كان وقتئذ فى نحو الثمانين من عمره ـ تخرجت على يديه أجيال من الدارسين ـ ضامر الجسم ، هادئ النفس ، واسع الأفق ، بعد رحلات طويلة طاف بها المشرق والمغرب ، وغلبت عليه النظرة الإنسانية الشاملة . وتحس عندما تلقاه وتستمع إلى حديثه ، بمزيجٍ من رائحة التاريخ ، ومعاناة الحاضر ، والتطلع إلى المستقبل .

ودار بيننا حديث تناول ذكرياته عن تلك الفترة التى قضاها فى مصر ، وعن تجارب له فى أكثر من قطر ، فى التنظيم الإدارى .. وكان مما قاله لى :

... لقد درست الهياكل الإدارية عندما جئت بلدكم .. وسبق لى أن زرتها أكثر من مرة ، وطلبتْ منى حكومتكم أن أقدّم اقتراحاتى بتطوير الهياكل الإدارية . وكان مما سألت عنه : الأسس الحضارية التى تقوم عليها حياتكم ، وأى هذه الأسس أقوى . فقال لى الذين معى : إنه الدين . وإن الإسلام ـ كما هو معروف ـ هو أوسع الأديان انتشارًا فى أقطاركم . وإن الإسلام هو الدين الرسمى للدولة .

فقلت لصاحبى : إن معلوماتى عن الإسلام ـ وبخاصة من حيث ارتباطه بالإدارة ـ محدودة ـ فهل لكم أن تُعِدّوا لى النصوص التى ترتبط بموضوع دراستنا .

فسألونى : لماذا ؟

قلت لهم : إن أى تنظيم أو تطوير لابد أن يستند إلى المقومات الحضارية للمجتمع ، حتى يكون التنظيم أو التطوير مرتبطًا بأصول الحياة فيه ، وليجد من نفوسهم قبولاً وتقديرًا ورغبةً فى تطبيقه .

ويتابع الأستاذ جيولك حديثه قائلاً :

ـ وأمضى صاحبى أيامًا عاد بعدها بمجموعة من النصوص الإسلامية ، ووقفت عندها بتأمل عميق .

ونظر إلى قائلاً :

ـ ولعلك طالعتها فى الفصل الأول من تقريرى الذى قدمته فى هذا الموضوع .

قلت : نعم وكان منها :

ـ «كل راع مسئول عن رعيته» (حديث شريف . رواه البخارى)

ـ «وأمرهم شورى بينهم» (سورة الشورى : ٣٨)

ـ «لا ضرر ولا ضِرَار» (حديث شريف . رواه مالك فى الموطأ)

قال : وبعد أن راجعت هذه النصوص من القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ وجدت فيها الأصول التى يمكن أن تقوم عليها الإدارة السليمة فى مصر .

على سبيل المثال :

فى النص الأول تحديد المسئولية عن العمل ومستوياتها ، بحيث تتدرج من المسئولية العامة عن الدولة والمجتمع كله ، إلى مسئولية الحكم الإقليمى ، إلى مسئولية العامل والموظف فى أى موقع عمل ، إلى مسئولية الزوج عن رعاية الأسرة ، والزوجة عن إدارة منزلها والمحافظة عليه ، فإذا المجتمع كله دوائر متوالية الاتساع ومتشابكة فى نظام ، ومتحركة إلى هدف .

وليس فى الإسلام بهذه النصوص حق إلهى للحاكم . فالأمر شورى . والشورى من الدين . والحوار ـ كما أنه أساس فى الإسلام ـ هو أساس فى الإدارة . وأنتم تقومون به ، بهذا القدر من الاحترام الذى يمنحه الدين

لتوجيهاته ، وحين تقومون به ، تحسون أنكم تؤدون أمرًا يرضى عنه الإسلام وتدعو إليه أحدث نظريات الإدارة ، رغبةً فى الوصول إلى أفضل الحلول للمشكلات من بين البدائل المتاحة .

كذلك : أى نشاط فى الجهاز الحكومى ، ينبغى ألا يعود بالضرر على الجهاز أو على العاملين فيه ، وتدخل فى ذلك كل أنواع الرعاية للعاملين والأجهزة والأنظمة والهياكل .

.. وتابع حديثه عن العلاقة بين الإسلام والإدارة وتطويرها ثم نظر إلىَّ قائلاً :

ـ لقد سألت من حولى : إذا كانت عندكم هذه القواعد السامية فلماذا لم تطبقوها ؟ وماذا تنتظرون منى أكثر من ذلك ؟ إن الأمر عندكم لايحتاج إلى أكثر من تحويل هذه القواعد إلى أنظمة ، ثم اتباع هذه الأنظمة .

ثم قال : ولكن جاءتنى بعد هذا إجابة وقفت عندها طويلاً . لقد قال لى من معى :

ـ نود أن تكتب هذا فى تقريرك ، لتؤكد ما انتهيت إليه من ربط تطوير الهياكل الإدارية بالإسلام .

قلت : لقد جاءكم هذا فى دينكم وهو أولى بالاتباع من أن تسمعوه من زائر . ولكنهم عادوا فأكّدوا ذلك ، ذاهبين إلى أن فى تسجيل هذه المعانى فى صدر التقرير ـ وكأساسٍ له ـ ما يساعد على تنفيذه .

يقول : وجلست أسائل نفسى ، لماذا لاتتبعون هذه القواعد السليمة وهى عندكم وفى دينكم ؟ ثم قلت لهم :

ـ هل أستطيع أن أقابل الرئيس الإسلامى الدينى لأستأذنه فى كتابة هذه النصوص ، وأتلقى موافقته على ما انتهيت إليه من آراء .

وكان الأمر ميسرًا . وكان اللقاء سهلاً وسريعًا . وعرضت عليه ما عندى ، وما انتهيت إليه من ربط بين الإسلام وتطوير الإدارة .

يقول : « وأشد ما أثّر فى نفسى وأنا أودّع شيخ الإسلام أن قام وعانقنى فى سماحة ومحبة . وأنا مسيحى زائر وهو شيخ الإسلام ، وكان هذا درسًا عمليًّا فى شمول إخائكم » .

وكان هذا اللقاء مع فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر رحمه الله .

(٢) مع الأطفال فى المسجد النبوى

آثرت أن أبدأ حديثى معكم بهذا اللقاء مع باحث عالمى يعطى انطباعه عن العلاقة بين التنظيم الإدارى وقاعدته الحضارية ، وعلاقته فى أرضنا بالإسلام .

وإذا ما كانت الإدارة تجسيدًا لنظام الدولة وعلاقاتها الداخلية والخارجية ، فإنه مع تشعب دروبها واتساع مجالات عملها ، تسرى فيها ـ فى أرضنا ـ روح ديننا ، ومنه نستطيع أن نستمدّ طاقة دافعةً إلى العمل ، وعصارةً حية نثرى بها مسيرتنا نحو غدنا .

ومن هذا التعميم أنتقل إلى تخصيص أتناول فيه أولاً مدى حب الإسلام ورعايته للأطفال والشباب .

ولنقم معًا برحلة نتجاوز فيها حدود الزمان والمكان إلى المدينة المنورة فى عهد الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه .

سنذهب أولاً إلى المسجد . وأنتم ترون بساطته : أعمدة من جذوع النخل ، وسقف قريب يستطيع المطر أن يتخلله . وهذا منبر خشبى من درجات ثلاث يقف عليه المصطفى ﷺ

هذا وقت صلاة الجمعة . الصحابة من المهاجرين والأنصار جاءوا مبكرين . الرسول ﷺ يصعد المنبر . هذا بلال بصوته الشجىّ يؤذن للصلاة . ويقف المصطفى ويبدأ خطبته ..

لقد توقف بعد قليل . وعيناه معلقتان بطفل صغير يتلمس طريقه ، مقتربًا من

المنبر . فى عنق الطفل خرقة يجرها فيتعثر فيها فيسقط على وجهه . بعض الصحابة يأخذون الطفل إلى الرسول . والرسول يهبط درجات المنبر ، ويحمل الصغير بين يديه حتى يرضى ، ويطلقه ليعود بعد هذا إلى الحُجُرات ..

إنه الحسين بن على وفاطمة الزهراء رضى الله عنهم أجمعين .

والرسول يقول : « إن الولد فتنة . والله ما علمت أنى نزلت عن المنبر حتى أُتيت به » . (رواه الطبرانى عن عبد الله بن عمرو)

ولنعد إلى المسجد مرة أخرى لنرى الحسنَ بن علىّ يمر بين صفوف الصلاة فى أمان ، ويرى المصطفى ساجدًا ، فيمر بين يديه ورجليه .. ثم يحاول أن يصعد فوق ظهر الرسول ، وما أن يستقر عليه حتى يطيل البقاء .. ويطول سجود المصطفى .. ويطول ، ويهبط الصبى آمنًا . ويتم الرسول صلاته ثم يلتفت إلى أصحابه قائلاً : « ارتحلنى ابنى فكرهت أن أعجله » (رواه أبو يعلى عن أنس) .

وخرج الرسول ﷺ مرة ، وأمامة بنت أبى العاص بن الربيع من زوجه زينب بنت المصطفى ﷺ على عاتقه ، فصلى فإذا ركع وضعها ، وإذا رفع رفعها (البخارى عن أبى قتادة) .

ونعود مرةً أخرى إلى المسجد لنرى الرسول إمامًا ومن ورائه الرجال ، ومن ورائهم النساء .. وهذا صوت صبى يرتفع بالبكاء طالبًا أمه .. فإذا بالرسول يخفّفُ من صلاته ، رحمةً بالصغير ..

لك أن تقول إن المسجد روح التوحيد والمحبة .. وأن هذه الزهور الإنسانية الصغيرة كانت لاتجد حرجًا فى دخوله ، ولا رهبةً من العبادة ، بل إن الأمر ليصل بأشرف الخلق إلى أن يقطع خطبته ، رحمةً وحبًّا لصغيرٍ يسعى إليه ..

(٣) من المسجد إلى المجتمع

وإذا كان الطفل يجد هذا الحنان فى بيت الله ، فإن هذا الحنان تنتقل موجاته من هذا البيت إلى المجتمع كله ، فإذا فى كل بيت قَبَسٌ منه منير وهو حنان يرمى

إلى حسن الرعاية دون استرخاء ولا تشدد .. وأن يتعلم هذا الصغير وهو فى السابعة ، أن يقف فى صف الصلاة ، وهو ـ بهذا ـ يضبط له مواعيد نومه ويقظته ، ويعينه على نظافة جسمه بالوضوء ، وعلى الالتزام بالنظام ، واحترام القيادة ممثلةً فى الإمام ، وزيادة حصيلته من القرآن الكريم : يسمعه فى الصلاة ، ويتلوه فيها ، ويغرس فى نفسه ـ عن طريق الممارسة العملية ـ أن يؤمن بالله ربه .. وإنه ليرى فى المؤمنين رحمةً ومحبةً .

إن الطفل يتلو فى صلاته دائمًا : « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم » . ولنتأمل تكرار « الرحمن الرحيم » هنا ..

وإنه ليسمع وصف الرسول ﷺ فى القرآن «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم» (التوبة : ١٢٨)

وتسجل كتب الحديث مظاهر من مكانة الطفولة والقيم التى كانت تربى عليها فى المجتمع الإسلامى الأول . وهى قيم فيها الاستمرار الذى تستقر به أوضاع الحياة مع قدرتها على التطور والنماء فى ذات الوقت .

فهذه مجموعة من الأطفال تلعب فى بعض ساحات المدينة ، ويمرّ عليهم المصطفى ﷺ فليقاهم باسمًا ، ويراهم يتبارون فى الرمى فيشجعهم ، ويقف بعض الوقت معهم . ويحسون أنهم قريبون منه . العلاقة بينهم وبينه قائمة على الحب والرحمة . فإذا ارتفع صوت الأذان سارعوا إلى المسجد مستجيبين لداعى الله ، لهم مكانهم فى الصفوف الخلفية .

وإنه ليعلم أن تقدمه فى صفوف الصلاة يحكمه عاملان أساسيان :

الأول : السن .. فإذا تخطى مرحلة الطفولة كان له أن يصل إلى الصفوف الأولى .

الثانى : العلم .. فإذا ازداد صلة بالقرآن الكريم حفظًا وتلاوةً كان هذا طريقه إلى الإمامة فى الصلاة .. وهو يتعلم حديث الرسول «ليؤمكم أكثركم قرآنًا» (البخارى فى المغازى) .

هذه العلاقة بالمسجد تنظم جوانب كثيرة من مسار الطفل فى دنيا الإسلام : لقد رأينا فيها الرحمة والتوادّ بين القيادة ممثلة فى الرسول ، ﷺ وبين الذين اتبعوه على تباين أعمارهم . وهى تؤكد فى نفسه نوعًا من التنظيم الاجتماعى الذى يوقر الكبير ويفتح باب التقدم أمام الشباب .. وإذا كانت المسافة فى المسجد بين الصفوف الخلفية والأمامية تقاس بالخطوات .. فهى فى عالم التوقير وكرامة السن تقاس بالأعوام .. وهو قادر على اختصار بعض هذه الأعوام .. بل وسبق هذه الأعوام إذا ما ازداد من القرآن اقترابًا وله حفظًا .

وبهذا يقيم الإسلام التوازن الكريم فى نفس الطفل بين التدرج والسرعة ، واحترام النظام والقدرة على التفوق . وهو فى مجتمع المسجد كائن إيجابى قادر على أن يتقدم فيه حتى يصل إلى إمامته بالقرآن والعلم والورع والمحبة .

(٤) فى البيت

وتحضرنى نماذج تطبيقية تدل على كرامة القرآن ، وعلاقة الأبناء بها ، واحترامهم فى المجتمع إذا قويت صلتهم بالكتاب المنير .

ففى كثير من الأقطار الإسلامية سنة حميدة ، نرجو الله بأن تزداد قوةً ، وهى تشجيع الأبناء على حفظ القرآن الكريم .

ولإتمام الحفظ تقاليد تختلف من قطرٍ إلى قطر ، وإن التقت على أمرٍ واحدٍ ، هو تكريم الطفل الذى يعى كتاب الله كلَّه فى صدره .

فى بعض الأقطار يرسلون بهدية إلى الشيخ الذى تولّى التحفيظ ، ويقيمون حفلاً يجمعون فيه الأهل والجيرة ، ويوزعون الهدايا والصدقات أن أكرم الله الأسرة بأن أصبح من بينها من يحفظ القرآن الكريم .

وفى بعض أجزاء الشرق الأقصى الإسلامى . كان الطفل إذا حفظ القرآن الكريم أكرم أهلُه من قام بذلك . ثم إذا جاء رمضان ، قام الغلام بإمامة أهله فى صلاة القيام : يقرأ بهم كل يومٍ جزءًا .. مقسّمًا على الركعات الثمان . ويختم بهم الأجزاء الثلاثين مع نهاية شهر الصيام .

ولك أن تتصور الأثر النفسى العميق الذى يتركه ذلك فى تكوين الطفل ، حين يرى نفسه مع صغر سنه يؤم أهله برضاهم جميعًا .. بل برغبتهم جميعًا . أباه ، إخوته ، الأقربين من أهله .. ومن ورائهم نساء البيت : الأم . الأخوات . وكلهم به سعيد . يدعو له بالتوفيق والنجاح فى أمره .. فإذا ما انتهى الشهر كان العيد ثلاثة أعياد : عيد الفطر ، وعيد القرآن الكريم ، وعيد زكاة الفطر .

وإن من فضل الله على هذه الأمة أن يسّر كتابها للحفظ فى قوله تعالى .. «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدّكر» (القمر : ١٧) وتكرر هذا فى سورة القمر أكثر من مرّة ، كما جاء فى سورتى مريم والدخان ..

وكان من تيسيره أن يستطيع الطفل حفظه ، بينما ظل التحدى به قائمًا «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيرًا» (الإسراء : ٨٨)

وكم هو عميق هذا الغرس فى نفس الطفل ، وهو يدخل عالم القرآن بكل ما فيه من إيمان واحترام للذات .. وتظل هذه المعانى تَعْمُق فى نفسه ، وتنتشر فى حياته ، وتحدد خط سيره ، كما تحدد البوصلة للملاّح اتجاهه بين أمواج الحياة .

(٥) مسارات القيم الروحية والأخلاقية

وما أود فى هذه المرحلة من البحث أن أقف عند القدر الذى يمكن أن نعطيه للطفل من القرآن الكريم ، ولا عن القاعدة التى تطبق عليهم جميعًا .. وليس هذا هو الخط الذى أودّ أن يتجه إليه البحث ..

إن الأمر أولاً هو تحبيب القرآن إلى الجيل الجديد ، كما كان محببًا عند نزوله . والقرآن كالمطر والنور ليس فيه جديد وقديم .. إنه خير متجدد .

فما أهم المسارات التى يمكن أن يؤثر بها القرآن على قيم الأطفال والشباب .

أولاً : هناك القوة الدافعة إلى العمل واحترامه من أى مصدر كان .

ذلك لأن القرآن الكريم يؤكد الروح الإنسانية السامية التى تحترم الإنسان من

حيث هو إنسان ، وتقرر أنه خليفة الله فى أرضه حيث يكون . وأول مسئوليات هذه الخلافة : العمل والإنتاج .

ونحن بهذا نربط بين الإخاء الإنسانى والخلافة عن الله والعمل .

وهذا التنسيق المترابط يؤكده القرآن الكريم بأكثر من أسلوب :

١ ـ الإيمان بكل نبى ورسول .. وأن البشر جميعًا خلقهم الله من نفس واحدةٍ . فوحدة الأصل وعموم الرسالة وتتابع الرسل من أجل الهدف الكبير ..

كل أولئك يفتح للجيل الجديد طريق الإيمان والإخاء العالمى الذى يتقرب فيه إلى ربه بتمجيد جميع الأنبياء « لا نُفَرِّق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » (البقرة : ٢٨٥)

٢ ـ وفى ظل هذا الإخاء تستطيع أن تتعاون مع أخيك وقد تساقطت حجب اللون والجنس والفروق الاقتصادية والاجتماعية . فأنت تستطيع أن تنفذ إلى جوهر الإنسانية الواحد من خلال هذه الفروق ، ولا تقف عندها .

٣ ـ وأنت إذا ما كنت خليفة الله فى أرضه فعليك أن تعمل وفق قدراتك .. وعلى المجتمع أن يفتح أمامك أبواب التقدم ما اتسعت لذلك مواهبك . وكل ما فى هذا الكون من أجلك ، وأنت خليفة الله فيه . فاعمل . ولا تتوقف عن العمل مادمت قادرًا عليه .

ثانيًا : وإذا كان من القرآن والدين دافع إلى العمل فى ظل من الإخاء الشامل ، فإنه يحدّد لك فى ذات الوقت المستوى الأخلاقى الذى ينبغى أن يتم به العمل .

يقول النبى عليه الصلاة والسلام :

ـ «إن الله قد كتب الإحسان على كل شىءٍ»

ـ «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» .

وإنك لتجد هذه الدقة واضحةً فيما جاء عن الأنبياء فى القرآن من صناعة .

ولنرجع إلى قول الله تعالى عن نبيه داود : «وألنّا له الحديد أن اعمل سابغات وقدِّر فى السرد واعملوا صالحًا إنى بما تعملون بصير» (سبأ : ١٠ — ١١). فالدروع التى يصنعها سابغة كاسية تحمى المقاتل . وفى صناعة ما فيها من الزرد يقدّرها بدقة . فهذا هو العمل الصالح . وتأمل هنا تكرار لفظ العمل بمشتقاته اعمل . اعملوا . تعملون .. ثم يأتى ما بعدها من الآيات وفيه قوله تعالى : «اعملوا آل داود شكرًا وقليل من عبادى الشكور» (سبأ : ١٣)

...

وإنك لتحس روح الدقة فى جهد نوح والذين معه فى بناء السفين وما تحمّل من ضغوط حتى أدى مهمته :

«وحملناه على ذات ألواح ودُسُر» (القمر : ١٣)

«وهى تجرى بهم فى موج كالجبال» (هود : ٤٢)

«وقيل ياأرض ابلعى ماءك ، وياسماء أقلعى ، وغيض الماء وقُضى الأمر واستوت على الجودىِّ» . (هود : ٤٤)

وأنت ترجع بهذه الدقة والإحسان فى العمل إلى مصدرها المقدس فى الإسلام ، إلى صنع الله وأوامره :

«إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرًا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين» . (ص : ٧١ — ٧٢)

فبدء خلق الإنسان **تسوية إلهية** «ياأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسوّاك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركّبك» . (الانفطار : ٦ — ٨)

وهذا الإحسان صفة شائعة فى الخلق. وأنت تقرأ قول الله تعالى «ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم. الذى أحْسَنَ كلَّ شىءٍ خَلَقَه»(السجدة : ٦—٧)

فإذا كانت للدقة منزلتها عند الله صُنعًا وتوجيهًا ، كان إتقان العمل وتنشئة الأجيال الجديدة عليه قيمةً أساسية فى الإسلام والحياة ، وكان الخروج عن هذا الإتقان خروجًا عن نواميس الإسلام والحياة .

ونحن فى أشد الحاجة إلى هذا المستوى من «أخلاقيات العمل» فى مجتمعنا

ونهضتنا العربية والإسلامية ، وبخاصة فى هذه المرحلة التى تتفتح فيها آمالنا فى التصنيع والتكنولوجيا الحديثة ، لتتكافأ مع موقعنا الجغرافى ، وحجمنا السكانى ، وقدراتنا فى إنتاج المواد الخام ، والثروات التى أفاضها الله على هذا الجيل لينظر ما هو صانع فيها .

وعمليًّا : فإن التكنولوجيا لا تشمل مجرد المعرفة أو القدرة على الأداء ، ولكنها تشمل أيضًا مستوى الأداء . وهذا ما ينبغى أن ندرّب أبناءنا عليه بحيث يصبح الإتقان عندهم عادةً ثابتة .

ثالثًا : أن يحول بين الفرد والانحراف ، بحيث لا تكل أجنحته الأخلاقية عن التحليق فى آفاقها .. ولكن تصبح هذه الأفاق العالية مجاله ، والقمم العالية مسكنه .

ولنأخذ مثالاً من مشهدين :

المشهد الأول : سفينة قوية الأجهزة متينة الصنع تسير فى بحر هادئ .. إنها تشق طريقها فى سلام وكفاءة . وبعبارة أخرى : إن مستوى أدائها طيب .

المشهد الثانى : عندما يعصف الجو من حولها ، ويصبح الموج كالجبال .. هنا تبدو كفاءة الربّان والبحّارة والسفينة معًا للنجاة من العاصفة ..

كذلك الإنسان تبدو متانة أخلاقه عند الاختبار .. وإذا كانت تجارب الصغير محدودة المدى والمستوى ، بحكم السن ، ومن بعده الشاب ، ثم الكهل .. فعلينا من أول الأمر أن نعد أبناءنا وشبابنا لتجاوز الانحرافات ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ..

ولنقترب من الطفل :

إذا غرسنا فى نفسه احترام الملكية : ما يملكه هو وما يملكه الغير ؛ وربيناه فى الأسرة على أننا نحترمه كإنسان . ونحترم أشياءه . فلا نقترب منها دون إذن ؛ ولا نقهره على إعطائها دون رغبته ، ولا الاحتفاظ بها لمجرد الاحتفاظ ، إذا كان غيره أشد حاجة منه إليها ، وأن يتم هذا الإيثار برضاه .. لو استطعنا أن نوازن بين هذا

كله ، كنا نغرس فيه قيمة أصيلة هى احترام الملكية وصيانتها .

وما زلت أذكر صديقًا كنت أسير معه فى حديقة عامةٍ ، وآسف حين أقول إن أوراقًا كانت ملقاة على أرضها فى إهمال ، وبقايا طعام متناثرة .. وأخرج صديقى من جيبه بعض الحلوى ، وقدم إلىَّ منها ، وبعد أن تناولها وضع الورقة الصغيرة التى كانت غلاف الحلوى فى جيبه ، لأننا كنا بعيدين عن سلة الأوراق المهملة .

ثم نظر إلى الأرض فى ألم ، وهو يرى الأوراق المتناثرة فيها ، وهو يقول : «لقد وضعت الورقة فى جيبى ـ لا لأن الحديقة فى ذاتها الآن نظيفة ـ ولكنى لم أرد أن أشارك فى إهمال قام به من جاء إلى هذا المكان قبلى . إننى أريد أن أحافظ على نظافة نفسى ، حين أضع هذه الورقة فى جيبى» .

نعم . المحافظة على نظافة النفس ..

وما أعمق ماجاء فى حديث النبى عليه الصلاة والسلام :

«إن الله نظيف يحب النظافة» (الترمذى فى الأدب)

(٦) الشباب والسيطرة على النفس

ويؤكد الإسلام فينا قوة الشخصية وامتناعها ـ ما استطاعت ـ على الانحراف .

وإذا رجعنا إلى الحديث الشريف :

« سبعة يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابّا فى الله ، اجتمعا عليه ، وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمالٍ فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه . ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه» (رواه البخارى عن أبى هريرة) .

إذا رجعنا إلى ذلك الحديث وجدنا فيه قاسمًا مشتركًا : هو قوة الدافع إلى الانحراف مع قوة الحائل دونه .. وهذا الحائل فى جميع المواقف التى يعرضها الحديث الشريف واحد : هو قوة الإيمان بالله تعالى ..

هذا الحاكم العادل : إنه يستطيع بكلمة أو توقيع أو إشارة أن يرفع ويخفض . ولكنه يؤمن أن الله أكبر . وأن يد الله فوق يده . وأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب . وأن ماهو فيه ، من فضل الله ليبلوه أيشكر أم يكفر . فالدافع موجودٌ وقويٌّ ، ولكن الحائل موجود وقوى .. وتستطيع أن تنظر إلى الأمر من الزاوية المقابلة : إن الدافع إلى العدل موجود وقوى وهو الإيمان .. فالإيمان هنا ليس قوةً سلبيةً كل مهمتها أن تحول دون الظلم ، ولكنه قوة إيجابية توجه الحكم إلى العدل .

وهذا الشاب الناشئ فى طاعة الله : إنه شاّب . والشباب قوة واندفاع . ولكن إذا كان شبابه قوة دافعة ، فإن إيمانه قوة ضابطة . إنها كالعلاقة بين وقود السيارة وأجهزة التوقيف .

والحديث يقصد الشباب فى أكثر من موقع . فى العلاقات الإنسانية : فتكون صداقاته مُعِينة على الخير ، بعيدة عن الانحراف والريبة . طاهرًا يحترم طهره وأعراض الآخرين . يحب الخير فيفعله فى صمت ، محسنًا إلى الناس ، حبًّا فى الله والناس والإحسان . وهو مع هذا كله رقيق القلب ، محب لآيات الله يخشى ربه ويذكره . فإذا القلب يخشع والعين تدمع .

(٧) الشباب والجهاد

وإذا كان الإيمان بالله ينعكس فى التربية : دافعًا إلى العمل ومحددًا لمستوى أخلاقياته ، وحافظًا من الانحراف ، فإنه ليسرى فى الحياة ليقابل مشكلاتها وحاجاتها المتجددة ، موسعًا دائرة التفاعل لتشمل المجتمع الكبير ، دون انطواء أنانى يحجب عطاء الفرد للمجتمع .

ولنأخذ على ذلك أمثلة من عهد النبى عليه الصلاة والسلام :

من سن مبكرة كان أبناء المجتمع يحسون بقضاياه ومعاناته . وعندما كانوا يدعون إلى جهاد عدوهم كانوا يتسابقون إلى ذلك رغم صغر أعمارهم .

١ ـ أخرج ابن أبى شيبة عن الشعبى : أن امرأة دفعت إلى ابنها يوم أحد السيف

فلم يطق حمله ، فشدته على ساعده بنسعة (وهى سير مضفور ، ويعمل زمامًا للبعير وغيره) . ثم أتت به النبى ﷺ فقالت : يارسول الله هذا ابنى يقاتل عنك . فقال النبى ﷺ : أى بنى . احمل ها هنا ، أى بنى ، احمل ها هنا فأصابته جراحة ، فصُرِع . فأتى به النبى ﷺ فقال : أى بنى ، لعلك جزعت قال «لا يارسول الله» .

٢ ـ وأخرج ابن عساكر عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : ردّ رسول الله ﷺ عمير بن أبى وقاص رضى الله عنه عن مخرجه إلى بدر ، واستصغره فبكى عمير رضى الله عنه ، فأجازه ، قال سعد فعقدت عليه حمالة سيفه ، ولقد شهدتُ بدرًا ، وما فى وجهى إلا شعرة واحدة أمسحها بيدى .

٣ ـ وأخرج ابن سعد عن سعد رضى الله عنه قال : رأيت أخى عمير بن أبى وقاص رضى الله عنه قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ يوم بدر يتوارى ، فقلت : مالك يا أخى ؟ قال : إنى أخاف أن يرانى رسول الله ﷺ فيستصغرنى فيردنى ، وأنا أحب الخروج لعلّ الله أن يرزقنى الشهادة . قال : فعرض على رسول الله ﷺ فردّه . فبكى فأجازه . فكان سعد رضى الله عنه يقول : فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره ، فقتل وهو ابن ست عشرة سنة . (راجع هذه النصوص فى : محمد يوسف الكاندهلوى : حياة الصحابة : ٢ : ٩٢ ـ ٩٤ ، دمشق ١٩٦٩) .

وفى تاريخنا المعاصر نذكر أبناء الضفة الغربية فى فلسطين العزيزة وهم يقابلون العدوان المسلح بصدورهم العارية وحجارة الأرض المباركة . وكيف وقف الأبناء والنساء مع الشباب والرجال فى معركة واحدةٍ من أجل المسجد الأقصى الأسير ، والحرم الإبراهيمى ، والحفاظ على طهارة المقدسات ، سيرًا إلى استعادة الوطن المغتصب .

فرق كبير بين قيم مجتمع الرفاهية والاسترخاء فى تنشئة الأطفال والشباب ، وقيم المجتمعات التى ترضع أبناءها من صغرهم المسئولية وواجبات المستقبل القريب .

إن مجتمعنا العربى عليه أن يسابق الزمن ، وأن يختصر سنوات الدعة عند الأطفال والشباب ...

وإذا كانت العروبة أُسرة كبيرةً واحدةً ، فما ينبغى أن يشتكى بعض أبنائها من الترهل وطول الفراغ ، ويعانى البعض من فقر الدم .. الدم الغالى الذى ينزف على أرض المعارك من رجاله ونسائه وشبابه وأطفاله ..

وإذا كانوا فى عالمنا المعاصر يقسمون الأرض ـ هذا الكوكب الحائر ـ بين شمال متقدم وجنوب يحاول أن يتقدم . بين الذين يعرفون والذين يحاولون أن يعرفوا . بين الذين يتحكمون فى أكثر مقاليد الأرض والذين يحاولون أن يستردوا الحق والنصيب العادل فى ظل عالم جديد .. إذا كان هذا أمر عالمنا ، فإن القيم الأخلاقية والروحية التى نتعاون مع أبنائنا على أن يعيشوا بها ، ينبغى أن تكون لها مواصفات تتلاءم مع طبيعة المرحلة التى نمر بها .

إن الطفل الأبيض فى جنوب أفريقية وروديسيا يربونه على سيادة الرجل الأبيض وأفضليته ، تربية تجعله يكفر بوحدة الإنسانية وبالمساواة بين البشر ، ويغرسون فى نفسه شعور الاستعلاء على صاحب الأرض الأفريقى .

وفى فلسطين المحتلة حيث تسيطر العقلية الإسرائيلية ، يفرقون بين اليهود الذين جاءوا من أصول شرقية ، والذين جاءوا من أصول غربية .. وفى ظل الفكر العنصرى يقسمون أنفسهم درجاتٍ ومراتب . وتشاهد الأرض هناك ثوراتٍ عنصريةٍ فيما بين الإسرائيليين أنفسهم .. هذا فضلاً عما بينهم وبين أصحاب الحق الأصيل : العرب أبناء البلاد وآبائها .

هذه النماذج المنحرفة تعبر عن قِيم ؛ يحاولون أن يجدوا لها سندها الروحى والأخلاقى ، بل يحاولون أن يلووا أعناق بعض النصوص من كتب لها قداستها لتستجيب لهذا الفكر الممسوخ .

إننا فى عالمنا العربى نريد أن نؤكد قيمة الإيمان والإخاء الإنسانى مع التضحية والبذل فى ذات الوقت . بذلاً يصل إلى مستوى التضحية بالمال والنفس . ويستجيب ما استطاع لمسئوليات عالمنا المعاصر والمأمول .

(٨) الشباب والعلم

وهذا التكوين الخلقى الروحى ، إذا كان قادرًا على أن يقدم ذاته جملة واحدةً ، من أجل وطنه ، فهو قادر فى ذات الوقت على العمل الطويل المنتظم ، وقد يكون هذا فى بعض الأحيان أشد على النفس من التضحية فى المعارك .

من أجل ذلك علّمنا رسولنا ﷺ أن مداد العلماء يوم القيامة يوزن بدم الشهداء .

وإذا كان أحدث ما انتهى إليه الفكر التربوى أن يعتبر التعليم عملية مستمرة .. فإن القاعدة مقررة فى الإسلام منذ قيامه . يقول المصطفى ﷺ :

١ ـ « لن يشبع مؤمن من خيرٍ يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة » . (الترمذى عن أبى سعيد) .

٢ ـ « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » . (الترمذى عن أبى هريرة) .

٣ ـ « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » . (الشيخان عن حميد بن عبد الرحمن) .

من أجل ذلك وجدنا فى تراثنا هذا الربط القوى بين العلم والحياة ، وبين طلب العلم والجزاء عليه فى الدنيا والآخره ..

تجد هذا فى تكوين الطفل والشاب والكهل والشيخ .. فكل منهم على خيرٍ ما دام يطلب العلم .

ويربط الإسلام بين العلم والعمل .. وينظر إلى الإنسان نظرةً متكاملةً . ويدعو الإنسان إلى تطبيق ما يتعلمه ، دون أن يبقى حقائق ميتة ، أو جزائر منعزلة عن أرض الواقع :

١ـ فعن يزيد بن سلمه الجعفى قال : قلت يارسول الله إنى سمعت منك حديثًا كثيرًا أخاف أن ينسينى أوله آخره ، فحدثنى بكلمة تكون جماعًا . فقال : « اتق الله فيما تعلم » (أخرجه الترمذى) (والكلمة الجماع إذا جمعت كلمات) .

٢ ـ ويقول عليه الصلاه والسلام . « لا ينبغى لمن عنده شيء من العلم أن يضيّع نفسه » (البخارى عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن) .

(٩) الاقتصاد فى الأعمال

ومع تحبيب هذه القيم وتوضيح مسالكها فى الحياة ، فإن الدين يدعو إلى القصد فيها ، دون اندفاع ولاتهاونٍ .. وحتى فى الأعمال الصالحة ، فإن الإسلام يدعو إلى الإقبال عليها برفق :

١ ـ وينصحنا الرسول ﷺ فيقول : « أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يملُّ حتى تملّوا . وإن أحب الأعمال إلى الله تعالى مادام ، وإن قلَّ » (أخرجه الستة عن عائشة) .

٢ ـ عن أبى هريرة : « خير الأمور أوساطها » .

٣ ـ عن ابن عباس : « لكل عامل شرة ولكل شرة فترة . فمن صارت فترته إلى سنتى فقد اهتدى ، ومن أخطأ فقد ضل » .. (أخرجها رزين ـ انظر تيسير الوصول للشيبانى ١ : ٣٧)

(١٠) مغالبة الصراع النفسى

وإنه ليعلم أن الشباب معرض لتيارات من الفكر ، وأنه يدير الحوار مع مجتمعه ومع نفسه حتى يؤكد القيم التى يريد أن يتمسك بها ، ولكنه يجد هذه الفجوة بين ما يودّ أن يؤمن به وما يلقاه .. فهو فى صراعٍ ، وفى اغترابٍ ، وفى محاولة للصعود إلى أفقٍ أعلى .

وهذه العواصف النفسية التى تمر به قد تدفعه قريبًا أو بعيدًا ، كالسفين فى بحر الحياة ، ولكن نظر المؤمن يظل معلقًا بالهدف الذى يقصده رغم العاصفة حتى يصل إلى مرفأ الأمان .

يقول الرسول ﷺ : « مثل المؤمن مثل الزرع لا تزال الريح تميله ، ولا يزال

ومن يصيبه البلاء (الاختبار). ومثل المنافق كشجرة الأرز لا تهتز حتى تتحصد » (البخارى عن أبى هريرة).

وفى هذا التشبيه نواحٍ تستوقف النظر :

إن شجرة الأرز بضخامتها وقوتها تستوقف النظر أكثر مما يستوقفه هذا الزرع اللين الساق. ولكن صلابة الأرز قد تؤدى إلى انكساره واستحصاده فى عاصفة ، بينما تستطيع الأشجار اللينة السوق بمرونتها وقدرتها أن تتحمل العاصفة تظل بعدها قائمةً على سوقها.

ويسأله أصحابه عن هذا الصراع الذى يدور فى أنفسهم شديدًا كالعاصفة ، حارقًا كالنار فيقولون : يارسول الله : إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممةً أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به.

قال : « ذلك محض الإيمان ». (رواه مسلم عن ابن مسعود)

ولنضم إلى ذلك حديثًا آخر رواه مسلم عن أبى هريرة :

«إن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوه : إنّا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال : أوجدتموه ، قالوا : نعم. قال : ذلك صريح الإيمان».

وبهذا يفتح الرسول الطريق أمام الشباب للتأمل العميق والحوار الذاتى ، كما رأينا من قبل كيف فتح لهم طريق العلم وتطبيقه فى الحياة ، فإذا الشاب يأبى سلبيةً أن يتقبل ما يلقى دون حوارٍ أو دراسةٍ. بل إنه ليعتبر هذا الحوار الداخلى الساخن صريح الإيمان.

١١ ـ التربية كقوةٍ ضاغطةٍ من أجل الحق

وكما بدت آثار هذه التربية فى المجال العلمى ، وفى استرداد الحق المسلوب والإعداد العسكرى ، فإنها تبدو فى مجال ثالث هو الممارسة اليومية فى البيت والمجتمع .. وهى ممارسةٌ تحتاج ـ عمليًا ـ إلى تعاونٍ بين الدولة والشعب.

ولنضرب لذلك أمثلةً من الشرق والغرب :

١ ـ فى أثناء الحرب العالمية الثانية احتاجت كثيرٌ من الدول إلى تغيير أنماطها الاستهلاكية إما لعدم توفر المواد المطلوبة فى الأسواق بالقدر الذى يسمح بالاستهلاك الحر ، وإما لارتفاع أثمانها . وكان من مظاهر هذا التغيير أن يطبِّق المجتمع سنوات متتابعةٍ ـ نظمًا دقيقةً فى توزيع المواد الغذائية والملابس . ولم يكن من اليسير أن ينجح هذا إلا بتربيةٍ وممارسةٍ يصبح بها البيت خليّةً حيّةً متعاونةً على إنجاح هذه السياسة .

٢ ـ واقتضى هذا فى ـ بعض الأحيان ـ مقاطعة سِلَعٍ معينةٍ عدة أيامٍ احتجاجًا من ربات البيوت على التجار ، ليرجعوا عن تغاليهم فى الأسعار . وكان التعاون قويًّا بينهن .. ولا يتأتى هذا إلا بتربيةٍ سياسيةٍ سليمةٍ .

فليس من التربية الناجحة فى شىءٍ أن يقابل الأبناء هذا الأسلوب من رفض الأمهات لتحكم التجار بالثورة على الأمهات ، وإنما ينبغى أن تكون جبهة البيت آمنة وراء الأم أو الأب ، وهم يمارسون هذا الحرمان الرامى إلى تعديل هامش الربح الذى يحصل عليه التجار ليصبح فى حدود المعقول والمقبول .

٣ ـ وتبدو قوةُ هذه التربية إذا كانت تعاونًا بين الحاكم والمحكوم . فعندما طُبِّقَتْ هذه النظم فى أوروبا فى الحرب العالمية الثانية كان الجميع سواء أمام قيود الاستهلاك وحدوده ، مما أدَّى إلى نجاحٍ كبيرٍ فى هذه الأنظمة استطاعت به أن تجتاز أيامها العصيبة .

٤ ـ آثرت أن أذكر هذه الأمثلة القريبة من التاريخ قبل أن أنتقل إلى مشاهد من تاريخنا الإسلامى تؤكِّد خَطَّ المشاركة ، وما اصطلحنا على تسميته بالتربية السياسية .

ولقد كانت حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام نموذجًا لهذه المشاركة ، هو وأهل بيته ، صغارًا وكبارًا . الطعام محدودٌ وإن كان قادرًا . التعليم بالقدوة والممارسة مُقدَّمٌ على التعليم بمجرد التوجيه الكلامى . وَتَرِكَ دنيانا وما عنده مالٌ يورث .

٥ ـ وعلى هذا عاش الخلفاء الراشدون من بعده ، وعاش معهم أزواجهم وأولادهم . فإذا كانت بالمدينة المنورة مجاعةٌ ـ كما حدث فى عهد عمر بن

الخطاب ـ حرَّم الخليفة على نفسه وأهله وأولاده ما لا يستطيعه المسلمون من حوله . ويواسى الناس بنفسه ـ وأهله وأولادهُ معه ـ حتى تنكشفَ الغُمّة عن المجتمع فتنكشفُ حينئذٍ عن بيت الخليفة .

والتربية السياسية بهذا تبدأ مع الطفل من حداثة سنه ، وأهم ما يعين عليها فى الإسلام دوام مراقبة الله . وخير تعبيرٍ عنه صوم رمضان . وهو ـ عمليًّا ـ مدرسةٌ للرقابة الذاتية التى تؤكد إيمان الصائم بربه واحترامه لنفسه .

١٢ ـ خاتمةٌ وخلاصةٌ

أيها الإخوة والأخوات

كنت أراجع بعض ما كَتَبَ فيلسوف الإسلام الكبير محمد إقبال وبعض ما كُتِبَ عنه ، فاستوقفنى وصفه للشباب المأمول فآثرت أنْ أختار منه بعضَ فقراتٍ صوَّر فيه آماله بأسلوبه الشعرى الحار :

«شباب طاهر نقى ، ضَرْبُه موجع قوى ، إذا كانت الحرب فهو فى صولته أسدٌ ، وإذا كان الصلح فهو فى وداعته كغزال الحمى ، يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل . هذا مع الأعداء وذاك مع الأولياء . إذا تكلم كان رقيقًا ، وإذا جَدَّ فى الطلب كان شديدًا ، عفيفٌ نزيهٌ فى حربهِ وسلمهِ . غنىٌّ القلبِ فى الفقر ، فقيرُ الجسمِ والبيتِ فى الغنى ، يقينه بين أوهام العصر كمصباح الراهب فى الصحراء . الشهادة فى سبيل الله أحب إليه من مناصب الحكم والمغانم . يزيد من سعره حتى لا يستطيع أن يشتريه غيرُ ربه . شغلته مآربه الجليلة ، وحياة الجد والجهاد عن زينة الجسم والتأنق فى الثياب . وشَعُرَ بإنسانيته فترفَّعَ عن تقليد الطاووس فى لونه والعندليبِ فى حُسْنِ صوته . (انظر : أبو الحسن الندوى : روائع إقبال ص ٦٤ ـ ٦٥) .

ويوجه حديثه إلى المربين فيقول : «حيّا الله شبيبتك يا مُرَبِّى الجيل الجديد . ألق عليهم درس التواضع ، وهضم النفس مع الاعتزاز بالنفس . علِّمهم كيف يشقون الصخور .. انظر كيف تعيد الثقة إلى نفوسهم» . (نفس المرجع ص ٥٩) .

وبعد : فقد بدأت حديثى معكم بقصةٍ مع عالم من الغرب ربط فيها بين أى تطور يحدث فى مجتمعنا وبين قاعدته الدينية . فهناك أساسٌ عريْضٌ يقوم عليه الفكر الدينى كما وضحه القرآن الكريم ، وهو الإيمان بالله والإيمان بالجزاء الأخروى والعمل الصالح فى هذه الحياة .

وإن التربية على هذه الأسس تبدأ من حياة الطفل الباكرة وتظل معه فى شبابه ورجولته وكهولته وشيخوخته ، عصارةً تمد شجرةَ وجودهِ بالحياة والنماء .

ورأينا كيف أزال الإسلام الحواجز بين المسجد والمجتمع . وبين الدين والدنيا ، وبين الحياة والآخرة ، فى نظرةٍ شاملةٍ للوجود ، يمارسها الطفل الصغير حبًّا فى المسجد وأُنسًا به ، ثم يتدرج فى العبادة حتى يستطيع وفق قدراته ومع تقدم سنه ، أن يصعد منبره ويتقدم للإمامة فى محرابه . وأنَّ المسجدَ ـ بهذا ـ مدرسةٌ للإيمان والنظام والالتزام والنظافة والعلم ، وأن هذه المعانى تسرى منه إلى المجتمع الكبير كما تسرى إلى جو الأسرة فى المنزل . ثم تحدثنا عن مسارات هذه القيم الروحية والأخلاقية فرأيناها ثلاثة مساراتٍ رئيسية : **الأول** : إنها قوةٌ دافعةٌ إلى العمل ، **والثانى** : إنها تحدد المستوى الأخلاقى الذى يتم به العمل ، **والثالث** : إنها تحول دون الانحراف عن الطريق السوى .. وضربنا أمثلةً لكل ذلك مستندةً إلى الكتاب والسنة المطهرة ونماذجَ من حياتنا المعاصرة .. وجمعنا ذلك فى تأكيد قوة الشباب وقدرته على السيطرة على نفسه فى حياته وتماسك شخصيته ، وكيف أن هذا التماسك ومجالات ظهوره والتعبير عنه ، يختلف من مجتمعٍ إلى مجتمعٍ وإن كان هناك قاسمٌ مشتركٌ بينها ..

وفى حياتنا هناك مجالاتٌ أساسيةٌ تبرز فيها قوةُ التربيةِ وهى :

١ ـ تحمل مسئوليات الجهاد من أجل استرداد الحق السليب والأرض الغالية المغتصبة .

٢ ـ الدأب على تحصيل العلم على أساسٍ من استمرار العملية التعليمية وهو أساسٌ يلتقى فيه العلم الحديث مع ركائز الإسلام وربط العلم بالعمل فى الحياة .

٣ ــ أن يكون الطريق الجامع بين الجهاد والعلم والعمل طريق الاقتصادِ والاعتِدَال المؤدى إلى استمرار المسيرة .

٤ ــ هذه المسيرة قد تتعرض لأزمات من الحوار الذاتى والمفتوح . وتكمن فعالية هذه التربية فى استخدامها كقوة ضاغطة فى قضايا الحياة اليومية حتى تعيدَ التوازنَ إلى المجتمع وتقاوم الانحرافات فيه . وضربنا لذلك أمثلةً من مجتمعاتنا المعاصرة ومن صدر الإسلام .. وجمعنا ذلك فى صورة أخذناها من إقبالٍ تقابلُ الصورةَ التى أخذناها فى صدر الحديث لأحد علماءِ الغرب ، حتى يتوازن ــ فى هذا المجال ــ عرض الشرق والغرب ، والماضى والحاضر . بل لك أن تقول حتى يتوازن العرض الإنسانى الذى نحتاج إلى مواصفاته فى هذه المرحلة من مراحل مسئوليات عالمنا العربى والإسلامى .

مكتبة البحث

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ أبو الحسن الندوى : روائع إقبال ط . دار الفتح ، بيروت ، دار القلم الكويت/١٩٦٨ .

وهى مجموعة من الدراسات عن فيلسوف الإسلام السيد محمد إقبال (١٨٧٧ ـ ١٩٣٨) وكان فيلسوفًا وشاعرًا دعا إلى نهضةٍ إسلاميةٍ تتساقط فيها الفروق اللونيةُ والاجتماعيةُ والاقتصادية فى أخوة إنسانيةٍ يحمل مسئوليتها شبابٌ تربى على هذه المبادئ السامية .

٣ ـ إدجار فور : تعلم لتكون (ترجمه د . حنفى بن عيسى) اليونسكو ، ط الجزائر ٧٤ .

وتراجع .. الفصل الثامن من الكتاب عن «بعض المعلومات عن الاستراتيجيات التربوية المعاصرة» من ص ٢٤٢ إلى ٣٠٦ ويعرض فيه التوصيات التى انتهت إليها وتلقى ضوءًا قويًّا على تربية الشباب فى عالمنا المعاصر . واعتنى بمبدأ التعلم المستمر فى ص٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

٤ ـ التبريزى (ولى الدين محمد بن عبد الله الخطيب العمرى)
مشكاة المصابيح (٣ أجزاء)
تحقيق محمد ناصر الألبانى
ط . المكتب الإسلامى ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ دمشق

واعتمد فيه على كتاب مصابيح السنة للإمام البغوى وهو بدوره معتمد على ما جاء فى كتب السنة الصحيحة ، واستدرك التبريزى على المصابيح ، وأضاف إليه . ولم يخرج عن ترتيبه . وهو من أوسع كتب الحديث انتشارًا .

٥ ـ الشيبانى (ابن الديبع) : تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول (٤ أجزاء) ط . الحلبى ١٩٦٨ ـ مصر

وهو مختصر جامع الأصول لمجد الدين محمد بن الأثير الجزرى وفيه يرتب أحاديث الرسول ﷺ على حسب الموضوعات التى اختارها وهى بدورها مرتبة على حروف المعجم .

٦ ـ الكاندهلوى (محمد يوسف)

حياة الصحابة (٤ أجزاء)

ضَبْطُ وترتيب محمد على دوله ونايف العباس ط . دار القلم ـ دمشق/١٩٦٨ ـ ١٩٦٩ جمع فيه ما جاء عن النبي ﷺ والصحابة فى كتب السير والتاريخ والطبقات وقسمه على أساس موضوعى وأسند فيه كل خبر إلى مصدره .

الفصل الثامن

تطبيقات قرآنية

محاضرة فى قاعة أفريقية وبدعوة من وزارة الإعلام والثقافة دولة الإمارات العربية المتحدة، إمارة الشارقة .

٢٢ نوفمبر ١٩٧٨ م

تطبيقـــاتٌ قرآنيـــةٌ

هذا الحديث عن تطبيقاتٍ قرآنيةٍ ، مبنيةٍ على مشاهد من عالمنا الإسلامى . ولقد أمرنا الله بالسير فى الأرض والاعتبار . وقص علينا ما عقَّب عليه بقوله «لقد كان فى قَصَصهم عبرةٌ لأُولى الألبابِ ما كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ، ولكن تَصدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيه وَتَفْصيلَ كُلّ شىءٍ وهدًى ورحمةً لقومٍ يؤمنون» (يوسف : ١١١)

فالقرآن دعوةٌ إلى الإيمان وإلى العمل ، يجمع بين التأصيل والتطبيق ، رابطًا بين الماضى والحاضر والمستقبل . وعند هذا الربط أود أن أقف وقفةً قصيرةً بين يدى هذا الحديث :

فالذى يدعو إليه الإسلام ـ فيما أفهم ـ أن يحاول الفرد جهده ، وأن يحاول المجتمع جهده ، فى رفع مستواه على هدى مما جاء به الإسلام . والإسلام إيمان وعمل . فنحن فى سعىٍ دائبٍ نحو آداءٍ أفضل وأحسن . ولنتأمل فى قول الله تعالى «ادع إلى سبيل ربِّك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ وجادلهم بالتى هى أحسن» (النحل : ١٢٥) . حينما نتكلم عن «أحسن» و «أفضل» فهناك مجال دائمٌ للتحسين . وعلى كل جيلٍ أن يرتفع درجةً أو درجاتٍ ، فى طريقٍ صاعدٍ لا نهاية له . إنَّ كل يوم يفتح فى العلم آفاقًا جديدةً يمكن الإفادة منها فى تعميق الإيمان والرقى بالمجتمع .. ولكن الصورة «المثلى» أو ما يمكن أن نسميه «الأحسن» ـ باستخدام أداة التعريف ـ هو هدفٌ مثالىٌّ أو خيالىٌّ مجهولٌ . وما يصح أن نربى أبناءنا عليه . وإنما علينا وعليهم أن يؤمنوا بمبدأ التحسين والإضافة والجهد المستمر ، الذى يحاول به كل جيل أن يحافظ أولاً على ما بين يديه ، وأن يضيف إليه ما استطاع .. بمعنى أن يكون جيل حفظ وإضافةٍ ، لا جيل استهلاكٍ وتضييعٍ .. ولنبدأ بعرض المشاهد :

١ ـ على نهـر الأردن

كان هذا فى أواخر أبريل ١٩٧٧ . وفى منطقة الأغوار بالأردن . وهبطت بنا سيارتنا الوادى العميق ، ووقفنا عند جسر الملك حسين بعض الوقت . وأقبلت سيارة من الأرض المحتلة ، ووقفت بعد عبورها الجسر إلى جانب الطريق . واقتربنا منها وقال لى صاحبى :

ـ انظر . هذا مقعد السائق . مجموعة من خيوط النايلون المتقاطع لا تخفى ما تحتها وما وراءها . هذا ظهر المقعد مجموعة أخرى من الخيوط . وهذه مصابيح السيارة الأمامية والخلفية . زجاجها منزوع . كل توصيلات الكهرباء والأسلاك فى لوحة القيادة ظاهرةٌ كأنها أحشاء ذبيحةٍ . العجلاتُ مفحوصةٌ بدقةٍ ومختومةٌ بخاتمٍ رصاصىٍ . وعلى السائق أن يسير بها بكل تمهّلٍ وألا ينفجر منه إطارٌ ، فتغيير الإطار ممنوعٌ مادام قد عبر الجسر .

ـ لماذا ؟ قلت لصاحبى . فقال :

ـ قد يضعون فيه رسائل أو مواد متفجرة أو ..

قلت : إلى هذه الحد من التوجس ؟

قال : وأكثر . إذا توفِّى فلسطينى فى الأردن وأراد أهله أن يدفنوه فى موطنه ، يقوم الجنود المسئولون عن التفتيش على جسر الملك حسين بغرز إبرٍ طويلةٍ من الصلب فى الجثة . وفى فراغ الصدر والبطن . من يدرى ؟ فقد تكون فيها مفرقعات . هكذا يقولون . ولا يمكن أن تمرّ جثة إلا بعد أن يترك فيها الجنود الإسرائيليون آثار الإبر الطويلة ، كأنها دود حديدى يخترق الجثة قبل أن تأكلها ديدان الأرض .

كانت السيارة عاريةً .. هل رأيت سيارةً عاريةً ، نزعت بعض ثيابها وكل زينتها ؟ . لا أدرى كيف أحسست فى تلك اللحظة أننى أمام سيارةٍ جريحةٍ ، ووجدت عينى تنظر إلى الأرض حياءً .. ثم ترتفع نحوها وهى آويةٌ إلى جانب الطريق ..

ومددت نظرى عبر الجسر لأرى وجوهًا ما كنت أظن أننى أراها على هذه الدرجة من الاقتراب ..

ونهر الأردن يجرى ماؤه بطيئًا فى موكب حزين . أيها النهر كم رأيت وكم ترى ؟ وكم سَقَيت وكم تَسْقِى ؟ أهكذا يمكن أن تسير الحياة على أرضنا ؟

وعدت وأخذت استحضر فى ذهنى ما قاله لى صديقٌ قديم الودِ يعيش فى الأرض المحتلة :

كان يؤثر هو وأولاده عندما يعودون إلى القدس أن يذهبوا وقد لبسوا من الثياب أبسطها . لا أحذية . يكفى نعلٌ سهلُ التفتيشِ ، فهم يفتشون حتى النعال . لا حقائب . لا أوراق . عبور الجسر قطعةٌ من العذاب . عبور الصراط يوم القيامةِ منه أهون : ففى الصراط عدلُ الله ، وفى الجسرِ ظلمُ الإنسانِ . أجسادٌ تمر ، ورغم كل نظرات الشك وأساليب التفتيش .. فهناك فى كل جسد منطقة فوق الشك وفوق قدرة الإبر الحديدية . إنها منطقة الإيمان العميق بالله . الإيمان . إنه القريب البعيد . العميق الجذور فى الأرض ، والذى تصافح فروعه صفحة السماء . إيمان يسلمه جيلٌ إلى جيلٍ : الوصية بيننا إيمانُنا وأرضنا وقدسنا . وسنصل ولو فى كل عام خطوة ، ما دمنا نستقبل القدس .

ودعانى إخوانى فى اليوم التالى قبل صلاة الجمعة إلى إلقاء كلمةٍ فى مسجد الحسين فى عمان موجهة إلى الإخوة فى الأرض المباركة . وتمثلت لى صور إخوةٍ أعزةٍ عشت معهم فى القاهرة ، أو لقيتهم فى الخليج ، أو قرأت لهم ، أو عنهم . أو حاولت ما استطعت أن أقتدى بهم .

ذكرت صديقًا قريبًا يسكن القدس . ذكرته بإيمانه العميق وصبره وأمله ، وكلِّ أبنائه ، وقد تفرقوا فى الأرض ، على الإيمان مِثْلُه : ذكرت المجاهدين الذين عاصرتهم فى شرخ الشباب والذين سبقوا إلى الله : عبد القادر الحسينى . عز الدين القسام . فرحان السعدى . وذكرت مَنْ بقوا فى ظلمة السجون وفى وطأة القيود .

ووراء هؤلاء آلافٌ وآلافٌ من رجالٍ ونساءٍ وشبابٍ ..

كانت الكلمات تخرج من فمى ـ أقول ـ رطبةً بدمعى . متعثرة فيه أحيانًا . تحلّق بأجنحة الشهداء أحيانًا . قبة الصخرة أمامى ومسرى المصطفى ومصلى الأنبياء . يا قُدْسُ . أيتها الحبيبة . الحرّةُ الأسيرة . مدينةُ الأرض والسماء . عند صخرتك تراجع الزمان والمكان ، وجمعت إرادةُ الله الأنبياءَ والمرسلينَ عبر القرون والأقطار . فى صلاة مع النبى الخاتم صلوات الله عليهم أجمعين . ومن سجدة وراءها سجدات الأنبياء ، عَرَجَ المصطفى من الأرض إلى السماء ، إلى قاب قوسين أو أدنى .. يا قدس ، يا أول أرض مَسَّها المصطفى بعد عودته من السماء . حريتك هى أدق الموازين لقوة العرب والمسلمين على امتداد التاريخ . ودرجة الاقتراب منك هى من أهم المقاييس لتعاونهم وقدرتهم على الأداء ..

٢ ـ مع أمين الأمة : أبى عبيدة عامر بن الجراح (رضى الله عنه)

وفى الأغوار ذهبت لزيارة مسجد أبى عبيدة عامر بن الجراح ، ومن قال عنه المصطفى عليه الصلاة والسلام فى حديث يرويه الشيخان عن أنس بن مالك «إن لكل أمة أمينًا ، وإن أميننا ـ أيتها الأمة ـ أبو عبيدة بن الجراح» .

قاده الإيمان من مكة إلى الحبشة ثم إلى المدينة مهاجرًا ، ومن المدينة إلى الشام قائدًا مجاهدًا ، وفتح الله له أبواب النصر . وعاش فى الدنيا عابر سبيل .

وقفتُ أمام قبره أذكر كلمةَ مُعاذِ بن جبل فى رثائه «إنكم فجعتم برجل ما أزعم والله أنى رأيت من عباد الله قط أقل حقدًا ، ولا أبرَّ صدرًا ، ولا أبعد غائلةً ، ولا أشد حياءً للعاقبة ، ولا أنصح للعامة منه . فترحموا عليه» (والغائلة ـ لغة ـ الفساد والشر)

وذكرت قدوم عمر بن الخطاب إلى الأرض المباركة لتسلم مفاتيح بيت المقدس ، وكيف تلقاه أمراء الأجناد وعظماء أهل الأرض . فقال عمر : أين أخى ؟ قالوا : من ؟ قال : أبو عبيدة . قالوا : يأتيك الآن .

فجاء على ناقة مخطومة بحبل ، فسلّم عليه . فقال عمر للناس : انصرفوا عنّا . وقال لأبى عبيدة : اذهب بنا إلى منزلك .

قال : وما تصنع عندى يا أمير المؤمنين ؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك عليَّ ؟ ودخل عمر فلم يرَ فى البيت شيئًا فسأله : فأين متاعك ؟ لا أرى إلا سيفًا وترسًا ولبدًا (ينام عليه) وصفحة (لطعامه) وشنا (لشرابه) وأنت أمير . أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة إلى جُونةٍ (وهى السلة المستديرة) ، فأخذ منها كسيرات . فبكى عمر وهو يقول : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة .. فيقول أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين إن هذا سيبلغنا **المقيل** .. وعند هذه الكلمة نقف قليلاً :

إنه فيها يفسرُّ قولَ اللهِ تعالى فى وصف الدنيا يوم القيامة «كأنهم يومَ يرونها لَمْ يلبثوا إلا عشيةً أو ضحاها» (النازعات : ٤٦)

ولم تقل الآية و ضحاها بالعطف .. فالدنيا إما عشية أو ضحى . وعند أبى عبيدة هى ضحى ينتهى بالمقيل ظهرًا .. ولنذكر قول الله تعالى فى سؤاله يوم القيامة من عصاه من عباده :

«قال : كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يومًا أو بعض يوم فاسأل العادّين . قال : إن لبثتُم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون . أفحسبتم أنَّما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لاترجعون . فتعالى الله الملكُ الحقُ لا إله إلا هو ربُّ العرشِ الكريمِ » (المؤمنون : ١١٢ - ١١٦)

نسمع هذا فنحس فى أعماق نفوسنا حبًّا لهذا الجيل الذى اختاره الله لصحبة نبيه . أبو عبيدة أحد العشرة السابقين إلى الإسلام . وأحد العشرة المبشرين بالجنة .. وتحس أن المرتقى إليهم صعبٌ . ولكن الاقتراب ممكنٌ . الاقتراب والخطوات المتتابعة فى نور من قول الله تعالى : «إنما أموالكم وأولادكم فتنةٌ والله عنده أجر عظيم . فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرًا لأنفسكم . ومن يُوقَ شحَّ نفسهِ فأولئك هم المفلحون» (التغابن : ١٥ - ١٦) .

ساءلت نفسى وأنا بين يدى أبى عبيدة : ما أقرب شىء إلى نفسه ؟ لقد جاء إلى الأغوار مجاهدًا . وغير بعيدٍ عنه قبور معاذ بن جبل ، وشرحبيل بن حسنة . وفى الأغوار الجنوبية قبور شهداء غزوة مؤتة وفى مقدمتهم جعفر الصادق وأسامة ابن زيد وعبد الله بن رواحة رضى الله عنهم أجمعين . جاء أبو عبيدة مع إخوانه

يرفع كلمة الله ويحرِّر النفوس والأرض من الطغيان . سينظر إلى الأرض حوله هل يستطيع أن يذهب إلى بيت المقدس ؟ هل يستطيع دخول المسجد الأقصى ؟

ومن وراء حجب التاريخ سنرى ويرى معنا صراعًا مستمرًّا حول بيت المقدس .. صراعًا شهد الأذان الطليق ، والأذان الذبيح . شهد منبره ومن فوقه تنطلق الموعظة الحسنة ، وشهده وقد اشتعلت فيه نيران الغدر . شهد مواكب العابدين تسير فى اطمئنان ، والغارات الدامية الباغية تسيل بها الدماء وتتناثر الأشلاء . ألا إن الحاضر ليس ثابتاً . إنه نقطةٌ على سطر التاريخ . وعلينا ما استطعنا أن نمسك بقلم التاريخ فى أرضنا بأيدينا ، لنكتب فى صحيفته ما تسعد به أرواح أجيال سبقت على الطريق ، وما تستشرف له أجيال مازالت فى ضمير الغيب .. ولنقرأ معا قول ربنا .. «فاتقوا الله ما استطعتم» وقوله «فاستجاب لهم ربهم أنِّى لا أضيع عملَ عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى بعضكم من بعض . فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم وأُوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقُتِلُوا لأكفرنَّ عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار ثوابًا من عند اللهِ واللهُ عنده حسن الثواب .. (آل عمران : ١٩٥)

٣ـ أصدقاء فى المدينة

فى طريقك إلى المدينة المنورة تحسّ أن الروح تسبق الخطوات إليها . وأن القلب ينبض بالحب ويجسّد اللقيا قبل المشاهدة ، وأن هذه الجبال الصامتة حولك ، سعدت أيامًا بأن سار بينها المصطفى ﷺ فى هجرته . وقبل هذا شهدته طفلاً ، فى صحبة أمه ، لزيارة أخواله من بنى النجار ، وصبيًّا فى طريق التجارة مع الشام ، ومن بعد هذا فى جهاده من أجل الإسلام داعيًا وغازيًا .

تمرّ صور التاريخ سريعةً أمام عينيك . ثم ترى القبة الخضراء كأنها واحة معلقة بين السماء والأرض ، تحتها يثوى المصطفى ﷺ . وإليها يفد ملايين المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها ، يصلّون فى المسجد والروضة الشريفة . ويسلّمون على الرسول والصاحبين .

وتدخل المدينة فترى كل ما حولك صديقًا مبتسمًا ، حتى الهواء مبتسم . ألا يسعد بصوت الأذان خمس مرات فى اليوم ؟ !

روح الألفة والإيواء ترفرف بأجنحتها النورانية فى أجوائها . الروح التى عبّرت عنها الآية الكريمة «والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يُوق شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون» (الحشر : ٩)

الصلاة فى مسجد المدينة سعادة ، والسير فى طرقاتها سعادة . ولقاء أهلها سعادة .

وضمنى المسجد مع الآلاف المؤلفة من الراكعين الساجدين فى صلاة الظهر .. واستمعت إلى الأذان الذى لم ينقطع من وقت أن ارتفع به صوت بلال ، واستوت خلف الإمام صفوف ظلت منتظمة من وقت أن وقف الرسول إمامًا فى محرابه ، وقرأنا قرآنًا نزل به الروح الأمين على قلب المصطفى فظل يتردد على الشفاه وتخشع له قلوب الذين يخشون ربهم .

وقضيت الصلاة ووقفت أمام المصطفى أقرأ السلام عليه وعلى الصاحبين ، ثم تاقت نفسى إلى السير فى طُرُقات المدينة .. الأرض التى مشت عليها أقدام الصحابة الطاهرة فى سعيهم إلى بيت الله ، وغدوهم ورواحهم عاملين مجاهدين ، وشَهِدت فرحة النصر ، والصبر على الشهداء .. وسَعِدت بمجالس العلم وحلقاتٌ ذكر الله .. أردت بعض الوقت أن أكون قطرة ماءٍ فى هذا النهر المؤمن . قطرة تتحرك فى المدينة المؤمنة . مجرد وجودى فى المدينة يكفينى .

فى الوجوه هدوء لا تخطئه العين ، وطمأنينة أفاضها الله عليهم من الجيرة الطاهرة والتردد على المسجد النبوى .

كانت المتاجر الكبيرة مغلقة بعد الصلاة . وقد ذهب أصحابها إلى دورهم وعمرت الأرصفة بباعة يبتغون فضلاً من الله وقت القيلولة . فإذا عاد أصحاب المحلات الكبيرة جمعوا بضاعتهم وعادوا إلى دورهم .

ووقفت عند أحدهم أسأل عن جلبابٍ . فنظر إليّ وراجع ما عنده من متاع ثم أشار إلى زميلٍ له قريب منه لعلى أجد عنده ما أريد .

فسألته كيف تعاونكم ؟ أنتم كزملاء تشغلون هذه الأرصفة ؟

قال : تجارتنا بين الظهر والعصر كما ترى وإخواننا أصحاب المحلات الكبيرة يسمحون لنا بذلك . فإذا عادوا جمعنا متاعنا . والله هو الرزّاق . يرزقنى ويرزق جارى . ويرزق التاجر الذى سمح لنا باستخدام هذا الجزء من محله عند غيابه

وسألته : من أى البلاد أنت ؟

قال : من بخارى ، وإلى المدينة جئت ، وهنا أقمت فى جوار الرسول ﷺ قالها ، والوجه اطمئنان وسماحة .

وذهبت إلى جاره فوجدت عنده ما أريد ، غير أن الجلباب كان طويلاً .

فسألته : هل تستطيع تقصيره ؟

قال : نعم ، وعد إلىّ بعد ساعة وستجدنى فى انتظارك به .

وأعطيته ثمن الثوب كما قال وتركته عنده .

وعدت إليه بعد صلاة العصر . فوجدت الثوب وما بقى من القماش بعد تقصيره وهو يقول :

ثوبك وما تبقى منه .

قلت : إنما اشتريت الثوب الملائم لطولى

قال : أنت اشتريت الثوب كما دفعت ثمنه ، فالثوب والقطعة الزائدة حقك . وقد تحتاج إليها لإصلاح أى شىء فيه .

وفى وجهه كانت أمارات الرضى والاطمئنان .

سنوات مرّت على هذه الحادثة ، ومازلت أحتفظ بها فى نفسى ، وأرى فيها نموذجًا لما صنع الإسلام بهؤلاء الثلاثة : صاحب المتجر الكبير الذى يسّر لهم سبيل الاستفادة من مدخل محله عند غيابه . الزميلين اللذين يعيشان الجوار الطيب والتعاون فى الرزق ، دون أى إحساس بالتنافس بينهما ، ولا بالحقد على صاحب المتجر الكبير .

أمام هذا المشهد العملى فى المدينة ذابت أمام عينى الكثير من صور الصراع الطبقى المحموم ، لتحل محلها صورة من التعاون والمودة والرحمة وتضاءلت أيديولوجيات كثيرة قامت على الحقد أو الاستغلال أمام الإخاء الإسلامى الكبير.

أفراد من ديار شتى : العربى القديم ، والبخارى ، والتركستانى المهاجر ، وغيرهم كثير ترى فيهم سماحة الإسلام . وكلهم ضيف الله وضيف رسوله يعيشون فى مدينة المصطفى على المحبة والإيمان .

وماذا نريد نحن فى ديار الإسلام أكثر من إشاعة روح المدينة المنورة : روح الإخاء والتعاون والعمل ، وإتاحة فرص الكسب الحلال حتى يكون المجتمع الإسلامى أسرةً كبيرةً ، وأن نبشر بهذا السلوك ، ونجمع عليه العقول والقلوب ، وأن ندعو الناس إليه بالحكمة والموعظة الحسنة .

٤ ـ مع الأمل الجديد

قال لى صاحبى :

سأحضر عند انتصاف الليل لنذهب معًا إلى المسجد

اليوم السابع والعشرون من رمضان . الطرقات كادت أن تفرغ من روادها . السيارة تقطع بنا الطريق إلى المسجد فى قلب الكويت . الصلاة قائمة صفوفًا متتابعةً تملأ المسجد على اتساعه . وعلى يمين الداخل خِدر تصلى فيه النساء .

معظم المصلين شباب فى نهاية المرحلة الثانوية وفى المرحلة الجامعية ، ونفر من الكهول والشيوخ . ألوان وأجناس شتى تضمهم صفوف الصلاة ويوحّد بينها الإسلام . سكون شامل لا يرتفع فيه إلا صوت الإمام خاشعًا هادئًا . قراءة متأنية طويلة «إن قرآن الفجر كان مشهودًا» (الإسراء : ٧٨)

والركوع طويل . والسجود طويل . تحس أنك به فى رحلة إلى الله . وأنك فى سجودك فى معراج تذكر به الحديث الشريف «أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد» وقوله صلّى الله عليه وسلم «أقرب ما يكون العبد إلى ربه فى جوف الليل الآخر» .

وبعد صلاة ركعتين جلسنا لراحة قصيرة . ونظرت إلى الوجوه حولى وهى فى رحلة النور . وسألت صاحبى عن الإمام فقال لى : «إنه مهندس يحفظ القرآن الكريم» .

وهذا الشباب يتم قراءة القرآن كله فى الثلث الأخير من الليل فى العشر الأواخر من رمضان .

وقمنا إلى صلاتنا .

ومرّ الإمام بآيات من الرحمة فسمعت دعاءً خافتًا .. ثم مرّ بآيات من العذاب فسمعت من أمامى وخلفى نشيجًا خوفًا من عذاب الله وطمعًا فى رحمته ، والإمام الشاب يتابع رحلته فى القرآن وخلفه صديق له ، يرده إذا أخطأ ، ويذكره إذا نسى .

ثلاث كلمات

وجلسنا للراحة بعد الركعات الأربع . ودعانى الأبناء إلى الحديث إليهم . فدعوتهم إلى ثلاث : العبادة والصبر والإخلاص :

العبادة : بمدلولها الشامل . فإذا كان الكون كله ساجدًا لله تعالى .. «ولله يسجد من فى السموات والأرض» (الرعد : ١٥) . وإذا كان الكون مُسبِّحا لله «وإن من شىء إلا يسبح بحمده» (الإسراء : ٤٤) . فإن سجود اليد عملها وإنتاجها . وسجود الفكر أن يكون فى خدمة الحق والإنسان . وسجود السلاح أن يكون فى يد ترفع به أمر الله ، وتحارب عدوه وتنصر المستضعفين . وسجود المال أن يأتى من حلالٍ وأن يذهب إلى حلالٍ ، وأن يستثمر فى حلال .. فالعلم والصناعة والزراعة والملاحة وعمارة الحياة إنما هى عبادة وسجود ما دمنا نرجو بها وجه الله ، والخير لأنفسنا ومن حَولنا ، والرقى بالإنسانية . إن عبادة الله استعلاء على كل مظاهر الضعف بحيث لا تكون فوقك إلا قوة الله ، تستمد منها العون والنور .

والصبر : استمرار على طريق الحق . والله يعلمنا فيقول : «إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب» (الزمر : ١٠) . والقضية فى الحياة ليست مجرد البدء الطيب .

ولكن الاستمرار فيه . هذا هو الفرق بين درجة العبادة ومستوى العبادة . والأمل أن تكون درجة العبادة فى العشر الأواخر من رمضان مدعاةً إلى رفع مستوى العبادة فيما بعدها من أيام .

ومع العبادة والصبر نحن محتاجون إلى **الإخلاص** «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة» (البينة : ٥) . الإخلاص هو مستوى النقاء فى أى عمل ومدى خُلُوِّه من الشوائب ، حتى يكون القلب ـ ما استطعنا ـ سليمًا : أن يكون محرابًا خالصًا لوجه الله .

وختمت كلمتى بالدعاء أن يبارك الله فى هذا الجيل المؤمن ليكون أكثر منّا قدرة على حمل أمانة الدين والحياة ، واسترداد أرضنا المغتصبة ومقدساتنا السليبة .

تحـــية

وجلسنا .. ودار بعض الشباب علينا بأكوابٍ من اللبن وأكواب من الشاى ينشطون بها للعبادة . وذهب البعض يجدِّد وضوءه ، أو يشارك فى خدمة إخوانه بإعداد ما يشربون ، كأنهم يسقون الحجيج فى بيت الله العتيق .

وبعد قليل قمنا إلى صلاتنا نكمل الركعات الثمان والشفع والوتر .

وفرغنا من الصلاة فى نحو ثلاث ساعات ، تصافح الشباب بعدها ، وانتشروا إلى بيوتهم يستعدون لصيام يومٍ جديدٍ .

وفى طريق عودتى قال لى صاحبى :

ـ هذا دأبنا فى الخليج والجزيرة العربية .. وعلى هذا عشنا قرونًا . نحيى الثلث الأخير من الليل تسبيحًا وقرآنا . نكمل فيه كتاب الله ..

والذى استوقفنى أن معظم الحاضرين كانوا شبابًا .. كما أن نسبةً عاليةً من المترددين على بيوت الله أصبحوا شبابًا . وفى موسم الحج هذا العام (١٣٩٨ هـ) سألت إخوانى ممن أسعدهم الله بأداء الفريضة عن نسبة الشباب بين الحجاج فذكروا أنها كانت مرتفعة . وذلك من فضل الله .

وإذا كنا فى المشاهد السابقة رأينا جانبًا من مسئولياتنا وآلامنا ، ففى هذا المشهد

نرى صورة الأمل المشرق . وأن هذا الشباب له علينا ـ بدوره ـ مسئولياتٍ أرجو أن نتعاون على حملها .

إن هذا الشباب قطاع هام من حياتنا .. قطاع منتشر فى مجالاتها جميعًا . يمثلون تخصصاتٍ متنوعةٍ ومتكاملةٍ . إنهم كالشجرة : جذورها ممتدة فى الأرض الطيبة تساعدها على الاستقرار . وساقها واحدة قوية قادرة على مغالبة العواصف ، وفروعها منتشرة تستقبل الضوء والهواء النقى ، كأنها أيد باحثةٌ عن النور من أى مصدر ومن كل مصدر .. لتُؤتى بعد هذا زهرها وثمرها .. إنها نموذج حى لإرادة الحياة .. إن كل شىءٍ إذا تركته وحده يسقط على الأرض .. أما النبات فتأمل كيف ترتفع عصارته ضد الجاذبية . كيف يرفع رأسه إلى السماء .. وتأمل ثمرة العمل الصالح . وقول الله فيه «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه» (فاطر : ١٠)

كل المشاهد التى رأيناها ، والنماذج البشرية التى صحبناها فى هذا الحديث .. إنما هى أساسًا من صناعة الإيمان : وهى تمارس مسئولياتها فى الحياة وفق مواقعها وتستعد لهذه المواقع بما تحتاج إليه من علم ، وما يفيضه الله عليها من خير ، تحس ـ من الأعماق ـ أنه أولاً وأخيرًا من فضل الله . يكون المؤمن فى وضع القيادة كأبى عبيدة بن الجراح . يكون مجاهدًا على جبال فلسطين أو أغوارها . يكون عابدًا فى مدينة الرسول ، أو تاجرًا يضرب فى الأرض يبتغى من فضل الله أو شابًّا ناشئًا فى طاعة الله ، يتقلب بين المسجد والجامعة .. كل هؤلاء يعبدون ربًّا واحدًا ويؤمنون بما أنزل من كتابٍ وما أرسل من رسلٍ ، وأن إلى ربك المنتهى ..

والتطبيق القرآنى فى حياتنا يقتضى من المعرفة بكتاب الله ما يستقيم به أمر الحياة . فهذه المعرفة توفر لنا ثلاثة أمور . أولها : أنها دافع يدعونا إلى العمل والإيجابية ، وثانيها : أنها تحدد لنا المستوى الذى نمارس به حياتنا ، وثالثها : أنها تحول بيننا وبين الانحراف وتعيدنا دائمًا إلى الطريق ، إذا زلّت منا قدم «قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم» (الزمر : ٥٣) .

إن الرقى بالحياة يقتضى مددًا متصلاً من العلم والتنظيم . والعلم والتنظيم قوة .

والقوة تحتاج إلى أخلاق ، وإلا صارت ظلمًا وجبروتًا .. يستوى فى هذا الأفراد والدول .. وبهذه الركائز نستطيع أن نبنى حياتنا حتى نصبح بقدر الإمكان «تطبيقًا قرآنيًّا» نعيش فى سلام مع أنفسنا ومع الناس .. سلام الإيمان والقوة والعدل .. سلام فى الدنيا ، يقود إلى سلام الجزاء يوم اللقاء «والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم» (يونس : ٢٥) .

حياكم الله بالسلام فى دنياكم وأخراكم ، وجعلنا على طريق الحق من الأقوياء والأمناء وأعاننا على المودّة بيننا ، والاستمساك بحقنا ، وحسن أداء واجبنا لنجعل غدنا أفضل من يومنا وأبناءنا أقدر منا على حمل مسئوليات الدنيا والدين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث

مَنهَجُ البِنَاءِ

الفصل التاسع

الشخصية الإسلامية المستقبلة

الندوة الإسلامية الرابعة فى ذكرى المولد النبوى
الشريف ١٣٩٨ هـ
بدعوة من : وزارة الثقافة
بالجمهورية التونسية
القيروان : فبراير ١٩٧٨

الشخصية الإسلامية المستقبلة

(١) عناية الإسلام بالمستقبل

الإسلام يعنى بالمستقبل . وكان أول ما نصح الرسول به المسلمين عند هجرته إلى المدينة فى صدر أول خطبة له فيها «أما بعد أيها الناس : «فقدّموا لأنفسكم» . وفى خطبة أخرى له : « أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، ولكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم » .

فتوجيه الرسول (ﷺ) الأول للمسلمين فى المدينة عند إنشاء قاعدة الإسلام الأولى كان : العمل . وأخذ هذا العمل مسالك متعددة ومتكاملة على الأصعدة المحلية والعربية والعالمية وقتئذ .. شملت بناء المجتمع داخليًّا : اجتماعيًّا واقتصاديًّا وأخلاقيًّا ، وتربية الفرد ودعم الأسرة ، والتماسك الاجتماعى ، وتكوين القوة الضاربة القادرة على حمايته والدفاع عنه ، كما شملت بناءه خارجيًّا بالجهود السياسية والعسكرية ، والعناية بنشر الدعوة وفتح مجالات الحوار الخصب ، والاستفادة من كل الفرص المتاحة لذلك .. ولعل أوضح الأمثلة لذلك ما حدث بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وهى فترة العامين من السادس إلى الثامن للهجرة ، ودخلت فيها كثير من القبائل فى دين الله أفواجًا .

فالخط الرئيسى كان البناء المتكامل وصناعة المستقبل . ولقد شارك الرسول (ﷺ) فى المدينة العمال فى أعمالهم ، والجنود فى حربهم ، وحملت يده الشريفة أحجار البناء فى المسجد ، كما قادت الجيوش فى المعارك ، وانبسطت على الأرض فى المحراب سجودًا لله رب العالمين ، ومسحت على رأس اليتيم ، وحفرت فى الخندق دفاعًا عن المدينة .

ولك أن تقول ذلك عن جهود الخلفاء الراشدين وسلفنا الصالحين فى إقامة دعائم الإسلام ، وعن فترات التقدم الإسلامى : فالقضية الأساسية فى عرضنا لماضى الإسلام هى تأكيد خط البناء فيه . والفائدة الأساسية من هذا العرض أن

يكون عونًا على بناء جديد ، دون الوقوف أمام هذا التراث الكبير موقف التراجمة أمام الآثار ، كل عملهم أن يشرحوا ، ثم يعودوا إلى الشرح من جديد .

وإن المحافظة على «روح الإسلام» هى المحافظة على «قوة الدفع» فيه لنرأب فيه صدعًا ، ونضيف إليه جديدًا .

(٢) المحافظة والإضافة

ولعل من أكبر ما أكرم الله به الإنسان : القدرة على الابتكار وصناعة الجديد .

نعم .. إن فى خلق النبات والحيوان وما فيها من دقة الصنع ، ما يدعونا إلى الإيمان بربنا .. ولكن دقة هذا الصنع بما أودع الله فيه من القوة أمر متكرر .. فأقراص الشمع التى يصنعها النحل ، سداسية ثابتة .. والنحل تتخذ لها من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون ، كما يقول ربنا .. وإن الدقة التى تمارس بها عملها دقة معجزة .. ولكن النحل تظل نحلاً ، والخلايا تظل آلاف السنين على هذا النسق الذى أوحاه إليها ربها .

أما الإنسان فلا يكرر نفسه دائمًا ، وهو قادر دائمًا على الصعود بالحياة .. وإن البشر الذين يقودون الآن الحياة فى عالمنا المعاصر ، هم القادرون على الابتكار ، وعلى اختراق المستقبل بنور العلم .

وإن تقسيم العالم الآن إلى الذين يعرفون والذين لا يعرفون ، أو الدول المتقدمة والنامية . هذا التقسيم يبرز حقيقة ضخمة ، من الخير أن نواجهها : وهى حاجتنا إلى مزيد من العلم ، وإلى المساهمة البناءة فى صناعة الحياة .

وما نحفظه فى تاريخنا من قرون المجد ، أنها كانت قرون صناعة الحياة يعيش فى ظلها الكثيرون ، وإن القرون التى نَصِفها بالتخلف هى التى عشنا فيها ، فى ظل الآخرين ، الذين انتقلت إليهم مشاعل المعرفة ، وبخاصة بعد قرون الكشوف الجغرافية الكبرى .

(٣) القرن الهجرى الجديد

ويأتى لقاؤنا هذا وقد اقترب مطلع القرن الهجرى الخامس عشر ، وإلى هذه المناسبة تداعى المسلمون : حكومات وشعوبًا ، ليتخذوا منها نقطة انطلاق جديدة نحو المستقبل .

ولو تعمقنا النظر قليلاً لوجدنا أن المسلمين فى العقود الأخيرة من القرن الهجرى الرابع عشر يعيشون مرحلة توفرت فيها من المقومات ما يستطيعون به أن يصنعوا الكثير لأنفسهم وللأجيال من بعدهم .

بل أكاد أقول : إن فرص العمل المتاحة الآن للإسلام ، لم تتوفر له بهذه القوة منذ صدر الإسلام .

وأستطيع القول : إن هذه هى الانطلاقة الثانية الكبرى للإسلام لو وجدت منا حلولاً وتطبيقًا على مستوى مسئوليتها .

ولقد سمعت من أكثر من مسئول مسلم كبير رغبات صادقة فى هذا .. رغبات يوزعها الألم والأمل .. ألم من الفرقة ، وأمل فى الوحدة والتعاون .. وخلاصة القول :

هذه رقعة العالم الإسلامى كأنها قارة وسطى وسط قارات العالم القديم .. تمتد من مشارف المحيط الأطلسى إلى غرب الصين . ومن أعماق أفريقيا إلى ما وراء البحر المتوسط شمالاً ، حيث بقية مجد إسلامى قديم . وحول هذا الجسم هالة من جاليات إسلامية .. ووراءها جزر من الوجود الإسلامى متناثرة فى أوروبا والعالم الجديد واستراليا ، آخذة فى النمو .

والعالم العربى يمثل القلب فى هذا العالم الإسلامى . وفيه توفرت موارد الثروة والوقود والقوة البشرية ، ومجالات واسعة للزراعة ومصادر الأسمدة ومناطق الغابات والمراعى وثروات معدنية .

ولكن الفرق الرئيسى بين هذه الثروات وما هو موجود فى الوحدات الأخرى الكبرى : أن تلك الوحدات تمثل فيها عاملان رئيسيان نحن فى حاجة إليهما :

١ ـ التعاون فى ظل وحدة أو سوق مشتركة .
٢ ـ المستوى العلمى .

وإذا نظرنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد السوفيتى أو الصين ، لوجدنا أن موارد الثروة المتنوعة تقع داخل النطاق السياسى للدولة الكبيرة .. أما اليابان فتعوّض نقص المساحة وازدحام السكان بمستوى رفيع من التقدم العلمى والتقنى ، وغرب أوروبا يعوّض تعدد الوحدات السياسية بإقامة سوق أوروبية مشتركة ، لكيلا يتحول إلى منخفض حضارى بين العملاقين الكبيرين المعسكر الشرقى من ناحية ، والعالم الجديد من ناحية أخرى ..

ونحن فى أرض العروبة والإسلام ، فى حاجة إلى صيغة من صيغ التعاون الشامل ، نستطيع أن نحدد بها وضعنا إلى جوار القوى الخمس التى ذكرتها ، والتى تكون نطاقًا من التقدم العلمى والتقنى يحيط بالأرض ، وأعنى من الشرق إلى الغرب : اليابان والصين والاتحاد السوفيتى وغرب أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ويمكن أن يضم إليها كندا فى وحدة حضارية .

وبهذا يمكن أن يصبح العالم الإسلامى قوة سادسة عالمية . ولكن أمامه قضيتين : **صيغة التعاون** ، ولعل أقربها صيغة غرب أوروبا ، من سوق إسلامية مشتركة أو شىء قريب منها . والقضية الثانية هى **المستوى العلمى والتقنى** الواجب توفره حتى نستطيع أن نحقّق إرادتنا العلمية إلى جانب الموارد الاقتصادية والاستقلالَ السياسى .

(٤) فكرة سنوات السلام

ويمكن أن نقترح خطوطًا لتكون بين أيدى منظماتنا الإسلامية العالمية وقادتنا وشعوبنا ونحن نستقبل القرن الهجرى الجديد .

لماذا ؟

نود أن تكون لهذا القرن ـ فى هذه الظروف ـ شخصية متميزة نفيد منها ـ إلى أبعد مدى ممكن ـ مما توفر بين أيدينا من مقومات النهضة .

وما أود أن يقتصر الحديث عن «الشخصية الإسلامية المستقبلة» على مستوى الفرد، وإنما يمتد ليشمل شخصية العصر الذى نستقبله، وما أقدمه من مقترحات، تدخل فى حدود الممكن، وتحتاج إلى تعاون على مستوى عام يفوق طاقة الفرد.

لقد تحدثت عن ذلك فى المشرق العربى، وأود أن أذكر هذه المقترحات فى هذه المناسبة الكريمة.

أولاً ـ هل يستطيع عالمنا الإسلامى أن يتفق على إعلان خمس سنوات سلام بين الدول الإسلامية مع مطلع القرن الهجرى الجديد؟ والفكرة نابعة من نور قوله تعالى:

«إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم» (التوبة: ٣٦).

ونحن لا نشرّع أمرًا جديدًا .. ولكن العبرة الكبرى فى الأشهر الحرام أنها يسّرت الحج وأمّنت طريقه.

ومع حرمة الزمان أضاف ربنا حرمة مكان الحج وسمّى بيته «البيت الحرام» وقال المصطفى (ﷺ) عن مكة .. «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة» ..

(راجع تفسير ابن كثير فى شرح الآية)

فإذا استلهمنا هذه الروح الإسلامية، ونظرنا حولنا، وجدنا ـ آسفين ـ أكثر من صراع بين دول إسلامية شقيقة. والنماذج قائمة فى المشرق العربى والمغرب العربى .. ماذا علينا لو اتفقنا على تجميد هذه الصراعات خمس سنوات لنفرغ فيها إلى أمور أخرى سأذكرها بعد قليل؟ .. ولا أتحدث هنا عن تنازل أحد عن حقه، ولا عن موقفه، ولا عما يعتقد أنه حق. كل الذى أنادى به أن نجمّد الصراع خمس سنوات مع مطلع القرن الهجرى الجديد، وأن نستعد لهذا من الآن .. ويرتبط بهذا أن يأمن المسلم على نفسه من أخيه المسلم، وأن تأمن الدولة الإسلامية

على نفسها من جارتها المسلمة ،، وأن نوقف الحملات الإعلامية الظاهرة والخفية ، والله وكيل علينا .

هل كثير أن نحيا خمس سنوات سلام .. وديننا اسمه الإسلام ، وتحيتنا فى الدنيا والآخرة سلام ، والسلام من أسماء الله الحسنى ؟! !

هل كثير أن يصدر قرار من المؤتمر الإسلامى بهذا المعنى ، فى أول لقاء له ، أو فى لقاء قريب ، يدعو فيه الدول الإسلامية إلى سنوات السلام الإسلامى الخمس .. كتجربة نحاول فيها أن نصنع لأنفسنا وأقطارنا وديننا شيئًا ؟!

أليس من المؤلم أن نكرر بعد قرون مآسى ملوك الطوائف فى الأندلس والصراع الدامى بين المسلمين ؟ وما أريد أن أحدد قطرًا ، ولكن نستطيع أن نستعرض أقطار الإسلام ومشكلاتها الثنائية أو الإقليمية ونحدد ـ ولو بالتقريب ـ النسبة المئوية لما يبذل من جهد فى الصراع الداخلى بين المسلمين ، وما يتجه مباشرة إلى أعدائهم الحقيقيين .

(٥) محكمة العدل الإسلامية

ويمكن فى ذات الوقت أن نطرح مشروع « محكمة العدل الإسلامية » قريبة فى فكرتها من محكمة العدل الدولية ، نحكم فيها بما جاءنا من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، ونختار لها الصفوة من رجال القانون والشريعة الإسلامية ، ونعرض عليها مشكلاتنا ، التى حاولنا من قبل أن نحلها بالسلاح أحيانًا وبالحرب الإعلامية أحيانًا ..

إن الله سبحانه وتعالى يعلمنا فيقول : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا » (النساء : ٦٥) .

(٦) خطة تنمية إسلامية شاملة

وهذه السنوات الخمس نستطيع أن نفيد منها فى وضع وبدء تنفيذ خطة تنمية إسلامية شاملة . وقد عقد المسلمون أكثر من مؤتمر من أجل هذا الغرض .. أذكر

منها بحوثًا قدمت فى مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية فى كوالا لامبور عام ١٩٧٤ ، ومؤتمر تنمية الموارد البشرية الذى عقد فى الكويت عام ١٩٧٥ ، ومؤتمر التضامن الإسلامى فى مجالات العلوم والتكنولوجيا الذى عقد فى الرياض ـ عاصمة السعودية ـ فى مارس ١٩٧٦ .. ولا تزال البحوث تتوالى ، ولكن المشكلة عندنا هى تحويل هذه الأفكار إلى خطط محددة المراحل والمدى .

إن النمط الحضارى الذى ورثناه من عهود الاستعمار أدّى إلى قوة الصلة بين كل دولة استعمارية سابقة ومجموعة من الدول الإسلامية المستقلة الجديدة ، والتى كانت مرتبطة بها من قبل . ساعدت على هذا عوامل اللغة التى بذلت الدول الأوروبية ـ بخاصة ـ جهودًا كبيرة فى نشرها فى العالم الإسلامى وقت سيطرتها عليه ، كما ساعدت عوامل القرب المكانى أو السلوك اليومى .. ولم تكن الروابط قوية وقتئذ بين الدول الإسلامية ، إلا فيما يتعلق بجوانب من الميراث المشترك استطاعت أن تؤكد وجودها ، رغم العوائق التى كانت فى طريقها والتى اجتهدت الدول الاستعمارية فى دعمها ، صرفًا للعرب والمسلمين عن تعاون قوى فيما بينهم .

ولقد مضت هذه المرحلة بآثارها وأوزارها .

وجاءت مرحلة جديدة علينا أن نتعاون فى صناعتها ، ونرسم فيها ملامح الشخصية الإسلامية الجديدة .

فهى شخصية ليست منطوية على نفسها ، ولا ذائبة فى غيرها . وفى مجال التنمية الذى نحن بسبيله يستطيع هذا الوجود الإسلامى أن يقوم بأمرين فى وقت واحد :

الأول : دعم قوى الترابط والتماسك الداخلى فيما بين أجزاء العالم الإسلامى .

الثانى : الإفادة من منجزات العلم الحديث والتعاون على قدم المساواة مع الدول المتقدمة .. تعاون بلا تبعية ولا استعلاء .

ولا نستطيع أن نحقق ذلك إلا بتكوين الإطارات العلمية القادرة على صناعة هذه الحياة الجديدة .. وينقلنا هذا إلى النقط التالية وهى :

(٧) خطة تكوين الشباب

وأود أن نعنى بالتكوين من زوايا متعددة .. أولها ما نحتاج إليه فعلاً من أجل دعم الكيان العلمى القادر على تحمل مسئولية مشروعات التنمية . ويقتضى هذا منا إعادة النظر فى كثير من مناهج التربية فى عالمنا الإسلامى . فما زال قدر كبير من عنايتها موجهًا إلى دراسات نظرية تعتمد ـ أكثر ما تعتمد ـ على التلقين والحفظ ، دون توجيه كبير إلى تكوين العقلية الناقدة المبتكرة القادرة على متابعة الدراسة . إن آخر ما انتهت إليه سفينة العلم ، أنْ تعلِّم الطالب كيف يتعلَّم . وهو لا يصنع هذا إلا إذا كان محبًّا للمعرفة ، وكنا من ناحيتنا نوفر له مصادرها وسبلها ، وأن يكون هناك تفاعل خصب وبنّاء بين ما يعنى بتكوين نفسه فيه ، وما يحتاج إليه مجتمعه .

وهناك ميزان دقيق لمدى هذه الصلاحية فى تكوين الشباب ، وهى القدرة على العمل فى أكثر من بيئة أو وطن .. وأود أن أذكر مثالاً من حياتنا التقليدية ونحاول تطويره لحياتنا المعاصرة .. لقد مارس العالم الإسلامى فروعًا كثيرة من حرفة الزراعة ، ومارس بعض الحرف اليدوية والتجارة .. وحفظ لنا تاريخنا هجرة هؤلاء ما بين أقطار الوطن الإسلامى ، وكانوا يمارسون فى مواطنهم الجديدة نفس الحرف التى كانوا يمارسونها فى مواطنهم الأصلية ، أو حرفًا قريبة منها أو ترتكز عليها .. ولكن الآن مع التطور الكبير فى إعداد النشء للحياة ، أصبحت قدرة الشاب على ملاءمة نفسه للمتغيرات الجديدة ، محتاجة إلى إعداد جديد للحياة وخبرات من أبرزها السيطرة على أكثر من لغة ، والتعامل مع أجهزة مكتبية هى الآن من بديهيات الحياة كالأجهزة الحاسبة والكاتبة والحافظة للمعلومات والمسترجعة لها .. وأصبحت الحِرَف معتمدةً على قدرات تقنية متقدمة .. وهناك فجوة آخذة فى الاتساع بين ما نوفره لطلابنا فى مدارسهم وما يواجهونه حين يقابلون متطلبات الحياة وسوق العمل المعاصرة .. وأصبح تطور الحياة أوسع بكثير من تطور التعليم ، مما يقضى بسرعة تطوير التعليم .. وإلا حكمنا على أبنائنا بالتخلف وسرى هذا بالتالى إلى الشخصية الإسلامية المستقبلة .

وقد نحاول أن نستر هذا التخلف بأن نوفّر لأبنائنا نوعًا من العمل فى ظل

الأجهزة الحكومية ، وننشئ بهم نوعًا من البطالة المستورة وراء جدران الدواوين .. يجلسون إلى مكاتب ، ويوقعون أوراقًا ، ويمارسون حياة مسطحة ، تحملهم الحياة ولا يحملونها .. ويظن الشباب أنه قد نضج وتفتّح ، وهو يعيش عمليًّا فى بيت من زجاج ، كأنه نبات حساس نوفّر له الحرارة والماء والرطوبة بدرجات محسوبة .. فإذا خرج من دفء المكتب الحكومى إلى عواصف الحياة فَقَدَ ذاته ، وقدرته على الكسب .

هذا الشاب ذو البعد الحكومى الواحد ، له أخلاقيات هى انعكاس لرغبات من يشرف على عمله .. ليست لها ـ فى ذاتها ـ صفات الثبات والاستقرار .. ونحن عمليًّا ـ لا نستطيع أن نفصل بين الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى يحيا فيها الشاب وبين الجوانب الأخلاقية التى يجد نفسه مدفوعًا إليها .. أو مكرهًا على ممارستها .

إن إعداد الشاب للحياة أصبح عملية مستمرة .. والصلة بين الطالب والمدرسة والجامعة والمجتمع أصبحت صلة دائمة .. بل أكاد أقول إن لفظ « خريج » أصبح لا مكان له فى دنيا الواقع العلمى .. فالجامعة رئة العلم .. ولا يحيا إنسان دون رئة .. لقد عدنا ـ وبحق ـ إلى أصالتنا التى تنادينا «كن عالمًا أو متعلمًا ولا تكن الثالث فتهلك » . وإلى « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » . فحياة الإنسان طلب دائم للعلم ، وهو دائمًا يعلم ويتعلّم .. وإذا لم يسجل تقدمًا فهو لا يقف ، وإنما يتخلف .. لأن حركة العلم والحياة دائمة وصاعدة .

(٨) الانحراف بالدين والانحراف عنه

وإذا كنا نعنى بإعداد الشاب للحياة المعاصرة ، فما موقفه من دينه ؟

وهنا مشكلتان أساسيتان تقابلان الشاب :

الأولى : الانحراف بالدين .

والثانية : الانحراف عن الدين .

ولهما مشاهد كثيرة فى العقود الأخيرة من القرن الرابع عشر الهجرى .

وللك أن تمد ناظريك إلى العالم الإسلامى من مشرقه إلى مغربه ، وتستعرض مجالات التصادم بين حركات الشباب باسم الإسلام وبين السلطات الحكومية . ولست هنا أريد أن أدخل فى تيه لا نستطيع الخروج منه .. وهو تقييم كل حركةٍ منها على حدةٍ ، ومعرفة الظالم والمظلوم .. أو ما وقع على كلٍّ من الطرفين من ظلم وما مارسه من عدوان .. فهناك طرف ثالث حاضر دائمًا وهو الإسلام نفسه الذى يتنازعه الحاكم والمحكوم .. بل ويتنازعه المحكومون فيما بينهم .. وتقوم حركات إسلامية تكاد أن تلغى ما قبلها من جهود . وترى نفسها البعث الإسلامى الجديد . وكأن كل حركة منها تبدأ بسفر تكوين جديد لعالم إسلامى جديد .

ولقد شهدت وشهدتم : كم من الدماء أريقت فى هذه السبيل ، ومحاكمات واعتقالات وسجون وتشريد .. وأُخدود من الدم أصبح محفورًا بين حكومات ومحكومين ، وثاراتٍ تختفى حينًا وتبرز حينًا .. وأصبح الحديث عنها والتأليف فيها موجة جديدة من موجات الفكر الإسلامى ، نعمّق بها العداوات ونحاول تحديد المواقف .. وكل طرف مصرٌّ على موقفه ، مدافع عنه .. بل أصبح الدفاع عن الموقف ـ عند البعض ـ دفاعًا عن الذات وعن التاريخ .

وأعود فأسأل :

كم من الجهود بذلت فى هذه الصراعات الداخلية بين أبناء الإسلام وحكوماته ؟

وما أود أن تظل القضية مطروحة بغير حل .. وإنما أحاول أن أتقدم إليها من زاوية أخرى :

فكثيرًا ما يكون الصراع بين الحكومات الإسلامية وأجيال الشباب المتحمس للإسلام حول ما يختلفون فيه .. ولكن هل حاولنا أن نحصر النقاط التى نتفق فيها ونتعاون فى ظلها ؟

إننى أفكر فى ميثاق أو إعلان للشباب الإسلامى تتعاون فيه الحكومات والمنظمات الإسلامية على أن تضع ـ فى وثيقة ـ ما نتفق فيه .. لقد صدرت عن

الأمم المتحدة وثائق عن حقوق الإنسان وعن محاربة التمييز العنصرى .. وبعض هذا أمكن الإفادة منه وتحقيق مكاسب للإنسانية من ورائه ، فلماذا لا نفيد من التجربة ؟

وهناك جوانب كثيرة يمكن أن يتضمنها الإعلان أو الميثاق : ما يتعلق بتعميق الإيمان بالله تعالى . واعتبار العمل عبادة .. الدعوة إلى تأكيد قيمة العمل وربطه بالمجتمع . معنى التعاون ونبذ الخلاف . ترك الخلافات العقائدية لمجال الدراسات المتخصصة ... ولا أذكر هذا إلا على سبيل التمثيل . فإذا أمكن وضع هذا الإعلان ، وهو مستند إلى كتاب الله وسنة رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام ، حاولنا أن نجمع حوله الشباب وهذا يرتبط بما سبق أن حاولناه من إيجاد خمس سنوات سلام بين الحكومات .

وفى ذات الوقت نود أن يلتقى شبابنا حول معانى الجد والعمل ، فلا ينحرفون عن الإسلام ، وَتَصْرِفهم عنه بروق يرونها من حولهم تكاد تخطف أبصارهم .. وأود أن نميز فى الحضارة الحديثة ، أو أى حضارة ندرسها ، بين قيم أصيلة تحيا بها كل حضارة ، من الإتقان والإخلاص والدأب والقدرة على الابتكار ، وبين المواقف الأساسية لهذه الحضارة من قضايا الإنسان الكبرى .

مثال ذلك : لقد كانت للحرية والعدالة والكرامة فى أوروبا مدلولات يطبقونها على أنفسهم ، فإذا عبرت البحر المتوسط أو قناة السويس تحولت إلى استنزاف وإهدار لكرامة البشر وحرب للحريات .. هكذا كانت فترة الاستعمار .. فالذين ذهبوا منا إلى ديارهم ورأوا ما فيها أعجبوا بمظاهر التقدم فيها .. والذين حاربوهم من أجل الاستقلال شاهدوا مظاهر ضراوتهم .. والذين خالطوهم فى الأمرين استطاعوا أن يعرفوا نواحى القوة والضعف فيهم .

وميزة الحضارة الإسلامية أنها ذات وجه أصيل واحد : كرامة الإنسان لكل إنسان . حق الحياة لكل حى . وكما تعلمنا فى الحديث القدسى الذى يرويه المصطفى (ﷺ) عن ربه «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرّمًا بينكم فلا تظالموا» .

والناس جميعًا إخوة فى الخلق كما يقول ربنا جل وعلا «ياأيها الناس اتقوا ربَّكم الذى خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا» (النساء : ١) .

الأخلاق فى الإسلام عالمية ، وليس فيه معياران للتصرف .. الطعام فيه لكل جائع ، ولوكان الأسير الذى حاربك من قبل «ويطعمون الطعام على حُبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا . إنما نُطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورًا» (الإنسان : ٨ ـ ٩) .

فمن أجل هذا الشاب الذى انصرف عن دينه ، علينا أن نعيد عرض الإسلام بما يتفق مع بساطة العرض الذى تعود عليه ، ويسر المأخذ الذى يتناول منه . والهدف الذى نتوخاه من ذلك أن يحتفظ بموقف متزن فى دينه دون انحراف عنه أو انحراف به .

فما يراه الشباب صالحًا فى هذه الحضارات من حوله ، إنما هى قيم عالمية أصيلة تقوم الحياة بها . وتنتسب إلى الفطرة ذاتها . ولا تنتسب إلى وطن أو شعبٍ من الشعوب . ومن يتمسك بها يحقق تقدمًا مهما يكن دينه ووطنه .

ولكن الذى يعنينا فى الحضارة الإسلامية أنها حضارة «ربانية إنسانية شاملة» حضارة تفيد من كل منجزات العلم ، ولا تنغلق عنه ، وتحافظ فى ذات الوقت على هذه الأركان الثلاثة من الربانية والإنسانية والشمول . هذا ما نود توضيحه لشبابنا .

(٩) التنسيق بين خطة التنمية ودور الشباب

وإذا اتضحت ملامح إعلان الشباب الإسلامى أو ميثاق الشباب الإسلامى ، أصبح علينا أن ننسق بينه وبين خطة التنمية الإسلامية .. على المستويات العامة ومستوى الدولة الواحدة .. وذلك لأننا نريد ـ بقدر الإمكان ـ أن نجتذب شبابنا

من دوائر الرفض واللامبالاة والاندفاع ، إلى دوائر العمل المتوازن . وهو لن يقتنع به إلا إذا مارسه .. فلنصبر على أنفسنا وعليه . والأمر ليس يسيرًا . والسنوات الخمس ليست سنوات إعجاز ولكننا نرجو أن تكون سنوات إنجاز ، نضع بها أقدامنا على مطلع طريق جديد من التعاون والتفاهم بين أبناء الإسلام شعوبًا وحكومات ..

والذى أود أن أؤكده : أن التنسيق بين خطة التنمية والشباب ينبع من قناعة عاشت بها أجيال إسلامية .. قناعة دفعت أجيال الإسلام ثمنها غاليًا .

عشنا نعلم أبناءنا «السلطان من لا يعرف السلطان» .. وجعلنا الحكم فى ناحية ، والعلم فى ناحية أخرى ، والدين فى ناحية ثالثة .. وإذا ما قال أحد العلماء كلمة خير فى حاكم ظنوها نفاقًا .. وإذا ما هاجمه كان أقرب إلى قلوب الشعب .. وأصبحت كلمة «الرفض» .. من شعارات العصر . مذاهب الرفض . جبهة الرفض . فلسفة الرفض .

ولكن إذا عدنا إلى صدر الإسلام وجدنا صورة مختلفة : لقد كان الحاكم هو الصورة الحية لما يدعو إليه . الدعوة والقيادة تمثلتا معًا فى شخص المصطفى عليه الصلاة والسلام .. تعارفنا على أن نطلق تعبير «الخلفاء الراشدين» على أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم أجمعين . وتعارفنا على أن نسمى عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد الخامس .. وتعارفنا على أن نرى فى صلاح الدين الأيوبى الحاكم والأمين على دين الله والقائد .. وكان مجلسه مجلس علم وقيادة وعبادة .

فالصورة الأصيلة فى الإسلام هى التلاقى القوى بين الحاكم والمحكوم .. بين دار الحكم وروح المسجد . بين صف الصلاة فى استقامته وطهره وصفوف العمل فى الحياة وصفوف الجهاد دفاعًا عن الدين والوطن والحق .

وحينما يتنقل رجل الدين من مقاعد العلم إلى مقاعد الحكم فكأنه ــ عند كثير من الناس ــ يغير موقفه .. وأحيانًا تتغير منزلته فى نفوسهم .. وأصبحنا نُعلِّم هذا لأبنائنا فى المساجد ، نقدًا لما هو قائم ، دون توضيح لما ينبغى أن يكون ، وما هو

ممكن مما ينبغى أن يكون . وأصبح من الخبر اليومى لكلمات الخطب ، نقد الحكم وأجهزته .

نعم إن الحكام ليسوا ملائكة لا يخطئون .. ولكن النقاد أيضًا ليسوا قضاةً معصومين .. والذى نود أن نقوم به هو بناء جسر بين المسجد ودار الحكم ، وقاعة تضم رجل الحكم ورجل الدين ، وشباب يصافح الحاكم بيد ورجل الدين بذات اليد وذات المودّه .

وحينما نشرك أبناءنا فى صناعة الحياة ، سيقدرون جهدًا مبذولاً وسيكونون قريبين منا ، وقادرين بصفاء نفوسهم على الإحساس بأخطائنا ، وسنفتح لهم القلوب والأبواب لقول النصيحة واستماعها ، وعرض ما عندهم من رأى وما عندنا . سيلتقى جيل الآباء والأبناء دون فجوة بين الأجيال . ويلتقى الحاكم والمحكوم دون فاصل بينهما ، وكذلك يلتقى المسجد بدار الحكم .

هذه مرحلة من العودة إلى الصيغة الأصلية للعلاقات الاجتماعية التى ينضج فيها الشباب على خيرٍ ، ويستطيع أن يتعاون ويساهمْ مساهمة بناءة فى صناعة المستقبل .

(١٠) مكتبة إسلامية جديدة

هذه الخطوط تحتاج إلى دعم فكرى متصل ، كأنه مطر مبارك يروى هده الأرض الجديدة الخصبة .

نظرتنا إلى تاريخنا العام .. ألا نحتاج إلى عَرْضها فى وحدتها الشاملة دون تركيز كبير على مفاهيم القوميات الضيقة التى كادت أن تصبح نوعًا من الفكر القبَلى الجديد .

وعَرْضُ التاريخ نفسه يحتاج إلى إبراز دور المواطن العادى فى صناعة التاريخ والتأكيد على الحياة الاجتماعية ، بحيث يحسّ المواطن العادى أنه فعلاً صانع حضارة .. وأن نهر هذه الحضارة يمتلئ من قطرات بشرية تفيض بها المدن والقرى والبوادي .. وأن هذا النسيج الحضارى ساهمت فيه ملايين الأيدى فى

جهود متواصلة .. القليل منهم وعى التاريخ أسماءهم ، والكثير منهم جنود مجهولون إلا لأقرب الناس إليهم ، وأكثرهم التصاقًا بهم .

وهو حين يعرض التاريخ يعرضه فى مستوى إنسانى ، يخطئ فيه الحاكم ويصيب ، دون مدح له فى حياته ونقد شديد له بعد موته «ياأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون» (المائدة : ٨) وأحيانًا نرى المدح الشديد والذم الشديد يأتيان فى فترات دورية أو غير دورية مع هبوب رياح السياسة وأعاصيرها .

وفى دراسة تاريخه وتاريخ الإنسانية على أساس من نظرة كلية ، علينا أن نتعاون معه فى تحديد مناطق الخطر الكامن فيها ، وما يحتاج إلى دأب وصبر فى معالجته .. ونحن إذا أكدنا هذا الأسلوب فى معالجة قضايا التاريخ أمكن أن نفيد منه فى تكوين عقليته وهو يعالج قضايا الحاضر ويبنى المستقبل .

قضية الأرض السليبة على سبيل المثال .. مسجدنا الأقصى الأسير .. قدسنا الغالى . فلسطين . الجولان . سيناء .. كم بذل أعداؤنا من جهود مستمرة ومتوالية سنوات بعد سنوات فى إقامة مستعمرة بعد أخرى والاستيلاء على حقل بعد الآخر ، والسعى لدى سلطان بعد سلطان . ومن وجهة نظرهم نجحوا أحيانًا . ولكن لا نستطيع أن ننكر صبرهم . نستطيع أن نعترض على أخلاقياتهم ، ولكن لا نستطيع أن ننكر تعاونهم على مستوى عالمى .. ونحن : يغلب علينا أحيانًا الاندفاع العاطفى حبًّا وكرهًا .. فإذا لم نستطع مهاجمة عدونا ، هاجم بعضنا بعضًا .. بعقلية التفاخر القبلية كأننا ـ مع أصحاب المعلقات قبل مجىء الإسلام نقف على حوض ماء نشرب منه صفوًا ويشرب غيرنا كدرًا وطينًا .. لماذا لا ننظم الماء لنا جميعًا صفوا ، وننظم ورودنا كأننا صفوف صلاة أو صفوف جهاد أو صفوف إخاء .. لماذا لا يعود الضمير فى كلمة «ونشرب» .. علينا جميعًا ، دون أن يعود على فريق دون فريق .

نريد التربية على الصبر والعمل والإخاء .. على الأعصاب الهادئة فى الإنجاز

وحسن استغلال الزمن . على الروح المنبثقة من زراعة الزيتون ، يزرعه جيل من أجل جيل .. والجديد يزرع لمن يأتى من بعده .: نريد أن ندعم روح التعاون والتواصل بين الأجيال المتتابعة من أجل هدف كبير .

هكذا نتعامل فيما بيننا . وهكذا نقاوم عدونا ، دون يأس ودون اندفاع غير محسوب . ولا شك فى أن منهجنا فى عرض التاريخ الإسلامى يمكن أن يؤكد هذه المفاهيم الإيجابية .

وكذلك النظرة إلى أرض الإسلام فى شمولها :

نستطيع أن نعرضها كأوطان صغيرة لكل منها ذاتيتها ، وما نريد أن ننفى بعض هذا . ولكن إلى جانب الذاتية المحدودة ، علينا أن نقوى النظرة الكلية إلى أرض الإسلام : فى توسطها وفى إمكانيات تعاونها ، بل فى وجوب تعاونها ، وفى ارتباط مستقبلها بالتعاون .

أليس من التناقض أن ندرس الواقع الأمريكى - على سبيل المثال - دون أن يحس الطالب أن الجبال الصخرية بامتدادها الجبار ، تميز بين الأجزاء الوسطى والشرقية من الولايات المتحدة ، وبين الأجزاء الغربية ؟ بينما إذا ما فكر فى العالم الإسلامى تركزت فى ذهنه مفاهيم : المشرق الإسلامى والمغرب الإسلامى . والقطاع الأفريقى والقطاع الأسيوى والشرق الأدنى والأوسط والأقصى ، ثم مفاهيم الدول الغنية والدول الفقيرة ، ودول المواجهة ودول المساندة إلى آخر قائمة من التسميات إذا كان لبعضها ما يبررها ، ولو جزئيًّا ، إلا أن الإلحاح عليها يغذى الإحساس بعوامل الفرقة والتباين ؟

قل مثل هذا عن المجتمع الإسلامى العام ، وحاجتنا إلى تأكيد نواحى التشابه فيه ، والإحساس بمشكلاته القائمة والمستقبلة بما يؤكد وحدة مصيره ، أو على الأقل ، مسيرته إلى آفاق مستقبله .

ولا نودّ أن نلوى أعناق حقائق التاريخ ، أو المجتمع ، ولكن مهما قلت عن الدراسة ، فإنها تقوم فى جزء كبير منها على الاختيار . والاختيار مرتبط بهدف نتوخاه من الدراسة .

ومن حكمة الله تعالى فى قصص القرآن أنه لا يشمل جميع الرسل ، وإنما بعضًا منهم . والله تعالى يقول :

« ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » (غافر : ٧٨) .

ويقول ربنا « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثًا يُفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدًى ورحمة لقوم يؤمنون » (يوسف : ١١١) .

ولقد وقفت عند هذه النقطة لأؤكد قاعدة قرآنية .. فنحن نختار الحقيقة من بين مجموعة من الحقائق ، ونضعها فى إطارها السليم المؤدى إلى هدف نبيل ، ولا نجعل شبابنا يضل فى تيه الحقائق الصغيرة ـ والمتناثرة أحيانًا ـ والتى لا يستطيع أن يكوّن منها نظرات كلية .

نودّ أن نوفر لشبابنا عن طريق هذه المكتبة موقعًا على خريطة الحياة ، يدرك فيه ـ بكثير من الوضوح ـ علاقاته التاريخية والمكانية والاجتماعية ، ولا يكون أمره فرطًا . إن السماء فيها نجمها القطبى . والأرض لها جهاتها الأصلية . والمسجد له قبلته ومحرابه ، والطريق له امتداده واتجاهه ، والنهر له مجراه ، فما اتجاه الشباب وما طريقه ؟ نعم . علينا أن نعينه على أن يعرف : أين الطريق ؟

وقبل أن أدع هذه النقطة أودّ أن أؤكد تكامل هذه المكتبة بحيث تضم الجوانب الأصلية من ثقافتنا ، والمعارف الحديثة من حولنا ، وأن تكون متدرجة المراحل تشمل مكتبات الأطفال الإسلامية والشباب والمثقفين صعودًا إلى دائرة معارف إسلامية يكتبها أبناء الإسلام بحيث تصبح المكتبة جزءًا أساسيًّا من تكوين البيت ، والكتاب جزءًا أساسيًّا من حياة المواطن اليومية ، والاستزادة من المعرفة عادة نامية ، والثقافة فى مستوياتها المتصاعدة قريبة المنال . وأن تتعاون فى هذا وسائط المعرفة والإعلام المتنوعة : المقروءة والمسموعة والمرئية .

(١١) شخصية المدينة الإسلامية

حاولت فى الفقرات السابقة أن أرسم الملامح الرئيسية التى نستطيع أن نتعاون على رسمها للقرن الهجرى الجديد وللشباب فيه .. ذلك لأن الحديث عن : الشخصية الإسلامية المستقبلة .. يشمل ـ فى تصورى ـ الشاب فى إطار ظروفه المكانية والزمانية .

أما الظروف الزمانية فهى استقبال القرن الهجرى الجديد بسنوات سلام ، وأما الظروف المكانية فتحدثنا عن الإطار الإسلامى العالمى والأمل فى مشروع تنمية شامل فيه ، مع بيان جانب من دور الشباب ومسئولياته .. وأودّ أن أضيف إلى هذا الإطار الشامل إطارًا محليًّا نعيش فيه كأفراد وأسر وشعوب .. وهو صورة المدينة الإسلامية . والقضية هندسية وحضارية فى ذات الوقت .. فالمدينة هى التجسيد المادى لحضارتنا الإسلامية .

أنت تنظر إلى المسجد فتحس أنه مسجد ، وترى التحفة من الفن الإسلامى مصنوعة فى وسط آسيا ، أو فى المغرب الإسلامى فتحس أنها تحفة إسلامية ولقد كانت للمدينة الإسلامية مميزاتها وخصائصها التى عاشت بها ، وعبّرت بها عن شخصيتها . هنا فى تونس كما فى أكثر من قطر ومدينة إسلامية ، كانت المساكن لها شخصيتها بحديقتها الصغيرة الداخلية التى تشرف عليها حجراتها . بهذه القطعة من السماء المفتوحة . بأشجارها التى تتحدى الجاذبية الأرضية صاعدة فى اتجاه السماء ، متوازية مع الدعوات الصالحة . بجذورها الضاربة فى الأرض متفرعة كأنها أصابع السجود .. بزخارفها الهندسية الدالة على التماسك والجمال والتوازن . بشوارعها الظليلة التى يأمن فيها السائر على نفسه .. والتى يعرف فيها الجار جاره . والحى فيها أسرة كبيرة .

وحين أتأمل هذا النمط من الحياة ، أتصور أبواب الحجرات المفتوحة على حديقة البيت بشجراتها الخضر .. كأنها صدور مفتوحة تتعاهد كل صباح على المودّة تحت شجرة فيها قبس من شجرة الرضوان . وتطل عليها من قريب أو بعيد مئذنة ترسل كل يوم خمس مرات إشعاعات النور والهدى مع صوت المؤذن .

ولقد زحفت التطورات الحديثة على هذا كله ، وقضت على أسلوب الحياة التقليدية ، وجاءت المدينة الحديثة وأصبح سكانها متجاورين لا متعارفين . وكاد أن يختفى نمط العمارة الإسلامية بكل ما فيه من قيم وتناسب بين حجم الإنسان وحجم المسكن وحجم المدينة .

صنع الإنسان المدينة الحديثة وأصبح فيها ضائعًا . زاد فيها إحساسه بالغربة . وارتفعت مع الحضارة الحديثة نسبة الانتحار فى المدن والتفكك الأسرى والانحرافات .

فهل نستطيع أن نفكر فى صيغة جديدة ؟ .. صيغة تبرز فيها شخصية الأحياء فى المدن الكبيرة ، بحيث يكون للحى مجلس ومنتدى ودار يلتقى فيها سكانه فى المناسبات . ؟ وهل يمكن أن نتخذ فى بناء المسجد فكرة تعدد الوظائف ؟ لقد كانت لهذه التجربة ثمارها الطيبة عند تطبيقها . وأصبح المسجد ــ فى بعض المدن ــ مركز إشعاع للحى : فيه قاعة محاضرات ومكتبة ، ومشغل للحرف اليدوية ، وقاعات للأطفال ، ومركز للخدمة الطبية .. وليس هناك تصميم ثابت لذلك . وإنما يستطيع أهل الحى أن يبتكروا لأنفسهم ما يصلح به أمرهم ، ويستعيدون ــ ولو جزئيًّا ــ روح الأسرة .

نوّد أن يحتفظ المواطن فى المدينة بأكبر قدر من الروابط الاجتماعية وأن تكون لنا فى القرن الخامس عشر الهجرى موجة معمارية تجمع بين الاستفادة من مبتكرات العلم الحديث فى سرعة إنجاز المبانى وما تستقر به حياة الإنسان ــ بقدر الإمكان ــ فى المدينة الحديثة .

(١٢) خاتمة

عند هذه المرحلة أودّ أن أقف .. وفى النفس أمل دعوت الله أن يتحقق .

أمل فى أن هذه الأفكار عند عرضها تجد من يقول فلنجعلها « عقد تنمية إسلاميا » .

إن الأمم المتحدة اتخذت لها عقد تنمية أولاً وثانيًا .. نظرت فيه إلى العالم نظرة شاملة ، ومن الممكن أن يكون لنا عقدنا الإسلامى الذى يكوِّن ـ لو أردنا ـ جهودًا متكاملة مع العقد العالمى .

عقد يأتى مع استقبال القرن الخامس عشر الهجرى نرسم فيه ملامح « الشخصية الإسلامية المستقبلة » . ونتخذ منه نقطة انطلاق لغدنا فى مجالات ذكرت بعضها فى حديثى إليكم : فكرة سنوات السلام . التنمية . الشباب . محكمة العدل الإسلامية . المكتبة الإسلامية . المدينة الإسلامية .

والكلمة الأولى موجهة إلى حكوماتنا والمؤتمر الإسلامى . وكلمة إلى شعوبنا أن تعاون بالرأى والجهد فى تقبل هذه الأفكار وإثرائها بالحوار المؤدى لعمل . وإلى منظمات شبابنا لتقول كلماتها فيما تريد من القرن الهجرى الجديد مما تود أن تساهم به .

وفى ذكرى مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام .. ومن القيروان ، قاعدة الجهاد والإيمان ، نتوجه إلى الله بالدعاء أن يهدينا سواء السبيل ، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأن يمنحنا القدرة على ترجمة أقوالنا إلى أعمال ..

الفصل العاشر

الإســـلام من مصـــادره

بحث تم إعداده بناء على دعوة من هيئة اليونسكو. ونشرته فى عدد من مجلتها «ثقافات»: المجلد الرابع، العدد الأول يناير ١٩٧٧م باريس.

وكان موضوعه: «ثوابت القيم الإسلامية». وتصدر المجلة باللغات الأساسية للمنظمة ويعتبر هذا النص العربى أساسًا لما نشرته له من ترجمات.

الإسـلام من مصـادره

أسباب هذا البحث وأهدافه :

فى عام ١٩٧٥ نشرت هيئة اليونسكو الجزء الثالث من كتابها الكبير «تاريخ البشرية» فى طبعته الإنجليزية ، وأثار الكتاب اعتراضاتٍ وردود فعل واسعةٍ فى العالم العربى والإسلامى ، ويرجع ذلك إلى أمرين :

١ ـ مالليونسكو من مكانةٍ عالميةٍ عاليةٍ جاءت من جهود مستمرة ، ومواقف رائدة فى قضايا التربية والعلوم والثقافة والقيم الإنسانية .

٢ ـ ما ورد عن الإسلام فى الكتاب ، ولم يرض عنه المسلمون على مستوى الحكومات والدوائر العلمية والشعبية .

ذلك لأن الهدف الكبير من الكتاب ، هو الهدف الكبير من اليونسكو ذاته ، والذى أستطيع أن أتصوّره فى أربع خطوات :

مزيد من المعرفة
مزيد من التفاهم
مزيد من التعايش
مزيد من السلام .

وفى أمور الدين ، لعل من الأفضل ، أن نتبع العَرْضَ الموضوعى ، دون أن ندخل فى تقييم للعقائد والعبادات والمعاملات .. لسبب جوهرى ، هو أننا إذا خرجنا عن دائرة العرض الموضوعى ، فما المنهج البديل الذى نتخذه ؟ هل الآراء الفردية ؟ وهل يُقبل حُكم أهل دينٍ ، على دينٍ آخر لا يُؤمنون به ، فى كتاب نستهدف فيه المزيد من التفاهم ؟ بل إن الكاتب حين يكتب عن دين يعتنقه ، فخير له أن يجعل النصوص أمامه ، لا أن يجعل آراءه مقدمة على النصوص .

وهذا الأساس الموضوعى هو الذى اتبعه اليونسكو عند دراسته لمشكلة «التفرقة

العنصرية والفكر الحديث» وأصدر فيها سلسلته ، واتجهت الكتابات فيها ـ عن الأديان ـ إلى هدفٍ كبير واحد : هو الإخاء الإنسانى .

فإذا كان المنهج الموضوعى مقبولاً ، كان علينا أن نعيد النظر فى بعض ما جاء عن الإسلام والعروبة فى كتاب «تاريخ البشرية» ، وهو ما أخذ به اليونسكو ، حين قرر إلقاء مزيدٍ من الضوء عليه ، وفتح باب الكتابة فيه ، وأفسح فى مجلة «ثقافات» مجالاً لإضافة تعقيباتٍ على فصول الكتاب وإجراء تصويبات فيه ، كان من بينها هذا البحث ، الذى أرجو أن يكون خطوة على سبيل المزيد من التفاهم .

وما أظن أننى فى حدود المساحة المتاحة أستطيع تتبع جميع ما جاء فى الكتاب ، ومن أجل ذلك سأقصره على :

أولاً : الأهداف العامة للإسلام
ثانيًا : علاقة الإسلام بالديانات السابقة
ثالثًا : عرض قواعد الإسلام
رابعًا : عن القرآن
خامسًا : عن الرسول وأصحابه
سادسًا : عن المرأة فى الإسلام
سابعًا : خاتمـــة .

أولاً : الأهداف العامة للإسلام

(١) الإيمان بالله :

الأساس الذى يقوم عليه الإسلام هو الإيمان بالله الواحد الأحد ، خالق الكون والناس . وإليهم أرسل رسلاً من أنفسهم ، ينيرون لهم طريق الحياة ، ويوجهونهم إلى العمل الصالح ، ثم معادهم جميعًا إلى الله ، ليحاسبهم على ما قدّموا فى هذه الدنيا . إن أول ما يقرأ المسلم فى القرآن ، «بسم الله الرحمن الرحيم» (١ : ١) فأول صفة لله فى كتابه هى «الرحمة» وهذه الآية هى أكثر ما يردد المسلم فى حياته : يقولها عندما يبدأ أى عمل ، والله يقول عن ذاته المقدسة فى

كتابه «ورحمتى وسعت كلَّ شىء» (٧ : ١٥٦) والرحمة صفة من صفات الرسول فى القرآن فهو «بالمؤمنين رءوف رحيم» (٩ : ١٢٨) والمؤمنون «رحماء بينهم» (٤٨ : ٢٩) ، ويجعل الله التواصى بالرحمة وممارستها من صفات المؤمنين ، فيقول عنهم «وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة» (٩٠ : ١٧)

(٢) التصديق بجميع الأنبياء :

والمسلم مطالب بتصديق جميع الأنبياء ، ولا يكمل إيمانه إلا بذلك ، لأن الأنبياء عليهم جميعًا من الله الصلاة والسلام ، يحملون رسالة جوهرها واحد : هو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح فى هذه الحياة ، والقرآن يسمى الأنبياء جميعًا مسلمين ، وعن إبراهيم يقول : «إذ قال له ربُّه : أَسْلِم : قال : أَسْلَمتُ لربِّ العالمين» (٢ : ١٣١)

وعندما يسأل عيسى الحواريين عن إيمانهم بالله يقولون : «آمنَّا بالله واشهد بأنَّا مسلمون» (٣ : ٥٢) . وبهذا ـ فى المفهوم القرآنى ـ نجد الإيمان بالله والإسلام له ، خطًّا نورانيًّا ممتدًّا من آدم إلى محمدٍ . ويضرب الرسول مثلاً لتعاون الأنبياء جميعا من أجل خير الناس فيقول :

« مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى بنيانًا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنةٍ من زاويةٍ من زواياه ، فجعل الناسُ يطوفون به ، ويعجبون له ويقولون : هلا وُضِعَت هذه اللّبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين» (رواه مسلم) .

(٣) الناس جميعا إخوة :

وينص القرآن على أن الناس جميعًا أسرة كبيرة لأب واحد وأم واحدة ويخاطبهم قائلا : «يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا» (٤ : ١) والخطاب فى الآية شامل للناس جميعًا ، وكأنهم فروع شجرةٍ أصلها واحد ، وعلينا أن نرعى حقوق وواجبات هذه

الصلات . وبهذا ينقلنا القرآن من وحدة الإيمان بالله ، إلى وحدة الإيمان بجميع الأنبياء ، إلى وحدة الإيمان بالإخاء الإنسانى الشامل .

ولقد خاطب النبى الناس جميعًا فى حجة الوداع قائلا :

«أيها الناس إنّ ربّكم واحدٌ . وإن أباكم واحدٌ ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى» (الهيثمىّ) .

وكان من دعائه فى صلاته آخر الليل «اللهم إنى أشهد أنك أنت الله لا إلٰه إلا أنت ، وأن العباد كلهم إخوة» (أبو داود) .

(٤) الدعوة إلى البر بغير المسلمين :

ويقول الله عن غير المسلمين «لا ينهاكم الله عن الذين لم يُقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين» (٦٠ : ٨) .

(٥) الدعوة إلى العمل والإنتاج ، للرجال والنساء :

ويؤكد مكانة العمل والإنتاج ويدعو إلى الإيجابية فى الحياة فيقول الله تعالى : «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» (٩ : ١٠٥) ويجعل العمل مناط الجزاء فى الدنيا والآخرة للرجال والنساء فيقول : «فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى بعضكم من بعض» (٣ : ١٩٥) .

(٦) الدعوة إلى مزيد من العلم :

فكانت أول وصيةٍ نزل بها القرآن فى أول آياته نزولاً «اقرأ» (٩٦ : ١) .

وأول ما أقسم به الله هو القلم والكتابة فى قوله «والقلم وما يسطرون» (٦٨ - ١) تكريمًا للعلم والقلم ، وهو أهم أدواته . ولا تزال الكتابة هى أهم الوسائل فى التواصل بين الأجيال على امتداد الأرض والتاريخ . وعلَّم الله رسوله أن يدعو فيقول «ربِّ زدنى علمًا» (٢٠ : ١١٤) .

ويقول (القرطبى) ، تعقيبًا على ذلك : «لو كان هناك شىء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه كما أمره أن يستزيد من العلم» . ومن أجل ذلك يضع الرسول ﷺ مِدَاد العلماء فى مرتبة واحدة مع دم الشهداء ، (ابن عبد البرّ) ، ويجعل العلم أساسًا من أسس الإيمان بالله والتقدم بالحياة فيقول «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» (٣٩ : ٩) ويقول «إنما يخشى اللهَ من عبادهِ العلماءُ» (٣٥ : ٢٨)

(٧) الإسلام كلمة الله إلى الناس جميعًا

ولم يكن الإسلام مقتصرًا على شعبٍ دون شعبٍ . وإنما هو دعوة الله إلى الناس جميعًا . يقول الله تعالى مخاطبًا رسوله «قل يا أيها الناسُ إنىٍّ رسول الله إليكم جميعًا الذى له ملك السموات والأرض لا إلٰه إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبىّ الأمىّ الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون» (٧ : ١٥٨) ويقول عن رسوله «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» (٢١ : ١٠٧)

إن الإسلام دعوة عالمية تؤمن بالله وبجميع الأنبياء والمرسلين وتدعو الناس جميعًا إلى هذا الهدى الشامل .

بعد هذا العرض الذى أتصور أن يكون مدخلاً لدراسة الإسلام معتمدًا على نصوصه من القرآن والحديث أنتقل إلى دراسةٍ نقديةٍ وإضافات .

ثانيًا ــ علاقة القرآن بالديانات السابقة .

يذكر كتاب «تاريخ البشرية» (مجلد ٣ ص ٥٤٠ ــ ٥٤١) «إنه من الواضح أن الدين الذى أُوحِيَ إلى محمد كان توفيقًا بين العقائد اليهودية والمسيحية مضافًا إليه تقاليد قومية عربيةٍ وثنيةٍ ، وبالتحديد : اشتمل الوحى الذى جاء لمحمد عقائد من اليهودية والمسيحية وأبقى بعض الطقوس العربية التى كانت أكثر رسوخًا من العقائد» .

ونقف عند هذه العبارة متسائلين : هل يبدأ البحث العلمى بإعطاء آراء شخصيةٍ عن مصدر الدين مستخدمًا كلمتى «من الواضح» و «بالتحديد» . واضح

لمن ؟ ومن الذى يحكم «بالتحديد» فى مفهوم النص القرآنى ؟

ولنعد إلى القرآن الكريم لنرى فيه الإجابة الإسلامية :

١ ـ الإسلام فى مفهومه الشامل :

إن القرآن ـ كما سبق القول ـ لا ينعزل عن الوحى السابق ، وهو يشير إلى الأنبياء وما أنزل الله عليهم من الكتب بكل التوقير. ويقول بعد أن يدعونا إلى العمل الصالح . ويحذرنا من أن تَصْرِفَنا متعُ الحياة عنه وعن تَذَكُّر الآخرة «إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى» (٨٧ : ١٨ – ١٩)

ويتحدث عن الإسلام باعتباره «ملّة أبيكم إبراهيم ، هو سمّاكم المسلمين من قبل» (٢٢ : ٧٨) .

ويذكر فضل الله على داود بقوله : «وآتينا داود زبورًا» . (٤ : ١٦٣) .

ويذكر وعد الله بنصر المؤمنين فى جهادهم من أجل الله والحق . «وعدًا عليه حقًّا فى التوارة والإنجيل والقرآن» (٩ : ١١١)

لامجال للقول بأن الإسلام توفيق بين اليهودية والمسيحية والوثنية وإنما هو يَعْتبر ـ بنصوصه ـ أن دعوة موسى وعيسى وإبراهيم من قبل جاءت كلها من مصدر إلٰهى واحد . ويؤكد الأصول الثلاثة الرئيسية فى الدين وهى : الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، ويجمعها فى قوله تعالى «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلهم أجرهم عند ربِّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (٢ : ٦٢)

٢ ـ وهو يدعو إلى التوحيد الخالص :

وإذا كان الإسلام قد أقرّ هذه المبادئ الأساسية باعتبارها من مصدر إلٰهى . فإن هذا الإقرار لم يشمل كل ماجاء فيما بين أيدى أهل الكتاب الآن ، وبخاصة ما لايتفق مع الواحدانية الخالصة وأسماء الله الحسنى ـ إن أساس الإسلام قول «لا إله إلا الله» . على هذا ينصُّ القرآن فى قوله «شهد الله أنه لا إلٰه إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائمًا بالقسط ، لا إلٰه إلا هو العزيز الحكيم إنَّ الدين عند الله

الإسلام» (٣ : ١٨ – ١٩) . وهذا هو الميزان الأعلى والأول الذى يحدد مواقع النصوص الدينية . والإسلام هنا بمفهومه الواسع الذى يشمل الأديان الإلـٰهية جميعًا ، ويدعو الناس جميعًا إلى الإيمان .

٣ – وهو يوقِّر الأنبياء :

كذلك نجد القرآن يوقِّر الأنبياء ولا نجد فيه على سبيل المثال مثل ما نقرأ فى التوراة عن موقف يعقوب من أخيه وأبيه وصراعه مع خالقه (تكوين ٢٥ : ٢٩ – ٣٤ ، تكوين ٢٧ : ١ – ٤٠ ، تكوين ٣٣ : ٢٢ – ٢٩) ، أو ما جاء عن لوط وابنتيه وكيف أنجبا منه (تكوين ١٩ : ٣٠ – ٣٨) أو ما جاء عن داود وأوريا الحِثِّى وزوجته (٢صموئيل ١١ : ٥ – ١٨) وفى القرآن الكريم يقول الله عن موسى «ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا» (٣٣ : ٦٩) . إن قاموس الكتاب المقدس يصف هذا بقوله «إن داود ارتكب فى بعض الأحيان خطايا يندى لها الجبين خجلا» . ثم يحاول التخفيف فيقول «إلا أننا إذا نظرنا إلى نسبة النضوج الروحى الضئيلة التى كانت سائدةً فى ذلك العصر وحالة الظلام التى كانت تعم العالم قبل انبلاج النور ، ثم نظرنا إلى عمق توبته ، لرأينا فى هذا شيئًا مما يخفف ذنبه إلى حدٍّ ما» .

ويقول عن لوط «وتحت تأثير المسكر ارتكب لوط خطيئة الزنى مع من حُرِّم عليه الزواج منهما» . إن كاتب الشرح استحى أن يذكر النص وهو أن الخطيئة مع ابنتيه . هذا الحياء من الإيمان . وأقرب منه استحياء النبىِّ من فعل الخطيئة ، وهو ما يذهب إليه القرآن فى توقير الأنبياء وتنزيههم عن هذا . فمنهج القرآن مختلف اختلافًا جوهريًّا ، فى هذا ، عما نقرأ فى التوراة . والأساس الأخلاقى فى الإنجيل أقرب إلى القرآن منه إلى العهد القديم . وفى هذا يقول الله عن أتباع عيسى «وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة» . (٥٧ : ٢٧) ويدعونا ربنا كما يدعو رسولنا إلى اتباع هدى الأنبياء السابقين فيقول : «أولئك الذين هدى اللهُ فبهداهم اقْتَدِه» (٦ : ٩٠)

٤ ـ مجموعة أنبياء القرآن : مقارنة جغرافية مع التوراة والإنجيل

وإذا رجعنا إلى التوراة والإنجيل لم نجد فيهما أى خبر عن أنبياء العرب يقول الله تعالى «وإلى عاد أخاهم هودًا» (٧ : ٦٥) وكانوا فى اليمن «وإلى ثمود أخاهم صالحًا» (٧ : ٧٣) وكانوا شمال الحجاز. ومن حكماء العرب لقمان «وإذ قال لقمان لابنه وهو يَعِظُه : يا بنىّ لاتُشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم. ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهنٍ وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك ، إلىَّ المصير» (٣١ : ١٣ ـ ١٤) كما أن ما جاء عن إسماعيل فى التوارة محدود ، ولا يتعادل فى المساحة مع ما جاء فى القرآن. والقسم العربى من قصة إبراهيم فى القرآن أكثر تفصيلاً من التوراة. ولإبراهيم وأهله ، استمرار فى الحياة الإسلامية فالمسلمون يدعون له كل صلاة قبل ختامها قائلين «اللهم صلّى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ..».

وإذا مانظرنا ـ جغرافيًّا ـ إلى القصص القرآنى وجدنا مركزه البيت الحرام فى مكة ويرتبط به جانب من قصة إبراهيم. وإلى جنوبها يمتد محور إلى اليمن حيث قصة عاد وقومه فى الأحقاف وحضارة سبأ. وإلى الشمال من مكة ديار النبى صالح ولقمان وشعيب ، ثم إلى الأرض المقدسة. ويتفرع من هذا المحور الشمالى جناحان . سرقًا إلى العراق حيث موطن إبراهيم الأول ، وغربًا إلى مصر حيث جوانب من قصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى. هذا النمط من التوزيع يختلف عن نمط التوراة والإنجيل : حيث المركز بيت المقدس ، والدائرة الأولى بلاد الشام ، ثم جناح شرقى إلى العراق (بابل) وغربى إلى مصر ، وعناية محدودة بالجزء الشمالى من الجزيرة العربية .. دون عناية واضحةٍ بما وراء ذلك ، إلا خطوط اتصال محدودة كالتى مع اليمن.

وصفوة القول أن المجمعتين الإسلامية ، واليهودية المسيحية ، تلتقيان فى أجزاء ، وتختلفان فى أجزاء : أبرزها مركز الثقل فى القصص ، وإسقاط أنبياء العرب ، هؤلاء «الأميين» الذين قال الله عنهم «هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى

ضلالٍ مبين » (٦٢ : ٢) . والذين بنى إبراهيم عندهم أول بيت لله ، ومن جواره بعث آخر الأنبياء . أضف إلى ذلك أن القرآن ينص على أن الأنبياء الذين جاء ذكرهم فيه ، هم « بعض » الأنبياء . وأن الله أرسل إلى كل أمة نذيرًا وفى هذا نقرأ قول الله تعالى :

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبورا ، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلّم الله موسى تكليمًا .. » (٤ : ١٦٣ – ١٦٤)

وقوله تعالى « إنا أرسلناك بالحق بشيرًا ونذيرا ، وإن من أُمةٍ إلا خلا فيها نذير » (٣٥ : ٢٤) .

٥ ـ وليس فى القرآن شعب مختار :

لقد أخذ الله على اليهود والنصارى قولهم « نحن أبناء الله وأحباؤه » (٥ : ١٨) . وسوّى بينهم وبين الناس جميعًا فى قوله بعد ذلك « قل فَلِم يعذّبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممَّن خلق » (٥ : ١٨) وعندما قال عن الأمة الإسلامية « كنتم خير أمة أخرجت للناس » (٣ : ١١٠) قال ذلك وربطه بأمور يستطيع أى إنسان أن يقوم بها لينطبق عليه القول : « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٣ : ١١٠) فليس هناك تفضيل بسبب اللون أو الوضع الاجتماعى أو الاقتصادى أو الموطن الجغرافى أو الوراثة ، وإنما التفاضل بالإيمان بالله والعمل الصالح الذى يشيع به الخير ، وخاطب الناس جميعًا قائلا : « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساءً ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا » (٤ : ١) .

٦ ـ المسئولية الفردية : قصة آدم

وللإسلام منهجه الخاص فى قصة آدم ، الذى يختلف عن منهج التوراة .. وقد درست هذا الموضوع بشىءٍ من التفصيل فى كتاب « الإسلام والتفرقة العنصرية »

(كامل : اليونسكو) . فالقرآن يُبيِّن أن إغواء الشيطان كان لآدم وزوجه معًا . وأن مسئوليتهما مشتركة ، وأن آدم له تجربتان : الأولى أن الله علّمه الأسماء كلها فتعلمها ، وأمره أن يقول ذلك للملائكة فقال . فالتجربة الأولى ناجحة . وبعبارة أخرى : أول تجارب آدم نجاح وصواب والثانية هى تجربة الشجرة . وكان خطأ آدم وزوجه من ناحية الطموح «ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين» (٧ : ٢٠) الرغبة فى الخلود أو الملائكية الدائمة فى جوار الله . وجاء الصراع بين صريح الأمر الإلٰهى والاجتهاد الشخصى . وبعد هذه المعصية ينص القرآن صراحةً على أن الله غفر له ذلك ، واختاره ليكون خليفته فى أرضه ، وزوده بالتوجيه والهداية : «وعصى آدم ربَّه فغوى ، ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى» (٢٠ : ١٢١ – ١٢٢) وقوله تعالى «فتلقى آدم من ربّه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم» (٢ : ٣٧) .

وأنا وأنت وكل مخلوق على هذه الأرض – كما يقول القرآن – يبدأ حياته بكتاب أبيض لا خطأ فيه ، ولا يحمل ذنب أب أول أو خطيئة أولى «وكلَّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه . ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا . من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً» (١٧ : ١٣ – ١٥) وعند هذه النقطة من البحث أودّ أن أقف قليلاً . .

فيمكن أن أتابع الدراسة المقارنة بين ما جاء به الإسلام وما كان عند العرب فى جاهليتهم وأشار إليه الكتاب ، أو أن أتابع الفروق بين ما جاء فى القرآن والعهدين القديم والجديد ، ولكنى آثرت أن أقف بالدراسة هنا عند هذا المدَى من المقارنة الشاملة ، لأنتقل إلى دراسة قواعد الإسلام . وعند دراسة الحجِّ سأردّ على الشبهات التى وردت عن الحجر الأسود ومناسك الجاهلية ، ثم عند دراسة القرآن ، سأعرض بقية المقارنة ، وبخاصةٍ ما يتعلق بالأحكام والقصص ومشاهد القيامة .

ثالثًا – فى قواعد الإسلام

وكنت أودّ أن يضع الكاتب قواعد الإسلام فى ترتيبها المتعارف عليه بين المسلمين وهو الذى تراعيه كتب الفقه :

(١) الإيمان أو التوحيد .

(٢) الصلاة .

(٣) الزكاة .

(٤) الصوم .

(٥) الحج .

فهو يتحدث (ص ٥٤١ – ٥٤٢) عن الصلاة وينتقل منها مباشرة إلى الصوم فى سطرين ثم الحج ، وبعدها يدرس نظام الأسرة ، وينتقل إلى الاعتدال فى الحياة ودور المرأة فى المجتمع وإنه **دون** دور الرجل ويصف الصوم بأنه **شاق** وينتقل بعد هذا إلى عتق الرقيق وهذا الجزء متداخل ، ولم أستطع أن أتبين فيه قاعدة تدعو إلى الترتيب الذى اختاره .

وحبذا لو عرض فى المساحة المتاحة له أهداف الإسلام مستندًا إلى القرآن والسنة ، ثم عرض هذين المصدرين الأساسيين فى الإسلام ، ثم درس قواعد الإسلام فينتقل من «العام» إلى «أصوله» إلى «القواعد» .

ولنعد إلى ما كتبه عن قواعد الإسلام مع التعقيب عليه :

لقد وصف الكتاب الإسلام «بأن أنشطته محكومة بقوانينٍ صارمةٍ وعلى ذلك وبتحديدٍ شديدٍ لم يكن هناك أى فعل يعتبر قليل الأهمية ، وللإسلام حكمه فى كل مشكلة من المسائل الأخلاقية العميقة إلى أبسط الأمور فى السلوك» (ص : ٥٤١) ولست أدرى من أين جاء الكاتب بكل هذه «الصرامة» ؟ .

ولنعد إلى القرآن لنقرأ فيه «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» (٢ : ١٨٥) قالها عن الصوم . ويقول «وما جعل عليكم فى الدين من حرج» (٢٢ : ٧٨) ويقول «يريد الله أن يخفف عنكم» (٤ : ٢٨) فالأساس فى الإسلام رفع

الحرج ولنأخذ نماذج على ذلك : فإذا كانت الصلاة تشق على الإنسان قائمًا ، فله أن يصليها جالسًا ، وإذا كان مريضًا لا يستطيع الجلوس ، فله أن يصليها مستلقيًا . ولقد كان الرسول يسمع بكاء الطفل فَيَتَجَوَّز فى صلاته رحمة به ، ولكيلا يطول غياب أمه عنه . وإذا كان الإنسان فقيرًا كان له من الزكاة نصيب ، مسلمًا كان أو غير مسلم . وإذا كان المسلم ضعيفًا ومتقدمًا فى السن فله أن يفطر فى رمضان وله أن يقضى صيامه بعد هذا أو يطعم فقيرًا . وإذا لم يستطع هذا ولا ذاك فيكفيه الدعاء والاستغفار . فمن أين يأتى وصف الصوم بأنه عبادة «شاقة» ؟ ولننتقل بعد هذا إلى عرض موجز لقواعد الإسلام .

١ ـ الإيمان بالله ورسوله :

وقد عرضنا لذلك وآثاره فى صدر هذه الدراسة والشهادتان هما أول قواعد الإسلام الخمس .

٢ ـ الصلاة :

وهى كما جاء فى الحديث الشريف «عماد الدين» يؤديها المسلم فى اليوم والليلة خمس مرات . ومن الأفضل أن تكون فى جماعة ، وتجمع المسلمين يوم الجمعة صلاة وخطبة ، ولهم لقاء أوسع فى العيدين . ولقاء عالمى فى موسم الحج . والصلاة تلخص الإسلام وقواعده : فيها الإيمان بالله وأنبيائه .. فيها روح الزكاة لأنها تقتطع للعبادة جزءًا من الوقت ، والوقت هو الحياة ، وفى الصلاة جزء من الصوم وذلك بالامتناع فى أثنائها عن الطعام والشراب ، وفيها من الحج التوجه إلى البيت الحرام فى مكة ؛ وهى عبادة تشغل اللسان بتلاوة القرآن والدعاء ، والجسم بالقيام والركوع والسجود والجلوس ، والقلبَ بالخشوع ، والعقلَ بالتدبُّر فيما يتلو المصلى من قرآن وما يدعو من دعاء . وفيها روح الجماعة الإسلامية : بالاجتماع من أجل هدفٍ مشتركٍ ، والانتظام فى صفوف ، والطاعة للإمام ، وتصويبه إذا أخطأ فى قراءة أو حركةٍ .

٣ ـ الزكاة :

والزكاة عبادة يضعها فقهاء الإسلام دائمًا فى كتبهم بعد الصلاة ، أى فى قسم

العبادات . بينما تأتى أحكام الخراج فى قسم المعاملات ، وإن كان الأمران معا تضمهما بحوث «الأموال» فى الإسلام .

ولقد كانت حروب الردة بعد وفاة الرسول ، وتولى أبى بكر مسئولية الخلافة ، من أجل تفريق المرتدين بين الصلاة والزكاة ، ورفضهم أن تتولى الدولة مسئولية جمعها وتوزيعها ، فكانت أول حرب داخلية تخوضها الدولة دفاعًا عن حقّ الفقير فى المال . ذلك لأن الزكاة كما جاءت فى الحديث الشريف «تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم» ، فالمصدِّق ـ أو عامل الزكاة ـ يذهب إلى المكان المحدّد له . ويقوم بجمع زكاة أغنيائه ، ويوزعها على فقرائه ، فإذا احتاج أخذ من بيت المال ، وإذا فاض ذهب به إلى بيت المال ، ليكون فى خدمة غيرهم من الفقراء . وإذا ما أصابتْ قطرًا من أقطار الإسلام ضائقةٌ ، كان على القطر الذى يتوفر فيه فائض أن يبادر بنجدته ، وتنظم الدولة ذلك ، كما حدث فى عام الرمادة (المجاعة) فى المدينة حين استعانت بمدد من مصر ، على عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب .

وتتدرج الزكاة من ٢,٥٪ على الأموال التى يحول عليها الحول ـ أى تفيض عن حاجة صاحبها ونفقته عامًا كاملاً ، إلى ٢٠٪ فى الركاز (أى المعادن) مع تقدير الجهد البشرى فى تحديد النسبة : فالزراعة التى تعتمد على المطر عليها ١٠٪ بينما التى تعتمد على الجهد فى استخراج الماء عليها ٥٪ .

وكان من أدب الإسلام فى تحصيل الزكاة أن يدعو العامل الذى يجمعها لمن أخذها منه ، بالزيادة وبالخير . وذلك لأن الزكاة ـ لغةً ـ هى النماء ، أى أن ظاهرها أخذ ، وحقيقتها زيادة .

٤ ـ الصوم :

والصوم كتبه الله على المسلمين وهو عبادة لها نظائرها فى الأديان السابقة «كُتِبَ عليكم الصيام كما كُتِبَ على الذين من قبلكم لعلكم تتقون» (٢ : ١٨٣) وهو فى شهر رمضان الذى أنزل الله فيه القرآن . وهو فى الإسلام للقادر عليه . وهو أساسًا تربية وعبادة ذاتية يمتنع فيها الصائم عن طعامه وشرابه ومباشرته لأهله ولا رقيب

عليه من الناس إلا نفسه . فهى ليست مجرّد عبادةٍ سلبية بالامتناع ، ولكنها إيجابية فى الإرادة . وقد سبقت الإشارة إليها عند دراسة رفع الحرج .

٥ ـ الحج : وعلاقة الإسلام بما كان قبله من دين إبراهيم ووثنية العرب :

فى دراستنا السابقة عرضنا الخطوط الرئيسية فى الالتقاء والتباين بين الإسلام وكل من اليهودية والمسيحية ، وآثرت أن أؤجل الحديث عن العلاقة مع وثنية العرب إلى الحديث عن الحج وعن الحجر الأسود . وهذه الثلاثة ـ اليهودية والمسيحية والوثنية العربية ـ يعتبرها الكاتب (ص ٥٤٠ ـ ٥٤١) مصادر الإسلام .

(أ) مفهوم الوثنية عند العرب :

يقول الله عن عبادتهم الأوثان : «الذين اتّخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» (٣٩ : ٣) ولنربط هذا بأن إبراهيم أبو العرب . وأنه جاء بالتوحيد . وأن التوحيد فطرة « فأقم وجهك للدين حنيفاً فِطرة الله التى فطر الناس عليها » (٣٠ : ٣٠) وأن إبراهيم وإسماعيل أقاما هذا البيت فى مكة . وعنه يقول الله : «إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركًا وهدىً للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا » (٣ : ٩٦ ـ ٩٧)

الأساس هو التوحيد . هو أول معرفة آدم وهو دعوة محمد . وعلى تعاقب القرون ، قد يبتعد الناس عن طريق التوحيد الخالص : مثنوية أو تثليثا أو تعدد آلهة قد يتصورونها فى الطبيعة ومظاهرها ، وفى أوثان يصنعونها بأيديهم ، ثم يعبدونها من دون الله ، ويعتقدون أنها تقربهم إليه . وكان من العرب من أنكر البعث « وقالوا إن هى إلا حياتُنا الدنيا وما نحن بمبعوثين» (٦ : ٢٩)

هذا هو الخط الأساسى فى الحياة العربية قبل الإسلام ، كما نراه فى القرآن وفى التراث العربى ، وإلى جانبه كانت توجد جاليات يهودية ومسيحية وصابئة ومجوسية تأثرت بالحضارات المجاورة من فارسية ورومانية ، وحنفاء ابتعدوا عن الضلال إلى الاستقامة (مفردات الأصفهانى) .

وعندما جاء الإسلام أراد أن يعيد العرب إلى دين إبراهيم ، إلى التوحيد الأول

الصافى «قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينًا قِيَمًا ملة إبراهيم حنيفًا» (٦ : ١٦١) وإليه يرجع الإسلام كما ترجع المسيحية واليهودية «ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفًا مسلمًا» (٣ : ٦٧)

(ب) الكعبة والحجر الأسود :

ولقد ذكر الكتاب (ص : ٥٤٠) عن الحجر الأسود فى ركن الكعبة أنه أهم وثن فى حياة العرب . واستخدم كلمة Fetish . ومن المنطق أن نستخدم فى حياة القوم ما استخدموه من ألفاظ . فماذا كانوا يعتبرون الحجر الأسود ؟ .

إن الله يقول عن أوثان الجاهلية :

«فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يُشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق . ذلك ومن يعظّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب» (٢٢ : ٣٠ ـ ٣٢) .

وفى عام الفتح أمر الرسول بتحطيم جميع الأصنام فى البيت الحرام ، وفى مكة وما حولها . ولم يدخل البيت الحرام إلا بعد تطهيره من الأوثان . ولو كان الحجر الأسود وثنًا من أَمْرِ الجاهلية لأصابه من التحطيم ما أصاب غيره .

إذن : ما هو ؟ أما من الناحية المادية البحتة فهو حجر نيزكى (بركاردت) وينبغى أن نذكر ثلاثة أمور :

١ ـ أنه من أحجار البيت الذى بناه إبراهيم ، وقد تواترت هذه الرواية عند العرب جيلاً بعد جيل .

٢ ـ أنه بدء الطواف حول الكعبة .

٣ ـ أنه فى الركن الذى لم ينتقص منه العرب شيئًا ، عند إعادة بناء البيت ، فلما قصرت النفقة بقريش اختصروا من الركنين الشاميين وكان حِجْرُ إسماعيل ضمن البناء القديم . (القسطلانى على البخارى) وهو بهذا أقدم مكان ارتبط بالتوحيد ، ولم يكن العرب فى جاهليتهم يقربون له القرابين .

ولو أزيل الحجر الأسود فَيُسَنُّ للمسلم تقبيل الركن أو استلامه أو الإشارة إليه فى الطواف ، فالركن «مكان» وليس «حجرا» .

ثم إن تقبيل الحجر أو الركن ليس فرضًا . ويكفى الإشارة إليه كنقطة بدء فى الطواف مع قول الطائف «باسم الله والله أكبر» وتكره المزاحمة عنده . إن أبا بكر وعمر بن الخطاب ، قال كل منهما عنده «إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبّلك ما قبّلتك» تنبيهًا على أنه لولا الاقتداء ما قبّله وكان ذلك تعبدًا محضًا (شرح القسطلانى على البخارى) .

ولا تزيد الكعبة على أن تكون حجرة لها باب ليس فيها إلا جدرانها . ودعائمها ، يطوف حولها المسلمون فى الحج كأنها مركز الكون الروحى (بركاردت) . وإذا كان لكل دينٍ اتجاه فى صلاته : المسيحيون نحو الشرق وهو مطلع الشمس . أو بيت المقدس عند اليهود . حرصًا على النظام فى دور العبادة . فلن يكون الإسلام بدعًا بين الأديان نتوجه المسلمين نحو البيت الحرام . والله يقول بعد هذا «ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله» (٢ : ١١٥) وإذا لم يستطع المسلم أن يتحرى اتجاه القبلة فى صلاته لسبب من الأسباب فله أن يجتهد ، وإلا فصلاته مقبولة فى أى اتجاه . (ابن رشد الحفيد) .

(جـ) إلغاء شعائر الجاهلية :

ولقد كان واضحًا من أول الأمر : أن الرسول يريد أن يعيد الحج إلى الطهر الذى كان عليه دين إبراهيم ، فغيَّر ما أدخله الجاهليون عليه من شعائر التشدد فى أمر الدين حتى سموا «الحمس» أى المتشددين فى دينهم ولنأخذ نماذج من هذا التغيير :

١ ــ كانوا لا يدخلون المسجد الحرام فى ثياب عَصَوا الله فيها ، واستغل بعض المكيين هذا ، فأرهقوا الناس ماليًّا بتأجير أو بيع الثياب ، وكان بعض غير القادرين يخلعون ثيابهم ثم يطوفون ، فأنزل الله قوله : «يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد» (٧ : ٣١)

٢ ـ كانت قريش لا تقف مع بقية الحجاج فى جبل عرفات يوم التاسع من ذى الحجة ، ويقفون عند مكان يسمى المشعر الحرام (بين عرفات ومنى) وذلك لأن المشعر الحرام داخل فى نطاق الحرم . وعرفات خارجه ، وكانوا يرون هذا امتيازًا لأنفسهم . فأمرهم الرسول ـ تحقيقًا للمساواة الكاملة بين الجميع ـ أن يكون وقوفهم فى مكان واحد وقال الله « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس» (٢ : ١٩٩)

٣ ـ كانوا ينتهزون فرصة الحج ليتفاخروا بآبائهم وأمجادهم ، فدعاهم إلى ذكر الله والخضوع له قائلاً « فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم أباءكم أو أشد ذِكْرا» (٢ : ٢٠٠)

٤ ـ أكد لهم أن الأمر فى الحج ليس مجرد القيام الشكلى بهذه المناسك ، وإنما الأساس هو التقوى ، فقال عن الهدْى (الذبائح) التى ينحرونها لطعامهم وللفقراء «لن ينال اللهَ لحُومُها ولا دِماؤها ولكن يَنَالُه التقوى منكم» (٢٢ : ٣٧)

٥ ـ كما نهى الله عن إيذاء أى طير أو إنسان ، ونهى عن الجدال ، ليتفرغ الناس للعبادة «فمن حجَّ فلا رَفَثَ ولا فُسوقَ ولا جِدالَ فى الحجّ» (٢ : ١٩٧) وتذكر المراجع الإسلامية أن النبى ﷺ ما سئل فى الحجّ عن أمرٍ من أمور التيسير إلا قال : « افعلوه ولا حرج» (البخارى) .

فالإسلام ألغى من مناسك الحج أمور الجاهلية والوثنية ، وأبقى على ملة إبراهيم الخالصة .

والحج فريضة فى الإسلام على القادر مرة واحدة فى عمره ، ولهذا تسمى الحجة الأولى للمسلم «حجة العمر» فإذا زاد عن ذلك فهى له نافلة ، وهى مع ازدياد عدد المسلمين تحتاج إلى مزيد من التنظيم وإفساح المجال لمن لم يؤد منهم هذه الفريضة . والحج المبرور إذا أداه الإنسان خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه كما يقول الحديث (البخارى ومسلم) ولنتصور هذا المشهد على جبل عرفات الذى يجتمع فيه ما يزيد عن مليونٍ من الحجاج فى ثياب بسيطة متشابهة ، حاسرى الرءوس ، لا

تعرف غنيهم من فقيرهم ، يدعون ربهم بكل لسان ، رافعين أيديهم كأنهم حديقة بشرية تتجه فروعها إلى السماء ، تتلقى منها الرحمة والمغفرة والعون ، لتتابع المسيرة على درب الإيمان والعمل والسلام .

رابعًا ـ فى القرآن

من الأحكام التى أصدرها الكاتب وأثارت ردود فعل واسعة بين المسلمين ، ما ذكره عن أسلوب القرآن وتقسيمه الثلاثى إلى :

(١) قصص مُشتت و (٢) وعظى وافر اللون و (٣) تشريعى جاف مقتضب (ص ٥٤٢ ـ ٥٤٣) .

ولنحاول هنا التركيز على أهم خصائص القرآن ومحتواه وطريقة عرضه للقصص والوعظ والتشريع ، مستندين فى هذا إلى نصوص القرآن .

١ ـ المدخل الإنسانى :

ولنفتح المصحف لنقرأ أولا سورة الفاتحة وهى سبع آيات فيها ثناء على الله وتوجّه إليه بالعبادة ، ودعاء نسأل الله فيه العون والهداية . يلى هذا السورة الثانية وهى أطول سور القرآن (٢٨٦ آية) وفى مدخلها يذكر القرآن أنه هدى ، وأن الناس إزاءه ثلاثه : متقين وكافرين ومنافقين . بعد هذا دعوة شاملة موجهة إلى الناس جميعًا لعبادة الله . والعبادة فى الإسلام قصد شامل وجهد إيجابى فى كل مرافق الحياة ، وعُلوٌّ على الشهوات . بعد هذا يذكر الله فَضْلَه على الناس بأن خلق لهم السموات والأرض ثم تأتى قصة آدم ... ما العبرة فى ذلك ؟ يبدو من أول الأمر أن مدخل القرآن «إنسانى» متميز . فهو ليس مدخلاً تاريخيًا يبدأ بقصة الكون كما فى التوراه . وليس ترجمة حياة تعرضها الأناجيل الأربعة القانونية عرضًا متوازيًا ، وتليها أعمال الرسل .. وهذه لا حقة لما أوحى الله إلى عيسى .

٢ ـ الوحى وكتابة القرآن :

ويذكر الكتاب (ص ٥٤٢) أن القرآن لم يكتب كتابة منظمة فى عهد النبى

وإنما حدث هذا بعد ربع قرن من وفاته ، وتحتاج هذه العبارة إلى وقفة وتوضيح . فالفكر الغربى متأثر بما يعرفه عن كتابة التوراة والإنجيل ، والفجوة الزمنية بين الوحى والكتابة ، وجهد الذين جاءوا بعد موسى وعيسى فى التسجيل ثم الاختيار ، والخلاف فيما بينهم . أما القضية مع القرآن فمختلفة جدًّا . والكلمة التى أودّ أن ألقى عليها الضوء هى قول الكاتب «كتابة منظمة» وأن هذا كان «بعد ربع قرن» من وفاة الرسول .

والسؤال الأول : متى بدأت كتابة القرآن ؟

والثابت قطعًا أن الكتابة كانت منذ مطلع البعثة النبوية فى مكة . وفى قصة إسلام عمر بن الخطاب ـ الخليفة الثانى ـ وكان هذا ـ فى مكة ـ ثبت أنه قرأ صحيفةً عند أخته وزوجها من أوائل سورة طه (٢٠) وكان هذا سبب إسلامه (ابن هشام) وكان الذين يقومون بذلك هم كُتّاب الوحى . وفى المدينة زاد عددهم حتى بلغ التسعة والعشرين ، وكان من أبرزهم الخلفاء الراشدون الأربعة الذين تولوا أمر الإسلام بعد وفاة الرسول وهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ ، ومن الصحابة زيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان ... كانوا يكتبون على ما يتوفر عندهم من مواد : الورق ، الخشب ، قطع الجلد ، صفائح الحجارة . وكان القرآن محفوظًا فى الصدور يتلونه فى صلواتهم ، وإن لم يكن مجموعًا كله مكتوبًا عند رجلٍ واحد .

والسؤال الثانى : كيف كان الترتيب ؟

لقد كان القرآن ينزل وحيًا على الرسول مرتبطًا بأحداث وتطور الدعوة الإسلامية فإذا قام كُتّاب الوحى بكتابة ما ينزل من القرآن ، أَمَرَهُم الرسول قائلاً : ضعوها بعد آية كذا ، أو بعد سورة كذا .. ويحدد لهم موضعها . فالكلام وَحْى ، والترتيب وَحْى (السيوطى) . ولما كان نزول القرآن مستمرًّا طول حياة الرسول ، فلقد كان موضع كل آية يتحدد مع نزولها ، دون ارتباط بالترتيب التاريخى أو طول السور . فأطول سور القرآن وهى البقرة (٢٨٦) آية وهى مدنية

تسبقها ـ فى ترتيب الكتابة ـ الفاتحة (٧) آيات وهى مكية . والسور الأربع الأخيرة فى القرآن مكية (١١١ ـ ١١٤) .

ومما ذهب إليه الكاتب أن الترتيب يتبع الطول : بحيث أن السور تتدرج طولاً من أول المصحف إلى آخره وهذا الحكم غير مطردٍ تمامًا ، ولنذكر مثالاً : إن السور من ١٣ إلى ١٦ أعداد آياتها كما يلى ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ١٢٨ . مع مراعاة أن عدد الآيات ـ وحده ـ لا يكفى فى المقارنة ، وإنما ينبغى أن نأخذ فى الاعتبار طول الآية ، فقد تكون كلمة واحدة (٥٥ : ٦٤) وقد تكون نحو صحيفة كاملةٍ كآية المداينة (٢ : ٢٨٢) .

والسؤال الثالث : متى جمع القرآن ؟

ونود أن نؤكد أن الجمع شىء والكتابة شىء آخر . لقد تمت الكتابة فى عهد النبى . وقرأ عليهم القرآن كاملاً مرتين فى رمضان ، وكان إيذانًا باقتراب وفاته . ولما قامت حروب الردّة ، استشهد فيها نحو سبعين من الحفاظ ـ والحافظ هو الذى جمع القرآن كله حفظًا فى صدره ـ وكان من هؤلاء مئات فى عهد الرسول ، فتقدم عمر بن الخطاب إلى الخليفة الأول أبى بكر ، لجمع القرآن كله فى مكانٍ واحدٍ . ولم يكن الغرض هو مجرد حفظ المدون من الأخطار ، وإنما لتَوْثيقه عن طريق حَفَظَتِه الذين تلقوه من الرسول وما زالوا على قيد الحياة .

وتولى زيد بن ثابت مسئولية هذا العمل الجليل . وكان من كبار كتاب الوحى وحفظة القرآن ، وسمعه كله من الرسول فى آخر تلاوة له . وراعوا فى ذلك قواعد ضبطٍ دقيقة منها ، ألا يقبل مخطوط لا يشهد اثنان على أنه مكتوب إملاء من الرسول ذاته ، وأنه جزء من التنزيل فى صورته الأخيرة . وينقل (دراز) عن (لوبلوا) بعد هذا قوله فى كتابه عن «القرآن والتوراة العبرية» (من الذى لم يَتَمنَّ لو أن أحدًا من تلاميذ عيسى الذين عاصروه قام بتدوين تعاليمه بعد وفاته مباشرة) .

ولقد سَلّم زيد هذه النسخة الكاملة إلى الخليفة أبى بكر الذى احتفظ بها طول عهد خلافته ، وظلت عند عمر الخليفة الثانى طول حياته وسلمها ـ قبيل وفاته

وبعد إصابته بطعنةٍ غادرةٍ ـ إلى حَفْصَةَ أم المؤمنين ـ زوج الرسول ـ وابنة عمر : ذلك لأن المسلمين وقتئذ كانوا فى تشاور على اختيار الخليفة الجديد .

فهذا المصحف الأول : صحائفه كلها من عهد الرسول . وجمعه كان فى عهد أبى بكر .

والسؤال الرابع : كيف وصلت هذه النسخة إلى الأمصار ؟

فمع اتساع حدود الدولة الإسلامية وخشية اختلاف المسلمين فى القراءات أَمَرَ الخليفة الثالث عثمان بن عفان بنسخ هذا المصحف الجامع . وقامت بذلك لجنة من أربعة نسَّاخ كلهم من الحفاظ المهاجرين ومنهم زيد بن ثابت نفسه ، وأعيد المصحف إلى حفصة ، ووزعت النسخ على الأمصار ، باعتبارها نماذج لا بديل لها . وينقل (دراز) عن (نولدكه) قوله عن النص القرآنى إنه «على أحسن صورة من الكمال والمطابقة» . والتقى المسلمون على امتداد العصور والأقطار على هذا المصحف الجامع . فإذا كان الكاتب (ص ٥٤٢) يقصد بالكتابة المنظمة «مصحف عثمان» ، فعلينا أن نتذكر أن هذا كان مجرد مرحلة على طريق كتابة المصحف ونسخه . وإن الكتابة تمت من عهد الرسول ، والجمع كان فى عهد أبى بكر . والنسخ كان فى عهد عثمان . ونقول مع (لوبلوا) كما ينقل عنه دراز «إن القرآن هو اليوم الكتاب الربّانى الوحيد الذى ليس فيه أى تغيير يذكر» ونقول قبل هذا مع ربنا «إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون» (٥ : ٩) ، وكيف كانت جهود الصحابة هى الأدوات التى حققت هذا الوعد الإلٰهى ، وتعاقب على صيانته وحفظه ونسخه وطبعه المسلمون .

٣ ـ الوحدة الموضوعية فى سور القرآن :

عنى المسلمون بدراسات الوحدة الموضوعية فى سور القرآن . ولهم فى هذا دراسات قيمة (دراز) . ومدار هذه الدراسات أن لكل سورة هدفًا أو أهدافًا عامة تنتهى إليه الأهداف الفرعية . ولو أُخذنا لذلك مثالاً من سورة البقرة ـ أطول سور القرآن ـ لوجدناها أربعة أقسام رئيسية :

١ ـ مدخلاً إنسانيًّا يوضح مكانة الإنسان فى الكون والحياة .

٢ ـ تجربة بنى إسرائيل بكل ما فيها من طاعة ومعصية .

٣ ـ الإسلام بمفهومه الشامل الذى يضم الأنبياء جميعا ، ثم بمفهومه الخاص ، مع توضيحٍ لمقومات المجتمع الإسلامى .

٤ ـ ختام : هو دعاء نسأل الله فيه العون على المسير والعفو عن الخطأ والنصر لكلمة الله ودينه .

هذا البناء الضخم فى سورة البقرة تستطيع أن تقرأه مركّزًا فى سورة الفاتحة ـ وهى سبع آيات ـ فى صدر القرآن ، خلاصتها إيمان بالله وثناء عليه ، واستعانة به على الهداية . حتى إن بعض علمائنا (ابن القيم) ليعتبرون روح الإسلام كله هو قول الله تعالى ، «إياك نعبد وإياك نستعين» .. (١ : ٥) . فإذا ما انتقلت إلى سورة آل عمران ـ وهى ثانية سور القرآن طولاً ـ وجدنا عناية كبيرة بقضايا النصرانية : فتذكر قصص زكريا ويحيى ، ومريم وعيسى ، وتدفع عنها افتراءات اليهود مؤكدةً طهارة مريم ونبوة عيسى ، ثم تدافع عن التوحيد الخالص دون أى مظهر من مظاهر التعدد . وبعد أن تعرض لقطاعات من حياة مجتمع الإسلام فى المدينة تنتهى بدعاء يقابل ما سبق أن قرأناه فى سورة البقرة ، وإن كان يركّز على علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية ويرتبط ـ موضوعيًّا ـ بمدخل السورة حيث يذكر الله إنزال التوراة والإنجيل والقرآن (٣ : ٣ ـ ٤) .

٤ ـ القصص القرآنى :

ومنهج القصة القرآنية بدوره مختلف فى القرآن عنه فى التوراة والإنجيل : فالوحدة أساسًا فى السورة لا فى القصة . والقصة يرد ذكرها مرات . وكل مرة تركز على هدف أو أهداف معينة . وتأخذ كل مرة من القصة الأساسية شرائح أو قطاعات تؤكد هذا الهدف . ولنأخذ لك نموذجًا من قصة موسى : فهى فى سورة القصص (٢٨ : ١ ـ ٥٠) توضح شدة الصراع بين الحق والباطل ، بينما تركز سورة طه (٢٠ : ٩ ـ ٩٨) على تأييد الله لرسوله ، وفى سورة الذاريات ترد مجملة تؤكد على انتصار الحق (٥١ : ٣٨ ـ ٤٠) . وإذا ما تابعت مجموعة القصص فى السورة الواحدة اتضحت أمامك وحدة الهدف منها . وهو بدوره رافد

يصب فى الهدف الكبير للقصص القرآنى «وكُلاًّ نقصُّ عليك مِن أنباء الرُّسُلِ ما نثبّت به فؤادك وجاءك فى هذه الحقُّ وموعظة وذكرى للمؤمنين» (١١ : ١٢٠) .

وبهذا كانت القصة فى خدمة الهدف ، لا لمجرد السرد . (دراز)

ونذكر لذلك مثالاً : ففى سورة الذاريات يرد ذكر إبراهيم ولوط وموسى وقوم عاد وثمود ونوح (٥١ : ٢٤ - ٤٦) وتحسّ وأنت تقرؤها سرعة إيقاع السورة : «ففروا ، إلى الله إنِّى لكم منه نذير مبين» (٥١ : ٥٠) ، وكذلك القَسَم فى أول السورة «والذّاريات» (٥١ : ١) (وهى الرياح) . هناك إذن تناسق عام وتدفق داخلى من أول السورة إلى آخرها ، يوّجه مجموعة القصص فيها إلى هدف شامل ، ويأخذ من القصة بقدر ما يوضح الهدف .

٥ - الإيمان باليوم الآخر :

ما جاء فى القرآن عن الجزاء واليوم الآخر ، غير مسبوق فى التوراة والإنجيل . فمشاهد الآخرة فى القرآن حية نابضة كأنك تشهدها ، والحوار فيها يرتبط بما قام به الإنسان فى الدنيا . ونزول الوحى بها استمر على امتداد الفترتين المكية والمدنية . ولم يكن فى هذا صرف المسلمين عن العمل فى الدنيا أو الرضا بالقليل كما يذهب الكتاب (ص ٥٤٢) . وإنما يقول الرسول «نِعْمَ المالُ الصالحُ للرِجل الصالح» (رواه الإمام أحمد) . والله يدعونا إلى العمل فيقول «هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور» (٦٧ : ١٥) . ولكن : فرق كبير بين أن يملك الإنسان المال ، أو يملكه المال . ويوضح لنا القرآن ذلك فى نصحه «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة . ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين» (٢٨ : ٧٧) .

وإذا رجعنا إلى الأسفار الخمسة الأولى من التوراة لم نجد فيها أى ذكر للبعث والحياة الآخرة . وفى سفر أيوب (٧ : ٩) «الذى ينزل إلى الهاوية لا يصعد» وظَهَرَ السامريّون - قبيل عهد المسيح - وهم فرقة من اليهود تؤمن بالقيامة وبالجزاء

الأخروى . وفى سفر المكابيّين تأكيد على الجزاء فى الحياة الآخرة . وبهذا يؤمن الفريسيون ، وهم من الفرق اليهودية التى تأخر ظهورها . وكان بولس الرسول فريسيا ولذلك قاومه الصدوقيون وغيرهم من اليهود الذين لا يؤمنون باليوم الآخر (أعمال الرسل ٢٣ : ٦ - ٨) .

ولكن مع ظهور عقيدة الإيمان باليوم الآخر متأخرة فى اليهودية ، وعناية المسيحيين بها ، إلا أنها لم تأخذ هذا القدر من العناية والتوضيح حتى أفرد لها بعض الكتاب المسلمين مؤلفات خاصة (ابن القيم ، سيد قطب) .

وحين نذكر الآخرة ، ينبغى أن نذكر أيضا رحمة الله ومغفرته ، ودعوته الناس إلى العودة إليه «قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعًا ، إنه هو الغفور الرحيم» (٣٩ : ٥٣) . ففى الإسلام يجمع المؤمن بين الرجاء فى رحمة الله ومغفرته ، والخوف من عقابه إذا تمادى ولم يرجع إلى طريق الله .

٦ - آيات التشريع :

عدد آيات الأحكام فى القرآن لا تزيد عن خمسمائة (الشوكانى) ، أى أنها أقل من ١ : ١٢ من مجموع آيات القران البالغة ٦٣٤٢ .

وتنقسم آيات الأحكام إلى قسمين :

أولاً : العبادات وتنظم العلاقة بين الإنسان وربّه وهذه نحو مائة وأربعين آية .

ثانيًا : النظام التشريعى : وهى المعاملات وهى تختلف عددا - فيما بينها - بحسب ما يتعلق بها من مباحث وتنقسم إلى سبعة أقسام :

١ - الأحوال الشخصية وتشمل الزواج والطلاق والإرث والوصية والحَجْر .

٢ - الأحكام المدنية : المتعلقة بمعاملات الأفراد ومبادلاتهم من بيع وإجارة ورهن وكفالة وشركة ومداينة .

٣ - الأحكام الجنائية : وتتصل بما يحفظ على الناس حقوقهم وأعراضهم وأموالهم .

٤ ـ أحكام المرافعات : وتتعلق بالقضاء والشهادة واليمين وتحقيق العدل .
٥ ـ الأحكام الدستورية : وتتعلق بنظام الحكم وأصوله والعلاقة بين الحاكم والمحكوم وحقوق الأفراد والجماعة .
٦ ـ الأحكام الدولية : وتتعلق بمعاملة الدولة الإسلامية مع الدول الأخرى فى السلم والحرب .
٧ ـ الأحكام الاقتصادية والمالية : وتتعلق بتنظيم العلاقات المالية من موارد وطرق إنفاق (خلاّف) .

والقرآن ـ بصفته الدستورية العليا ـ فى الحياة الإسلامية يتناول الأحكام بالنص الإجمالى ، ولا يتصدى للجزئيات إلا قليلاً . ذلك لأن الإجمال فى النصوص ، يساعد على تطبيقها بصور متعددة يحتملها النص ، فيكون باتساعه قابلاً لمجاراة المتغيرات الزمانية ، دون خروج على أسس الشريعة ومقاصدها . مثال ذلك ما ورد فى القرآن من النص على الشورى السياسية دون تعيين شكلٍ خاص لها ، فكانت شاملةً لكل نظام حكومى يتجنب الاستبداد ، ويتحقق فيه التشاور بين الحاكم والمحكوم (الزرقا) .

٧ ـ الحدود فى القرآن :

ولقد وصف الكاتب ص ٥٤٣ عقوبة السرقة فى الإسلام بأنها مؤلمة ومهينة .

وهذه الحدود لا تؤخذ منفصلة عن النظام الإسلامى فى شموله . نعم إن القرآن ينص على قطع يد سارق . ويؤمن المسلم أن هذا الحكم من عند الله ولكن ما هدف الحدود فى الإسلام وما الشروط الواجب توافرها قبل تنفيذها ؟

إن الحدود فى الإسلام لها هدفان : إرهاب النفوس التى يغلب عليها الانحراف والنزوع إلى الشر ، وعقاب المجرم على جريمته . ومن أجل هذا سميت هذه العقوبات فى الإسلام «حدودًا» لأن معنى الحد فى اللغة المنع . ولذلك عرّفَ بعض الفقهاء الحدود بأنها «موانع قبل الفعل زواجر بعده» أى أن العلم بشرعيتها يمنع الإقدام على الفعل وإيقاعها بعده يمنع العودة إليه (شرح فتح القدير لابن الهمام) .

إن الإسلام يجعل الدولة مسئولة عن رعاياها جميعًا . وعليها أن توفر لهم سبل

الكسب الحلال ، وأن تعينهم إذا كانوا عاجزين عنه ، وأن تكفل لهم المطعم والمشرب والملبس والمأوى ، يستوى فى هذا المسلمون وغير المسلمين .

والإسلام لا يقطع يد السارق لجوع أو ضرورة ، ويفسح المجال للإفلات من عقوبة الحد إذا قامت شبهة تمنع من إيقاعها . ذلك لأنه لا يقصد توقيع العقوبة إلاّ عندما يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الجانى أقدم عليها غير محتاج إلى إتيانها .

ولابد من توفر شروط معينة لتوقيع حد السرقة أهمها : أن يكون الجانى عاقلاً بالغًا (راشدًا) غير محتاج ولا مضطر . وأن يأخذ المال خفيةً بنية تملكه وأن يكون المسروق منقولاً ، محترمًا ، مملوكًا للغير ، فى حرز ، ولا تقل قيمته وقت السرقة عمّا يعادل سبعة عشر جرامًا من الذهب الخالص بالعملة المحلية (على منصور)

يقول الله تعالى «فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه» (٢ : ١٧٣) ، وقد حدد الرسول الحاجة حين سُئل : عمّا يحل لأحدنا من مال لأخيه إذا اضطر إليه ؟ قال «يأكل ويشرب ولا يحمل» وفى عام المجاعة لم يطبق عمر بن الخطاب (الخليفة الثانى بعد الرسول) حد السرقة لأن المدينة كانت فى مجاعة . وكان يضم إلى أهل كل بيت أهل بيت آخر ويقول «لن يهلك الناس على أنصاف بطونهم فكيف نأمر بالقطع ؟» .

ويقصد بالخفية ألا يكون جهارًا .. ذلك لأنه فى العلانية يستطيع المسروق أن يستعين بالناس لإيقاف الجريمة . فإن تعذر وجب القطع . وإذا كانت السرقة بنية الانتفاع المؤقت ثم إعادتها ، انتفى القصد الجنائى فلا قطع (على منصور) ..

ذكرت جوانب من أمر حد السرقة لأبيّن أن تطبيق هذا الحد ليس بالسهولة التى يتصورها بعض الباحثين ، كذلك ليس بالقسوة التى تعمّ المجتمع .

إن موازين الردع النووى فى عصرنا هذا ، هى التى تحول دون استخدام الطاقة النووية فى الحرب . كذلك فإن شدة هذه الحدود فى الإسلام كزوادع قبل الفعل وزواجر بعده ، هى التى هبطت بنسب الجريمة فى الأقطار التى طبقت هذه الحدود :

ففى حكم المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود الذى استمر أربعةً وعشرين عامًا فى السعودية كان مجموع الأيدى المقطوعة ست عشرة يدًا . والمسلمون يعلمون كيف استقر الأمن فى السعودية بعد تطبيق الحدود ، وكيف كان اضطراب الأمن قبلها ، وكيف كان حجاج بيت الله الحرام ـ قبل عهده ـ يتعرضون لغارات قُطّاع الطرق ، حتى إن قوافل الحج من الشام ومصر كانت تصحبها قوات مسلحة لحمايتها (على منصور) .

ولا أريد أن أذكر هنا كيف أن الجريمة فى الغرب أصبحت لها منظمات كأنها حكومات داخل الحكومات . ومن الغريب أن لا نجد أكثر التعاطف مع احترام الأرواح والأموال والممتلكات وأمن الناس فى بيوتهم مع أزواجهم وأولادهم ، ونجده موجهًا إلى عددٍ محدودٍ من المنحرفين الذين يحترفون الجريمة ، ولهم من قدراتهم ما يستطيعون به الكسب الحلال ، والمساهمة الإيجابية فى بناء المجتمع .

(٨) أسلوب القرآن ومستواه :

كان الرسول يحدِّث أصحابه بحديثه ، وكان يتلو عليهم القرآن ، فما خلط هو ولا أصحابه بين كلام الله وكلامه . وتحدّى القرآن العرب جميعًا وهم أئمة الفصاحة أن يأتوا بمثله ، أو بسورة من مثله ، فما حاولوا ، ومازال التحدى قائمًا ، والعجز قائمًا . وصدق الله فى قوله «وإن كنتم فى ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أُعِدّت للكافرين» (٢ : ٢٣ ـ ٢٤) .

ويظل القرآن هو المعجزة الإلٰهية الأخيرة والوحيدة التى بين أيدينا . ولنسأل أنفسنا : أين عصا موسى ؟ وأين الرجل الذى أحياه عيسى ؟ لقد مضى هذا كله مع عهودهم .

ومع هذا التحدّى الدائم ، فإن هذا الكتاب هو الذى يستطيع أبناء العالم الإسلامى منذ طفولتهم أن يحفظوه كاملاً «ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مُدِّكر» (٥٤ : ١٧) .

هناك إذن ما يمكن أن نسميه «بالمستوى القرآنى» وفى داخل هذا المستوى تتعدد مقاصد القرآن من عقيدة وقصص وتشريع ، وحوار دينى وتصوير للمجتمعات ، وربطها بالمسار الإنسانى فى نظرة شاملة تضم الناس جميعًا فى إخاء شامل ، والكون كأنه بيت الإنسان الكبير.

ومع تعدد المقاصد ، تتعدد طرق العرض ولكنه تعدد أفقى فى المستوى القرآنى وليس تعددًا رأسيًا يتباين فيه المستوى.

صحيح أن النبى عليه الصلاة والسلام نبّه على فضل بعض آيات أو سور القرآن كقوله «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ قالوا : وأيّنا يطيق ذلك . قال : الله أحد الله الصمد . ثلث القرآن » (البخارى) ويعنى سورة الإخلاص (١١٢) وهى أربع آيات تتعلق بالتوحيد ، ولكن هذا كان للتنبيه على ماتحتوى من العقائد التى لا يصح الدين إلا بها.

وبهذا لا مجال ـ فى المنظور الإسلامى ـ بالتقسيم الثلاثى لأسلوب القرآن وهو ما ذهب إليه الكتاب فى ص ٥٤٢ ـ ٥٤٣ .

(٩) عالمية الإسلام : لمن ؟

ويقول الكتاب ص ٥٤٣ «إن عالمية الإسلام تطبق فقط على الذين هم من أصل عربى . «وكان أمامهم الخيار بين الإسلام أو القتل» .

والصورة غير ذلك : فإن آيات عالمية الإسلام جاءت منذ فجر الدعوة الإسلامية «تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا» . (٢٥ : ١)

ولقد وقف بعض أغنياء مكة يقاومون الإسلام . بينما انضم إلى الإسلام أغنياء كأبى بكر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ، وفقراء كبلال وآل ياسر.. فالإسلام لم يضم الفقراء وحدهم كما ذهب إلى ذلك الكتاب (ص : ١٤٥) . وبذل الأغنياء من المسلمين أموالهم فى عتق الرقيق وإيواء الفقراء (ابن هشام) ولم تكن المقاومة من عامة الناس ، فالدين فطرة وبعد ما فتح الرسول مكة ودانت قريش كان كل الجهد أن يرفع القادة المشركون أيديهم عن قبائلهم . وعندما

خيرهم القرآن بين الحرب أو الإسلام ، لم يرتفع فى الجزيرة العربية سيف واحد ، ولا أريق فيها دم وإنما سقط الجدار الهائل بين الناس والإسلام فدخلوا فى دين الله أفواجا . فى هذا نزلت سورة النصر (١١٠ : ١ - ٣) وانظر (ابن هشام) وهو يعرض السنة التاسعة للهجرة ، وهى التالية لفتح مكة وتسميها المراجع الإسلامية عام الوفود ، لكثرة الوفود التى جاءت إلى الرسول فى المدينة وأعلنت إسلامها .

خامسًا : عن الرسول وأصحابه

يذكر الكتاب ص ١٤١ أنه فى أوائل القرن السابع اهتز سكان مدينتين مغمورتين فى بلاد العرب بفصاحة رجلٍ كان مغمورًا .

ومرة أخرى نسأل : مغمور عند من ؟ ويقول إن «عظاته» استمرت فوق عشرين عامًا تمثل أكبر حدث فى آسيا منذ مجتمعات نيقية (أى ظهور المسيحية) .

إن القرآن يصف مكة فى الجزيرة العربية بأنها : «أم القرى» (٦ : ٩٢) وقريش قوم النبى هم أبرز قبائل الجزيرة العربية . وإذا كانت معلومات الروم عنهم محدودة فليس معنى هذا أنهم كانوا يعيشون مغمورين .

وقد أخذت الكشوف الحديثة تظهر معالم حضارات دارسة أشار القرآن إلى بعضها فى إجمال ، كحضارات النطاق الممتد من اليمن إلى الشام ، حضارة سبأ فى اليمن(٣٤ : ١٥) ، وديار صالح فى شمال الحجاز (٢٩ : ٣٨) ولا تزال الكشوف تظهر جديدًا ، كما فى حضارات الخليج فى الجزء الشرقى من الجزيرة العربية ، هذا فضلاً عما حفظه العرب من تراثهم الأدبى ، وما حفظوا فيه من أخبارهم (جواد على) .

ومع التطور الحديث فى العلاقات بين الحضارات العالمية ، من المنطقى أن تختفى تلك الأوصاف القديمة التى كانت تزن الحضارات بمقدار اقترابها أو ابتعادها من أوروبا أو مدى معرفة أهلها بها .

كذلك القول بأن عظات (الرسول) استمرت أكثر من عشرين عاما ، أمر لا يتفق مع «شمول» الدعوة الإسلامية ، فالإسلام دين ودولة ، وهو ليس مجرد

«عظات» ، وقد تتفق هذه الكلمة مع طبيعة المسيحية ، ولكنها لا تتفق مع طبيعة الإسلام . ولعل من الأفضل أن نستخدم فى وصف الإسلام وآيات القرآن وأقوال الرسول ماجاء عن القرآن وهو أنه «هدى» وذلك فى قول الله تعالى «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» (٢ : ٢) نعم . إن القرآن وصف الدعوة بأنها «موعظة للمتقين» (٣ : ١٣٨) ولكن هذه الصفة لم ترد مفردة فى آية وإنما جاءت معها صفات أخرى ، بينما تعبير «الهدى» جاء مفردًا .

وأعتقد أن ما جاء عن الرسول فى الكتاب يحتاج وحده إلى دراسة مستقلة ولكنى هنا أكتفى بتصويبات سريعة :

١ ـ جاء فى ص ١٤٥ أن هجرته كانت عام ٦٦٢ . وواضح أنه خطأ مطبعى : والتواريخ الأساسية فى حياة الرسول هى : الميلاد ٥٧١ . الهجرة ٦٢٢ . الوفاة ٦٣٢ .

٢ ـ هناك تحريف فى أسماء الصحابة : القائد الإسلامى خالد بن الوليد جاء اسمه خالب فى ص ١٤٨ .

وعمرو بن العاص (ص ١٤٨) جاء اسمه الساسى . وما دام الكاتب بصدد ذكر أعلام الإسلام فمن الأولى ذكر الخلفاء الراشدين الأربعة : أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلىّ بن أبى طالب .

٣ ـ أثار الكاتب ص ١٤٥ موضوع أزواج الرسول ، وما يذكره بعض كتّاب الغرب عن اتجاهاته الحسيّة ، وهو افتراء عرض له كتّاب الإسلام أكثر من مرة بكثير من الشرح (رشيد رضا) والردّ عليه من النواحى الآتية :

(أ) فلننظر إلى نماذج من حياة أنبياء بنى إسرائيل : وكان عند بعضهم كداود المئات من الزوجات .

(ب) إن الزواج فى الجاهلية قبل الإسلام لم يكن مقيدًا بعدد .

(جـ) حياة الرسول تنقسم ، من هذه الناحية إلى أربع مراحل :

١ ـ من مولده إلى الخامسة والعشرين : عاش دون زواج . وكان معروفًا بين قومه بالصدق والأمانة والاستقامة .

٢ ـ زواجه من خديجة وبقاؤه معها من الخامسة والعشرين إلى أن توفّاها الله وهو فى الخمسين من عمره وبقى بعدها دون زواج حتى الرابعة والخمسين.

٣ ـ تعددت زوجاته وكن : إمّا بناتٍ لبعض كبار الصحابة أو زوجاتٍ لشهداء أو بناتٍ لبعض الرؤساء الذين أقبلوا على الإسلام ، وبعضهن سبقنه إلى الله . وكان هذا فى فترة اشتداد الصراع فى المدينة وكثرة الغزوات والشهداء .

٤ ـ خيّر الرسول زوجاته عندما فتح الله على الإسلام ، بين حياة الزهد معه ، أو ترك بيت النبوة فاخترن معه حياة الزهد وألا يتزوجن من بعده باعتبارهن أمهات المؤمنين . وكان المسلمون يخاطبون الواحدة منهن بقولهم : يا أماه ، يقول الله تعالى «يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلاً . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرًا عظيمًا» (٣٣ : ٢٨ ـ ٢٩) .

٥ ـ وكان عليهن حفظ ما يتلى فى بيوتهن من آيات الله ، ومن أحاديث الرسول وأن يقمن بتعليم ذلك . ويقول الله لهن : «واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة» (٣٣ : ٣٤) هذا فضلاً عن أن الله حرّم عليه بعد ذلك أن يطلق منهن أو يتزوج عليهن «لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدّل بهن من أزواجٍ ولو أعجبك حُسنهن» (٣٣ : ٥٢) .

فالبيت النبوى كان مدرسة إسلامية يعيش أهلها على الزهد والتضحية ونشر العلم .

أما الجانب البشرى فيه ، فهو الأمر المشترك بين الناس بالمودّة والرحمة ، وهما أساس الحياة الزوجية (٣٠ : ٢١)

سادسًا : عن المرأة فى الإسلام

١ ـ القاعدة العامة فى القرآن هى مساواة المرأة بالرجل فى الحقوق والواجبات إلا ما استثنى بنص صريح . فكل حقّ لها على الرجل يقابله واجب عليها إزاءه يقول الله تعالى : «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» (التوبة ٩ : ٧١) فهم بهذا شركاء فى المسئولية .

٢ ـ ولقد أقسم الله بالذكر والأنثى فى القرآن تأكيدًا لكرامتها معًا فقال «والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى وما خلق الذكر والأنثى» (٩٢ : ١ ـ ٣) .

٣ ـ وقص نماذج من إنجازاتها فى الأمم السابقة . وكيف قادت ملكة سبأ قومها إلى الخير على أساس من الشورى (٢٧ : ٣٢) ، وسجل قوة فراستها فى قصة ابنتى الرجل الصالح مع موسى « قالت إحداهما : يا أبت استأجره إنّ خير من استأجرت القوى الأمين » (٢٨ : ٢٦) . وعمل الرسول بما أشارت به عليه زوجه أم سلمة بعد صلح الحديبية بأن يؤدى مناسكه فيتبعه الناس عملاً وبذلك سميت ، مستشارة الرسول . (ابن هشام) . وقبل الرسول أمان أم هانىء ـ ابنة عمه ـ يوم فتح مكة لأحد الكفار قائلاً : « قد أَجَرْنَا من أَجَرْتِ ياأم هانىء » . وكانت عائشة ـ أم المؤمنين ـ فقيهة مجتهدة : يسألها المسلمون ويأخذون عنها . وشاركت الصحابيات فى بعض المغازى . كما ساهمت المسلمات فى بعض الحروب اللاحقة ، حملن السيوف أحيانا ، وسقين العطشى ، وأشرفن على الجرحى فإذا ما شاهدت بعض العصور اللاحقة ما يخالف ذلك ، فإن العبرة بالنصوص الشرعية وتطبيقاتها فى العهد النبوى وعهد الخلافة الراشدة .

أما عن موضوع الأسرة ومكانة المرأة فيها اجتماعيًّا واقتصاديًّا :

٤ ـ فلنذكر مكانة الأم أولاً فى بيتها وكيف أوصى الله بالوالدين عامة وبالأم خاصة ، «وبالوالدين إحسانا» (١٧ : ٢٣) وقوله مبيّنًا فضلها «ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنًا على وهنٍ وفصاله فى عامين» (٣١ : ١٤) .

٥ ـ وفى النظام الإسلامى يتحمل الزوج مسئولية الأسرة . وهذه هى القوامة التى قال بها الإسلام . أما المرأة فمالُها خاص بها ولها حرية التصرف فيه وتنميته ، على ألاّ يتعارض هذا مع استقرار الأسرة ورعاية زوجها وأبنائها .

٦ ـ أما القول بأن لها نصف حظ الذكر فى الميراث ، فأمر لا يؤخذ معزولاً عن نظام الإسلام فى المسئولية والتوريث . فالمرأة فى الأسرة قد تأخذ من الميراث قدرًا يزيد عن نصيب بعض ذكورها ، وقد تتساوى معهم وقد تقل . ولنأخذ أمثلة لذلك : إذا ترك المتوفى بنتًا واحدة فلها نصف الميراث ولأبويه لكل واحد منها السدس (٤ : ١١) ، وهنا يستوى الأم والأب ، ويقلاّن معًا عن نصيب البنت .

وإذا ما احتاج أحد المحارم ـ الذين لهم حق فى الميراث ـ إلى نفقة . وكان القادرون عليها أخوة ذكورًا وإناثًا تحمّل الولد من النفقة ضِعف ما تتحمّل الأنثى ، لأن له ضِعف الميراث فى هذا الموضع (صديق حسن خان) .

٧ ـ وللمرأة تقديم فى مواقف : فنى أداء مناسك الحج يُسنُّ أن تبدأ النساء بالتحرك من مزدلفة إلى منى ، لئلا يشق عليهن الزحام ، وعند الصلاة يُسنُّ لهن التقدم والخروج قبل الرجال (صديق حسن خان) .

وصفوة القول : أنها تتساوى أساسًا مع الرجل فى المسئولية ، ويتقدم عليها فى بعض المواقف وتتقدمه فى البعض الآخر . ويرتبط وضعها بمسئولياتها حقوقًا وواجبات وقدرتها على أداء ذلك .

سابعًا : خــاتمــــة

حاولت فى هذه الدراسة أن أعتمد على نصوص القرآن والأحاديث النبوية ، وإننى أحسُّ أن اليونسكو الآن يؤدى على الصعيد الثقافى إضافة إنسانية كبيرة . فلقد مرّت قرون قامت فيها العلاقات بين العقائد والثقافات على الصراع والعداوة . وحاول بعض المفكرين ، من كل فريق ، تهيئة الجو الذى يلقى مزيدًا من الوقود على نيران المعارك .. والآن نسمع عن الحوار بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، وبين الأديان والثقافات .. ويدور هذا فى جو من الاحترام المتبادل .

ومن الطبيعى أن يكون لهذه المرحلة إنتاجها الفكرى الذى يعين على إثراء التجربة وتوسيع دائرة العاملين فى حقولها وتنشئة الجيل الجديد على مزيد من الإيمان بها .

وقبل أن أضع القلم أقول : ما أغنى عالمنا إذا وجّه فكره وقدراته إلى المحبة والتفاهم والسلام .

وما أفقره إذا توجّه إلى العداوة والخوف .. فالخوف صانع الأسلحة وعدو السلام .

كل ما أرجوه : أن تكون هذه الكلمات بذورًا فى حقل التفاهم .. وهدية إلى كل فكرٍ ، من القرآن الذى آمن بجميع الأنبياء وشجع كل جهد إيجابى للرقى بالحياة ..

الفصل الحادى عشر

التغيير في المجتمع الإسلامي بين الفرد والدولة

الندوة الإسلامية السادسة فى ذكرى
المولد النبوى الشريف ١٤٠٠ هـ بدعوة
من وزارة الثقافة التونسية . وكان موضوع الندوة
الإسلام والأمة الوسط .

القيروان : ٢٥/٢٩ يناير ١٩٨٠ م

التغيير فى المجتمع الإسلامى بين الفرد والدولة

١ ــ مدخلٌ : تاريخ للغد

هناك تقليدٌ عند كثير من الدول : ألاَّ تفتح وثائقها للدراسة فى موضوعٍ معينٍ إلا بعد أن تمرّ عليه فترة معينة . قد تكون ثلاثين عامًا أو تزيد . وبعضُ الوثائق يظل فى طى الكتمان . لذلك كانت دراسة الموضوعات المعاصرة أقرب إلى السياسة منها إلى التاريخ . ذلك لأن رجال السياسة ــ بحكم أوضاعهم التنفيذية ــ هم الأقدر على الوصول إلى المعلومات ، ولهم فى هذا وسائلهم المعلنة وغير المعلنة . وعليهم أن يتخذوا مواقف من القضايا المطروحة عليهم .

أقول هذا لأن بعض النماذج التى سيعرض لها هذا البحث قريبةُ العهدِ ، ومن أجل ذلك سأعرض لها من زوايا محددة ، وهى الوثيقة الصلة بقضية التغيير فى المجتمع . كما أبادر إلى القول بأن هذه الدراسة ليست أحكامًا ولا تقييمًا لمواقف أو صراعات أو دعوات ، وإنما لا تعدو أن تكون أضواءً على أحداثٍ مرتبطةٍ بالتغيير ، أرجو أن تكون عونًا على مزيد من التعاون الإسلامى ، وبخاصةٍ بين الأجيال المتتابعة ، ونحن بسبيل دراسة « الأمة الوسط » التى أرادها الله لنا فى قوله العزيز « وكذلك جعلناكم أمةً وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدًا » (البقرة : ١٤٣) .

٢ ــ الشبــاب والتغيــير

وإذا نظرنا إلى حركات الشباب الإسلامى فى النصف الأخير من القرن الرابع عشر الهجرى ، وجدناها قائمةً فى كل أقطاره ، ولا نكاد نستثنى منها قطرًا .. ذلك لأننا نعيشُ عصرًا تعددت أسماؤه وإن اتفقت على أنه عصر ثورة : ثورةُ المعلومات . الاتصالات .. وتتحدد أحيانا معالم هذه الثورة : فهو العصر النووى والفضاء الخارجى .. وتشابكت أطراف الحياة وتداخلت ، فلم يعد فى مُكنة الفرد

أو المجتمع أن يعيش منزويًا فى صومعةٍ أو عاكفًا فى خلوة .. فجهاز إذاعة صغير يجعل العالم على أطراف أصابعه فى أحداثه المتتابعة السريعة . ولم يعد اتخاذ أى قرار : سياسىٍ أو اقتصادىٍ ، قائمًا على مجرد الذكاء الفردى ، أو تعاون مجموعةٍ صغيرةٍ ، وإنما لابد من أجهزة منظمة لاستقبال المعلومات وخزنها وتنسيقها وسهولة استرجاعها والإفادة منها ، وربط السياسات الفرعية فى سياسة مركزية ، تتبادل التأثير والتأثر على مستوياتٍ محليةٍ وعالمية .

يخرج الشاب إلى الحياة فيجد أمامه هذا الفيض المتدفق من القضايا ، وتتعدد أمامه المسالك ، ولكل منها بريقه وجاذبيته .. ويمرّ فى مراحل من التجربة والاختيار .. وقد يكتفى بأن يعيش فى تيار الحياة ، تحمله الحياة ، راضيًا بما يأخذ أو طامعًا فى مزيد .. ولكن لا يزيد ـ حينئذ ـ عن أن يكون منفقًا لا منتجًا ، أو صاحب إنتاجٍ محدودٍ لما يحتاج إليه من قوت يومه ، وكساء جسده ، وأمان مستقبله أحيانًا . وما عن هذا الصنف أديرُ الحديث ..

وقد يحدد قصده وموقفه ، ويحاول أن يوسع دائرة الاقتناع ، من نفسه إلى غيره .. وهنا تبدأ عملية التغيير .

٣ ـ اتجاهات ثلاثة

ولهذا التغيير ارتباطه بتعدد نظم التعليم والتربية فى ديارنا الإسلامية وتبرز فى هذه النظم ثلاثة اتجاهات :

الاتجاه الأول : النظام المدنى وهو أوسعها انتشارًا وإليه توجِّه دولنا أكبر الجهد ، ويحاول أن يربط بين الأصول التى عاش بها مجتمعنا من دينه وتقاليده ، وبين العالم المتفتح من حولنا . وإذا نظرنا إلى مناهج التربية عندنا والكتب الدراسية بين أيدى أبنائنا ، وجدناها ـ عمليًّا ـ تمثل أكثر من حضارةٍ وفكرٍ . وإذا نظرنا إليها نظرةً تحليليةً دقيقةً ، وجدنا فيها تعارضًا لا سبيل إلى تجاهله أو التهرب من شأنه . ولك أن تسأل هذه الأسئلة :

ـ هل هناك أى اتصال بين الذين يضعون كتب الدين والتربية الإسلامية من

ناحية ، وبين الذين يضعون كتب علوم الحياة والفيزياء والكيمياء ؟ إن كلاً من الفريقين يدرس الحياة الإنسانية ـ من حيث النشأة ـ من زواية خاصة . آدم فى درس الدين أبو البشر ونبى كريم ـ عليه وعلى جميع الأنبياء صلاة وسلام ـ وهو فى دروس علوم الحياة علامة استفهام ، أو على الأقل نقطة غموض .

- ما العلاقة بين الدين وما يقوله علماء الحياة فى نظريات التطور ؟
- وما العلاقة بين الإيمان والعلم ؟
- وكيف استطاع علماؤنا أن يحققوا للإنسانية هذه الإنجازات الضخمة مع الاحتفاظ الكريم بعقائدهم وسلوكهم الطيب ؟ وكيف يذهب نفر من العلماء المحدثين إلى طرح قضايا الدين جانبًا ، إذا كنا بسبيل علوم الحياة والفيزياء والكيمياء ؟

ويبدأ الطالب فى الإحساس بهذا التناقض بين الثقافات .. وأحيانا يسأل أستاذ علم الحياة عن أمورٍ لها ارتباطها بالدين ـ كالخلق وبدء الحياة وتطورها ـ فيكون ردّ الأستاذ :

- نحن فى درس علم الحياة لا فى درس دين .. أو يقول له : سل مدرس الدين فى هذه الأمور . لا علاقة لى بها .

ويبدأ الطالب فى الشعور بأن قضيةً واحدةً ، فى المدرسة الواحدة ، لها إجابتان : إجابةٌ فى درس الدين ، وإجابةٌ فى درس علم الحياة أو الطبيعة . بعبارة أخرى : يبدأ الازدواج فى تفكيره : كأنه محطة إذاعةٍ تتلاقى فيها الأضداد ، وتصدر عنها المتناقضات .

الاتجاه الثانى : هو التعليم الأجنبى . ففى عالمنا الإسلامى مدارس الإرساليات والمؤسسات الثقافية الغربية بمفهومها الواسع . ويتميز فيها شقان : شقٌّ دينى وشقٌّ علمانى أو مدنى .. وتمتاز هذه المدارس ـ إذا ما قارناها بمدارسنا الحكومية بأنها ـ فى الغالب ـ أكثر دقةً ونظامًا ، وأقل فى عدد الطلبة ، وأن مستوى الكتب والتدريس فيها أكثر ارتفاعًا . وهى بالمحافظة على هذا الإطار تغرس فى نفس الطالب ـ من أولى الأمر ـ أنه فى جو غير الجو المدرسى المعتاد . وأنه فى مستوى

ممتاز ـ أو على الأقل ـ متميز . ولقد أتيح لى أن أراجع عددًا غير قليلٍ من كتب هذه المدارس ، وعنيت ـ أكثر ما عنيت ـ بالكتب الثقافية ، التى تكوِّن عقلية الطالب . وتابعت ، حتى الصور المختارة عن عالمنا الإسلامى ، والمعلومات التى تعرض ، وكيف تنتقى ، ثم ماذا يعرضون عن أقطارهم ؛ وتاريخنا : كيف يعرض ؟ وما حجمه ؟ وما مواده وما موضوعاته ؟.. أمور لا يتركونها للصدفة ، قطرة قطرة يلقونها فى أذهان الطلاب . وتقاليدُ وعاداتٌ فى الطعام والشراب والملبس والتذوق الفنى واختيار الكتب الثقافية . فإذا بولدك ـ شيئًا فشيئًا ـ ينسلخ عنك وعن أمةٍ ، وعن أهله ، وعن تقاليده وجذوره .. وإذا تحدث عن تاريخه ، وجدت شيئًا من الاستخفاف أو الضحالة أو اللامبالاة . بينما التراث الآخر له فى نفسه مكانةٌ وتقديرٌ . وحينما يُحَدِّثونه عن الدين يكتفون بأن يقولوا له : إنه أمرٌ فردىٌّ . إنه قضية بينك وبين ربِّك . إنه معاملةٌ . العبادات ليست مهمة . المهم معاملة الناس . وتبدأ عمليات التفتيت الفكرى . ثم الحذف . ثم البتر . ثم لا يبقى من الدين فى نفسه إلا ظِلّ ، لتحل محله قيم جديدة . وفى كل موضوع يسأل نفسه : ما الفائدة العملية لهذا ؟ ماذا يعود علىَّ من هذه الصداقة أو الصلة ؟.. كل شىء عنده يوضع فى ميزان المنفعة . والمنفعة المادية ، .. أو هكذا يتصور .. فإذا هو إنسانٌ يلهثُ وراء المنفعة ، ولا مانع عنده من تحطيم أى شىءٍ ، أو أى شخص فى سبيل المنفعةِ . والمنفعةِ الخاصةِ والقريبة .. المهم : أن إنسانًا جديدًا قد تكون فيه . إنسانا انسلخ من مجتمعه . وقد يكون إيجابى الفكر فيحاول التغيير ، ولكن على هذه الخطوط الجديدة ، ولها بدورها فروع أرجو أن أعود إليها بعد قليل .

الاتجاه الثالث : ويبدو فى المدارس أو الجامعات ذات الجذور الإسلامية . ولقد ظلت هذه المدارس والكليات والجامعات العريقة حافظةً لتراث الإسلام حتى القرن التاسع عشر الميلادى عندما تعرضت ديارنا لغزوٍ ثقافىٍّ استعمارى كاسحٍ . وفى معركة المحافظة على الذات تمسكت بعض هذه الجامعات بأصالتها . وقاومت المدّ الجديد ، واستجابت بعضها استجابة جزئية له ، وقوى الغزو الوافد فى بعض الأقطار حتى استطاع أن يحاصر العلوم الإسلامية فى دائرةٍ صغيرةٍ فى هذه

الجامعات ، واستولى على النصيب الأكبر . أو ترك هذه الأجزاء القديمة ، تدور فى حلقةٍ ضيقةٍ ، ووجه عنايته إلى القطاعات الجديدة .. وضاعت هوية بعض هذه الجامعات إلى حدٍّ بعيدٍ ، وارتبطت مصالح الشباب الاقتصادية وأبواب كسب الرزق بالتخصصات والكليات الحديثة ، بحيث قَلَّ الإقبال على التخصصات الأصيلة ، وظهرت ثنائية جديدة فى داخل هذه المؤسسات .

والذين تمسكوا بالأصالة ودافعوا عنها ، أصبحوا يمثلون تيارًا ثالثًا بالإضافة إلى التيارين السابقين : المدنى والغربى . وهذا التيار ينظر بحذر إلى التيارين الآخرين ، وبخاصة الغربى منهما : يقبل منه ما جاء به من علم حديث ، ويرفضْ منه ما جاء به من تهوين أمر التراث أحيانًا ، أو ـ على الأقل ـ تضييق فرص الحياة أمام العاملين فيه .

٤ ـ تدافع بين الاتجاهات

ووجدتْ هذه التيارات نفسها فى تدافع غير متعادل القوى ، زاد من حدته أن المتفوقين من شباب التيارات جميعا ، كانوا يصبون فى التيار الأول : الغربى . فهناك مراكز العلم المتقدمة . حتى الذين أرادوا دراسة الإسلام وعلومه ، ذهبوا فى بعثات إلى عواصم الغرب ، وجلسوا بين أيدى المستشرقين والمختصين فى الدراسات الإسلامية ، واحتكوا بهذه الحضارة عن قرب ، وخالطوها فى ديارها .. وهى كائنٌ عملاقٌ ، عميقُ الجذورِ ، رحبُ الفروعِ .

ولم يكن الذين عادوا على كلمةٍ سواء ، ولا كانوا جميعا صورةً مما أراد لهم أساتذتهم . منهم شخصياتٌ كريمةٌ صقلتها التجربة ، وازدادت استمساكًا بدينها ، وأنّه هدية رب الناس للناس . ورأت فى منجزات العلم ميراثًا إنسانيًا عامًّا ، ما ينبغى أن يصبح سلاحًا فى يد القوى ولا أداة استعلاء واستعباد ، فعادوا أكثر نضجًا مما ذهبوا .

وعاد منهم نفرٌ وقد ازداد انغماسهم فى حياة الغرب ، وانسلاخهم من جذورهم وأصالتهم ، حتى اللغة ، التَوَتْ عنها ألسنتهم ، وضاقت بها أحاديثهم .

وتفتحت أبواب الحياة والتقدم فى المجتمع أمام الذين عبروا البحار إلى عواصم الغرب . وضاقت نسبيًّا أمام الذين ظلّوا حراسًا للتراث وما تركه الآباء . واكتشافات العلوم تتوالى ، وآفاق المعرفة تتفتح ، وتيارات الفكر تزداد سرعة وتدفقًا ، ومراكز الثقل فى الحياة تميل إلى جانب العلم والتقنية الحديثة ، وتحتاج النهضة إلى مخططين ومهندسين وأطباء وفنيين وفنانين فى سباق واسع الخطوة طويل المدى .

وأفرز هذا صورًا جديدة من تجمعات الشباب ..

- هناك قطاعٌ كبيرٌ شغلته حياته اليومية والبحث عن مصادر العيش ثم الاستقرار ثم الرفاهية .

- وبرز من الذين احتكوا بالغرب من أرادوا قيادة النهضة على خطوطه ، وهى كثيرةٌ ومتشابكةٌ : هناك المناداة الدائمة بحق الشعوب فى الحكم والحياة . هناك الصحافة التى تستطيع أن تنقد الحكومة والحاكم . هناك المجالس النيابية التى يستطيع قطاعٌ من صوت الشعب أن ينفذ من خلالها إلى دوائر النور . هناك القضاء المستقل .. كثير هناك نرى ظاهره البرّاق ، ولكن له أيضا دهاليزه وأقبيته ووسائله التى ترضى الأخلاق الطيبة عن بعضها ، وتعرض عن بعض .

ومع أن الانتخابات فى بعض هذه الأقطار المتقدمة قد تحولت إلى حرفة : لها حملاتها ، ورؤساء هذه الحملات ، ونفقاتها ، والمساهمون فيها ، والمنتفعون من ورائها ؛ ومع أنها فى بعض الأوقات والأقطار تعبّر عن القوى الضاغطة فى المجتمع ، أو عن إرادة الحاكم ، وتستطيع أن تلبس الحق بالباطل ، وتكتم الحق وهى تعلم ، إلا أنها لا تزال مجالَ صراعٍ تستطيع فيه بعض الأصوات الصادقة أن تصل إلى مواقعَ متقدمةٍ فى الحياة العامة ، تعبّر فيها عن مصالح الجماهير أو قطاعاتٍ عريضةٍ منها .

وأحيانا تمثل الأحزاب السياسية مرحلةً وسطى بين الشعب والحكم فلا يستطيع فردٌ النفوذَ إلى دائرة الحكم إلا مرورًا بنظام الحزب . وللحزب تقاليده ونظامه وولاء الأفراد له . والقرار تتخذه قيادة الحزب فيلتزم به أعضاؤه سواء أكانوا فى

مقاعد الحكم أم كانوا فى مقاعد المعارضة . فهذا النظام ، إذا كان يمثل قَيْدًا على حرية الفرد فى العمل السياسى ، فهو تنظيم لهذه الممارسة ، جاء حصادًا لجهدٍ طويلٍ ، لو أُحْسِن استخدامه لكان أعمق أثرًا وأوسعَ فائدةً .

ولكن إذا أخذنا فى تتبع هذه الأجهزة المسيطرة فى الدول المتقدمة وجدنا فيها نقائصها وعيوبها ، شأن كل نظامٍ إنسانى ، وإن تباينت النقائص فى النوع والدرجة .

ومن الممكن بتركيز الأضواء على هذه المشكلات أن تطفو على سطح الحياة ، وأن تستطيع واحدةٌ منها أن تعصف بحكومةٍ كاملةٍ . والنموذج القريب «قضية ووترجيت» فى الولايات المتحدة الأمريكية . ويبدو أن هذه المجتمعات المتقدمة ، بعد أن نجحت فى التفجير النووى ، قد أخذت بأسلوبه فى التفجير الإعلامى ، فإذا بقضية محدودة تنطلق منها طاقة إعلامية هائلة ، إذا عولجت معالجة معينة ، لتهز أركان النظام وتعصف برءوس كبيرةٍ . وبمن وراءها من جيوش المنتفعين . بينما يرى الناس جميعا ، وفى وضح النهار ، كيف اغتيل رئيس هذه الدولة ــ جون كنيدى عام ١٩٦٣ ــ دون أن تظهر أسرار مصرعه حتى الآن .

والشباب يرى هذا كله ، وتسرى موجات الرفض فيه .. وتتحول الموجات إلى ثوراتٍ فكريةٍ قد تحاول أن تُعبّر عن نفسها تعبيرًا عمليًّا .

٥ ــ رفض باسم الإسلام

وإذا انتقلنا إلى الجانب الآخر ، وجدنا صورةً مقابلةً فى عالمنا الإسلامى سنطيل الوقوف عندها .

وتلتقى مع الصورة السابقة فى مظهر «الرفض» لما هو قائمٌ ، وتتباين عنها تباينًا جوهريًّا فى تصور ما ينبغى أن يكون .

ذلك لأن الحضارة الغربية لها نماذجها المعاصرة والمتكاملة ، وليس للحضارة الإسلامية نظائر لهذه النماذج .

وأقصد بالنموذج المتكامل ما تقوم فيه كل أجهزة هذه الحضارة بعملها فى كافة مجالاتها : سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا وفنيًّا فى شئون الدين والدنيا . وقد يكون هذا الأداء محل قبولٍ أو رفضٍ جزئىٍّ أو كلىٍّ من بعض الأفراد أو الاتجاهات ، ولكنه قائمٌ . والذين ينقدونه ، والذين يدافعون عنه ، لا ينطلقون من فراغ .

أما عن النموذج الإسلامى المتكامل ، فلا نستطيع الادعاء بأنه قائمٌ . عندنا تطبيقات جزئية ومحاولات وتطوير وتجارب . وأحيانا عندنا ثنائيات فى الحياة . موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحابٌ . تيارات ظاهرة وأخرى مستورة . حياة فى العلن وحياة محجوبة . هوةٌ واسعة بين الغنى والفقر . بين العلم والجهل . بين الذين يُعاَلجون من السمنة ، والذين لا يجدون القوت الضرورى . بين القول والعمل .

وإذا تركزت الأعين على هذه المتناقضات ، أخذت تفكر فى التغيير . وليس من العدل أن نحاول تفريغ الفكر الدينى من مضمونه الاجتماعى أو الاقتصادى أو السياسى . ولن تزيد النصيحة فى أى مجال من هذه المجالات عن أن تكون كلمةً طيبةً . والله يصفها ى كتابه فيقول «ألم ترَكيفَ ضربَ اللهُ مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابتٌ وفرعها فى السماء . تؤتى أُكلها كلَّ حينٍ بإذن ربها . ويضرب الله الأمثالَ للناس لعلهم يتذكرون» . (إبراهيم : ٢٤ ـ ٢٥)

٦ ـ مسارات الرفض الإسلامى

ولقد تعددت حركات الرفض الإسلامى وشهد أحداثها أكثرُ من قطر ، ودعوتُ ودعا غيرى ، إلى ضرورة دراستها دراسةً موضوعيةً ، كظاهرةٍ من ظاهرات الحياة الإسلامية ، رغم أن لها نظائر سابقة . ولكنها الآن تكررت ولاتزال تلد جديدًا . وعناصر تكوّنها حيةٌ ونشطة .

وقد أتيحت لى فرص دراسة أكثر من حركة منها ، فوجدت فيها أصولاً توشك أن تكون مشتركةً ، رغم اختلاف مواطن قيامها ، وتباين مواقعها على الخريطة الزمنية للعالم الإسلامى :

١ ـ إنها تبدأ أولاً بالبحث عن مقياسٍ . عن أصلٍ تستند إليه . ولا خلاف بينها في استنادها جميعا إلى القرآن الكريم ؛ ثم تأخذ في تفسير الآيات ، ولا خلاف عندها في التفسير استنادًا إلى السُّنَّةِ المطهرة ، والسنَّةُ بحرٌ واسعٌ . والاستفادة منه تحتاج إلى تمرسٍ وأناة .

ويبدأ الأمر بالعبادة والتوجه إلى الله ، وتكوين مجموعة صغيرة تتعاون على ذلك : يؤدون الصلاة بمزيد من العناية . يطيلون فيها القراءة ، والركوع والسجود . يواظبون على قيام الليل . وتزداد في هذه المرحلة علاقاتهم توثقًا . ويزدادون عن المجتمع بُعدًا وانعزالاً . هذه نواة جماعةٍ جديدةٍ . لا شك في ارتفاع مستواها الأخلاقي عمّا حولها ، وتحريها النقاء في القول والعمل .

٢ ـ ثم تأتي مرحلة جديدة :

ـ ممن نأخذ العلم ؟

ـ لا نأخذه إلا من عالِمٍ عاملٍ . ولهذا العَالِم العامل صفاتٌ ظاهرةٌ ومواقف في الدين واضحة . أوضح ما فيه سمته وملبسه . أين لحيته ؟ لابد من إرسالها مع إحفاء الشارب . وملابسه يجب ألاّ تكون مُسْبَلَة . فإسبال الإزار من المَخيلة . وقد نهت عنه الأحاديث الشريفة . فلا تأخذ دينك من مُسبِلٍ إزار أو حليق لحية . وبهذا يغلقون على أنفسهم بابًا واسعًا من مؤلفات الأحياء والأموات ، فهؤلاء يخالف قولُهم فعلَهم ، ولا يستطيعون أن يكونوا صورةً حيةً للأحاديث الشريفة . يجب ألا تأخذ الإسلام إلا ممن يطبق الإسلام : ويقوم السور الثاني بينهم وبين قومهم .

٣ ـ وما مواقف هؤلاء من الحكام ؟ هل يصرحون بآرائهم فيما يقوم به الحكام من عمل . إن أعمال الدولة تقتضي جوانبَ مظهرية ، وتأليفَ قلوب ، واصطناعَ أُناس . والمال قد يذهب إلى مسالك سليمة أو غير سليمة . والوظائف قد تكون لمن يستحق ولمن لا يستحق . وقد تتعامل الدولة ـ وهي مسلمة ـ بنظام الفائدة مع البنوك العالمية ، فهي في الظروف المعاصرة جزءٌ من نظامٍ عالمي ، لم تستطع بعدُ الفكاك منه ، وتكوين البديل الإسلامي . قضايا كثيرة يمكن أن تكون محل جدل أو مؤاخذةٍ أو إدانة .

وما دام العالِم لا يقول رأيه بكل صراحة فى تصرفات الحكام ، ويُدين هذه الأخطاء أو ما يرونه ـ حتى فى الظروف الزمانية والمكانية ـ خطأً ـ ولهم فى هذا حجة من آية أو حديث ـ فإن هذا العالم مردود القول عندهم . ويقوم سور ثالث بينهم وبين قومهم يغلقون به ـ عمليًّا ـ أبواب الجامعات والكليات إلا قليلاً منها ومنهم . فهؤلاء هم أعوان الظلمة وأبواق الحكم وعلماء الدولة لا علماء الدين .

٤ ـ وماذا بعد هذه الأسوار الثلاثة ؟

والأهل : لنزنهم هم أيضا بهذا الميزان الدقيق . الأب الذى يكسب رزقه من مال الحكومة ، ويدخل فيه الربا ويتعاون مع الظلمة . والأهل المهادنون أو المستضعفون . إن سَلْبِيَّتَهُم هى التى شجعت الظالم على ظلمه ، وأعطت الفرصة للحاكم أن يتمادى فيما هو سائر فيه .

ويقيمون السور الرابع بينهم وبين المجتمع . اعتزال الأهل . وليبحث كلٌّ منا عن كسب حلال يعيش به . المدارس فاسدةٌ . الجامعات فاسدةٌ . الوظائف مشبوهةٌ . المال الذى فيها خالطه الربا والسُّحْت . الأهل سلبيّون مستضعفون . المجتمع فاسد . أين نعيش ؟

٥ ـ ويبحثون لأنفسهم عن مأوى يلجأون إليه «وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربّكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا» (الكهف : ١٦) . وفى أكثر من حركة رفض . ذهب أبناؤها إلى كهوف الجبال ، أو سكنوا منازل منعزلة . وتركوا وراءهم الأهل إلا إذا آمنوا بمثل ما آمنوا به . وأحيانا يصحب الأخ الأكبر أخاه الأصغر بعد أن يقتنع بهذا الاتجاه ..

وما بعد ؟ .

٦ ـ وتأتى فترة دراسةٍ وقراءةٍ لا يعتمدون فيها إلا قليلاً على كتبٍ خارجية . وآراء فقهاء تتفق ومواقفهم ـ أو بعض مواقفهم ـ معهم . ولكن لابدّ لهم من زادٍ فكريٍّ يكتبونه لمن يرغب فى الانضمام إليهم ، أو يرغبون فى ضمه :

وتأتى مرحلة سادسة من التأليف الخاص . ولا نكاد نجد جماعةً منهم إلا ولها كاتبٌ أو أكثر يعبّر عن رأيها : قد يكون رئيسها أو يكون غير الرئيس ، وتتوفر عنده القدرة على الإبانة عن رأى الجماعة فى رسائل موجزة قريبة التناول . ولا مانع من التوسع فى التأليف ردًّا على شبهات تثار من حولهم . قد يطبعون هذه الرسائل . وقد يتناقلونها مكتوبة باليد حسب ظروفهم . وقد يسجلونها على أشرطة (كاسيت) . ولكنها تصبح عندهم أساسًا فكريًّا يوضح مواقفهم من المجتمع من حولهم .

٧ ـ ويزيد عدد الرافضين للمجتمع . ومعظمهم من الشباب مع قيادة متقدمة عنهم فى السن قليلاً أو كثيرًا . يعيشون فى هذه الأجواء المغلقة . معتزلين قومهم نفسيًّا دائمًا ، وماديًّا أحيانًا . ولابدّ أن يُعَبِّر هذا الأسلوب عن نفسه نحو المجتمع . لابدّ من التغيير . وللتغيير عدته . القولُ وحده لا يكفى . وقد يضطهدهم المجتمع وقد بدأ . لماذا لا يدفعون عن أنفسهم ؟ والدفاع عن النفس حق ؟

٧ ـ جماعة من المسلمين أم جماعة المسلمين ؟

وعند الحديث عن الدفاع ـ وأحيانا قبل ذلك ـ يبرز سؤال :

ـ من هم ؟
ـ وما حق بعضهم على بعض ؟ وواجب بعضهم على بعض ؟
ـ هل هم جماعة من المسلمين أم جماعة المسلمين ؟

والذى يرجح عندهم أنهم «جماعة المسلمين» ماداموا قد أدانوا الحكام والحكم ، وأجهزة الدولة والمجتمع .. وماداموا ـ بموازينهم ـ قد استعرضوا الحكومات الإسلامية فلم يجدوا من بينها من يعبِّر تعبيرًا سليمًا . أو قريبًا عمّا يعتقدون أنه الحق . ويتخذون لأنفسهم من بينهم أميرًا :

يقول عليه الصلاة والسلام :

ـ « إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا عليهم أحدهم » . (رواه أبو داود عن ابى

سعيد وأبى هريرة (رضى الله عنهم) ـ كنز العمال للمتقى الهندى ٦ : ٧٠٦ ط حلب) ويتحول أمير الثلاثة إلى أمير جماعة . ويصعّد الأمر من إجراءٍ تنظيمى يمارسه الناس فى حياتهم اليومية إلى إمارة دينيةٍ ، لها عليهم حق الطاعة . ولا يخلو التنظيم من بيعة لهذا الأمير . فيأتمرون بأمره ، فكيف يعبِّرون عن أنفسهم ؟

ـ هل يبنون مجتمعًا جديدًا ؟ ولكن أين ؟ المجتمع الجديد مكانٌ وبشرٌ ونظامٌ . هل يبدأون من فراغ ؟ هل يبحثون عن مكان غير مأهول ؟ هل هى رهبانيةٌ جديدةٌ ؟ صوامعُ إسلاميةٍ ؟ هذه غير واردةٍ فى أذهانهم . وإن كان أسلوب اجتناب الناس والاعتزال فى شعاف الجبال له ما يبرره فى عصور الفتن .. هكذا يطلقون على العصر الذى تسود فيه قوى لا تُنفّذ تصوراتهم عن الحياة الإسلامية . ولقد فُتِح بابُ الفتنِ الدامى ـ فى قلب عهد الخلفاء الراشدين ـ فى عهد ذى النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه وعن صحابة رسول الله أجمعين . وحروب الردَّه من قبلها : ألم تكن فتنة واختبارًا خطيرًا .. بل أكبر اختبارٍ ـ فى وقته ـ للكيان الإسلامى الجديد ؟ بعض الجماعات المعاصرة كانت على حذرٍ شديدٍ من هذا الأمر ـ أمر الدفاع عن النفس واستخدام القوةِ المادية فيه ـ أو استخلاص مكان يعيشون فيه ، فلم تَمُدَّ يدها إلى قطعة سلاحٍ .وأصرت إصرارًا جازمًا على أن يظل الصراع بينها وبين المسيطرين على الحكم الإسلامى محصورًا فى مجال الفكرة والحوار بالكلمة ، ومن داخل المؤسسات القائمة .. ولهذا استطاعوا الاستمرار .

ولكن الجماعات التى غلب عليها الشباب ، فكانوا قادتها . أو استطاعوا بفكرهم أن يسيطروا على قياداتها ، أدخلوا فيها عنصر السلاح : باسم الدفاع عن النفس ، أو على الأقل باسم التدريب ، وقد يصل الأمر إلى الهجوم . ولكل موقفٍ من هذه المواقف الثلاثة عندهم ما يبرره :

١ ـ أما موقف التدريب فيأخذونه من الحديث الشريف « .. ومن تعلَّم الرمى ثم نسيه فهى نعمة جحدها » (رواه الخطيب عن أبى هريرة ـ الجامع الكبير للسيوطى ١ : ٧٦٤ ط . الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة) فيعتبرون التدريب فى ذاته عبادة . ومن أجل ذلك يحصلون على السلاح . ويتخصص نفر منهم فى

العناية به وحفظه - واصطحاب الأفراد إلى المناطق الخلوية والجبلية - والبعيدة للتدرب عليه .. فهذا على الأقل عبادةٌ وتطبيق لآياتٍ كريمةٍ ولأحاديثٍ شريفة .

ولكن لوجود السلاح تأثيره النفسى على الذين يتولون أمره - والذين يتدربون عليه .. قطعة السلاح الصغيرة تدعو إلى التدرب على الأكبر منها . والسلاح العادى يدعو إلى التدرب على السلاح الآلى (الأوتوماتيكى) ، وعلى الأسلحة ذوات المناظير . ويتدرج الأمر إلى القنابل اليدوية بأنواعها والألغام .. وشيئًا فشيئًا تتسع دائرة السلاح - ويقوى أمر الذين يَتَولّونه .. وشيئًا فشيئًا يحاولون «إثبات ذاتهم» . ويحاول هذا السلاح أن يعبِّر عن نفسه . ولو فى تجارب أو معارك جانبية .. ويبدأ السير الدموى .

٢ ـ ويبدو من هذا كيف تتداخل أهداف السلاح : من التدريب إلى الدفاع إلى بدء الهجوم .. وسأركز فى هذه النقطة الثانية على الدفاع . لنسأل أنفسنا وعمليًّا : كيف تستطيع جماعةٌ محدودةُ العددِ ـ مهما كانت قوتها ـ أن تسيطر على دولة لها جيشها وقواتُ أمنِها والأجهزة الحاكمة فيها ؟ لا تستطيع - إلا إذا كانت الدولة قد بلغت أدنى المستويات ، وتمزقت أوصالها - بحيث اجتذبت محاولات ومغامرات التغيير الجذرى . أما والدولة فى قوتها ، فإن وجود السلاح فى أيدى الذين يرغبون فى التغيير والاحتفاظ به بحجة الدفاع عن النفس ، لا يعدو أن يكون نوعًا من امتداد مرحلة التدريب . ثم إن استخدامه سيكون مرتبطًا ـ كما أثبتت أحداث الصراع بين الجماعات الرافضة والحكومات ـ بظروفٍ تكونُ الجماعةُ فيها أقرب إلى اليأس ، وكثيرًا ما كان هذا التحول ، من التدريب إلى الدفاع ، المدخلَ إلى القضاءِ على الجماعة .

٣ ـ أما مرحلة الهجوم فلا تحدث إلا فى سيادة الفكر العسكرى على الجماعة بعد أن يزداد عَدَدًا وعُدَّة ، وتصبح كلمتُه أعلى من كلمة أصحاب الفكر والرأى ، الذين يرون الاقتصار على النصيحة القولية أو التفاعل النيابى عن طريق الانتخابات العامة والاتحادات والنقابات والجمعيات .. وبعبارة أخرى : كثيرًا ما يأتى البروزُ العسكرى لشخصية الجماعة لاحِقًا لصراعٍ داخليٍّ فيها ، بين الذين يرون الاقتصار على الفكرة ، والتحول إلى عمل له صبغة عسكرية ، فيتصرف الجناح

العسكرى : إمّا بتوجيهٍ من كبار الجماعة ، أو بسيطرته على القيادة أو بتوريطٍ لها ..

وماداموا قد اعتبروا أنفسهم «جماعة المسلمين» ، وأنهم نقطةُ بدءٍ فى مَدٍّ إسلامى جديدٍ أو بعثٍ إسلامى جديدٍ ، فلقائدهم عليهم حقٌّ الطاعةِ . لقد أصبحوا ــ فى نظر أنفسهم ــ أمةً واحدةً دون الناسِ . محياهم معًا ومماتهم معًا .. وماداموا قد اعتزلوا قومهم ، فمن السهل أن يعتزل بعضهم بعضًا وقد يبدو هذا أول الأمرِ متناقضا . ولكنه الامتداد الطبيعى لفكرة الاعتزال .

٨ ــ ظاهرة الانتحار الجماعى

وقد يبدو عنوان هذه الفقرة غريبًا .. فما الذى أقصده بالانتحار الجماعى ؟

لو تأملنا النهايات المأساوية لأكثر من جماعة إسلامية رافضة ، لوجدنا أنها حصرت نفسها فى نطاق ضيق ، يقيد حرية حركتها . وهى فى ذات الوقت ما اعتزلت إلا لتعمل ولتؤكد وجودها . ويشتد هذا الصراع بين الرغبة والقيد ، أو قُل بين الأمل والقدرة .. وتبدأ عملية نفسية أخرى :

ــ ألسنا على الحق ؟ علينا أن نعمل . وسينصرنا الله إذا كان الناس قد تخلوا عنّا . وإذا ضاقت بنا الدنيا ففى الآخرة سعة . وإذا لم نستطع أن نعيش عيشة المجاهدين فلْنَمُت ميتة الشهداء . ولكن لابّد من التخلّص من بعض رؤساء الشر و«الطواغيت» الذين وقفوا فى طريقنا ..

ومن المنطق ــ أنهم قبل الوصول إلى هذه المرحلة ــ يكونون قد مرّوا فى حوارٍ أو صراعٍ بينهم وبين قومهم . وأن الدولة قد وجهت أنظارها إليهم . وأنهم قد ذاقوا تجربة المحاكمة أو الاعتقال أو السجن أو التشريد .. ورأى بعضهم من بطش الدولة ما يدعوه إلى تجنب الوقوع بين يديها مرة أخرى وأن الموت أهون عنده .. وليس من رَأَىَ كَمَنْ سَمِعَ ..

فى هذه المرحلة تختلط فى نفوسهم دوافع الانتقام ، بالتعبير عن الذات ، بالعجز عن العمل الإيجابى البنّاء ، بالضيق من وضعٍ قائمٍ ليس فيه بصيصُ

الأمل للنجاح ، بالتيبس على أسلوب وضعوا أنفسهم فيه ـ ولا يجدون الجرأة على مصارحة أنفسهم بخطأ الأسلوب أو حتى إمكانية تعديله ـ بالتعذيب ، وإذا ارتبط بأسلوب حياة ، أكسبه ـ أحيانا ـ قداسةً ، أو على الأقل احترامًا . لقد وصلوا إلى نقطة اللاعوده ، وليس أمامهم إلا كتابة الفصل الأخير من القضية وكثيرًا ما يكون طريقهم إلى الآخرة .. شهداء أو سجناء ..

وفى العادة يكون هذا الفصل ذا دوىٍّ كبيرٍ ، كأنه انهيار المعبد على شمشون وعلى أعدائه . قد يكون محاولة اغتيال شخصية مسئولة . قد يكون اختطاف رهينة . قد يكون اعتصامًا واحتلالاً لمكان كريم ، قد يكون كمينًا لقوة أمنٍ ، أو سلسلة من أعمال النسف والتخريب .

وحتى فى حالة النجاح الجزئى ، فى عمليةٍ من هذه العمليات ، فإن قوة أجهزة الدولة ، والرغبة العامة فى الاستقرار والأمن ، والخوف من الأسلوب الدموى المتبع ، واتساع مجال الإجراءات التى تتخذها الحكومة لحسم الموقف . كل أولئك يكفى لتحديد نتيجة هذا الصراع ، وما يتبعه من إجراءاتٍ ومحاكماتٍ ، وإنهاءٍ لدورةٍ دمويةٍ من دورات الرفض الإسلامى .

هذا الاندفاع المحموم إلى النهاية المأساوية هو الذى سميته ، « ظاهرة الانتحار الجماعى » .

عمليًّا : هو انتحار . فالنتيجة تكاد أن تكون محدّدة . والذى يبتغيه الرافضون الذين يصلون بأنفسهم إلى هذا الخانق الضيق والطريق المسدود ، أن تكون نهاية حياتهم بأيدى غيرهم ، لينالوا ـ كما آمنوا ـ ثواب الشهادة فى الآخرة ، إذا عجزوا عن تحقيق ما آمنوا به فى الدنيا .

ولك أن تنظر إلى الأحكام التى صدرت فى هذه القضايا : فستجدها ـ فى الغالب ـ أحكامًا جماعيةً . الإعدام ، أو السجن الطويل ويشمل أعدادًا كبيرةً ، ويتجه أول ما يتجه إلى القياداتِ المسئولة فيها ، إلا إذا عصمها التقدم فى السن أو بعض الموازنات السياسية .

٩ ـ الرفض ظاهرة عالميـــة

وإذا انتقلنا إلى الجانب المقارن فى هذه الدراسة : وجدنا الرفض ظاهرةً عالميةً ، لا تقتصر على عالمنا الإسلامى . وهى فى أبسط صورها رغبةٌ فى التغيير ، وابتعاد عن الواقع : قد يأخذ صورةَ العودة إلى بساطة الحياة الطبيعية : أبسط الثياب والطعام والمسكن . بل وأبسط النظافة . وتمثلها جماعات الهيبيين الذين انسلخوا من حياة الغرب المعقدة إلى بساطةٍ تقرُب من الضياع . وما رأوه تحررًا من مدنية الغرب ، كان وقوعًا فى أسر البطالة والشهوة والإهمال والغيبوبة فى دخان المخدرات أو كئوس الخمر .

وهناك الجماعات التى لم تقف من الحكومات موقفًا سلبيًّا ، وإنما أخذت تقاوم ما تراه من أخطاء . وكان التفاعل بينها وبين الحكومات ـ إلى حدٍّ بعيدٍ ـ سلميا طالما كانت هذه الجماعات مقتصرة على الكلمة ، والمظاهرة ـ فى حدود مقبولة ـ والاجتماعات الخطابية . ولكن يبدأُ التوتر حين تلجأ هذه الجماعات إلى الصدام المسلح والتصفيات الدموية ، وهذه لها نماذجها فى أمريكا اللاتينية والشمالية وأوربا ، بل لها تعاونها الدولى . حتى كاد هذا النوع من الرفض أن يتحول إلى حكومة خفية لها حق التشريعِ والقضاءِ والتنفيذِ ، فى غيبة المتهم ، الذى يفاجأ بسيلٍ من الرصاص ، أو اختطافٍ أو نسف .

إن تكرار هذه الأحداث فى الغرب له تأثيره على الفكر فى العالم الثالث كله . أو العالم الثالث والرابع إذا أخذنا بالتقسيم الأحدثِ الذى يميز فى العالم الثالث القديم بين قطاعين : أحدهما للأغنياء والثانى للفقراء ، وإن جمعهما التخلف العلمى بالنسبة إلى العالمين الأول والثانى ، وهما المعسكران الشرقى والغربى .

فلكل من هذين العالمين ـ الثالث الغنى والرابع الفقير ـ مشكلاته ومتناقضاته وتأثره بموجات الرفض العالمية من ناحيةٍ ، وتراثه الحضارى من ناحيةٍ أخرى .

كذلك إذا نظرنا إلى الأوضاع الحكومية فى هذين العالمين ، وجدناها تمر فى مرحلة حملت بذور متناقضاتٍ جديدة إلى مجتمعاتها وبخاصة فى عالمنا الإسلامى .

فمع ظهور النفط أخذ العالم العربى والإسلامى يقوم بدورٍ متصاعد الأهمية فى

السياسة العالمية . وفى ذات الوقت : كان على حكوماته أن تقوم بمشروعاتٍ للتنمية الاجتماعية والاقتصادية . وكان تدفق المال بمعدلٍ أعلى بكثيرٍ مما تستطيع استيعابه فى مشروعاتها السنوية أو الخمسية ، وما تستطيع أجهزتها العلمية وحدها وإطاراتها الفنية ، وأيديها العاملة ، أن تقوم بأمره : وكانت نتيجة تفاعل هذه العوامل :

١ ـ التوسع فى التعليم بكافة فروعه : المدنى والدينى والعلمانى الأجنبى ، بكل ما تحمل هذه الفروع من متناقضات ، وزيادة حجم البعثات العلمية إلى الخارج ، مما أدى إلى تكوين قطاعٍ من المثقفين ثقافةً غربيةً ، مع نشاط الفكر الدينى ـ فى ذات الوقت ـ محافظةً على الأصالة ، ومنعًا من اندفاع العالم الإسلامى فى تيار التحديث الغربى المفتوح بلا ضوابط .

٢ ـ ظهور قطاع من كبار المقاولين وأصحاب الشركات ليعاون فى تنفيذ خطط التنمية الطموحة .

٣ ـ وفرة المال فى أيدى قطاعٍ من الشعب فى كل قطرٍ من هذه الأقطار والاندفاع إلى الإنفاق الاستهلاكى والترف ، والتنافس بين القادرين على ذلك .

٤ ـ ومع تيسر سُبل الاتصال ـ وبخاصة الطيران ـ اندفعت أفواج وأمواج من الزائرين والسائحين من الأقطار العربية والإسلامية إلى مناطق الحضارة المتقدمة فى أوربا وأمريكا وأقطارٍ من الشرق الأقصى ، وارتبط بهذا إسرافٌ فى الإنفاق ملفتٌ للنظر ، ويدعو إلى التعليق المتباين الزوايا والأصداء .

٥ ـ ما قام به بعض الكتاب والصحفيين الغربيين من حملاتٍ دعائيةٍ منظمةٍ ضد العرب والمسلمين وبخاصة فى موضوع الإسراف والإنفاق .

٦ ـ ما صحب التطور الحديث من تحركاتٍ سكانيةٍ واسعةٍ ، من مناطق الازدحام والفقر والندرة ، إلى مناطق الوفرة والتخلخل السكانى . وشمل هذا التحرك السكانى قطاعاتٍ متباينة : من أعلى مستويات التخصص إلى قاعدة العمل اليدوى ، وامتدت جاذبيته فجاءت إلى قلب العالم العربى والإسلامى بوافدين من أقصى المشرق إلى أقصى الغرب . وأصبحت الأقطار الإسلامية المعتمدة

على إنتاج البترول ، عالمًا يضم العشرات من الجنسيات واللغات والأديان والاتجاهات كأنها أكوانٌ صغيرةٌ تصور عالمنا الكبير . ولكل من هذه أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية ، ورغباتها المتنوعة بين الإقامة الطويلة والاستقرار والإقامة القصيرة .

٧ ـ ونستطيع أن نتصور المسئوليات المتزايدة التى أصبح على الأجهزة الحكومية فى هذه الأقطار أن تتحملها فى مجال الإدارة ، والاحتفاظ بتماسك النواة الوطنية ، وتوازن القوى الاجتماعية والاقتصادية ، والمعادلات السكانية بين المواطنين والوافدين ، والتنسيق بين التيارات الفكرية والمستويات والثقافات ، وتوفير الأمن والاستقرار .

٨ ـ كما نستطيع أن نتصور اتجاهات الاعتدال والتطرف التى يمكن أن تفرزها كل هذه التفاعلات ، ومدى انعكاس ما يحدث فى الأقطار المجاورة بل والبعيدة ، على الأوضاع الداخلية لهذه الأقطار .

٩ ـ ولم يكن من المستطاع أن يسير التطور السياسى بذات السرعة التى سار بها التطور الاجتماعى والاقتصادى . فبينما اقتضى معدل التنمية المتزايد إشراك أيدٍ كثيرةٍ فى الأنشطة الاقتصادية ، واقتضت النهضة التعليمية تكوين قطاع مثقفٍ متعدد الاتجاهات ، فإن الأمن السياسى اقتضى مزيدًا من السيطرة على كل القوى الاجتماعية ، الوطنية والوافدة ، وعلى التيارات المحافظة والتقدمية ، بحيث تسير عجلة الحياة فى توازنٍ دون أن تعوقها قوى مُتيبِّسة ، أو تدفعها عن الطريق قوى جامحة . وكان هذا مجالاً للحوار الهادئ أحيانًا ، والساخن أحيانًا بين القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وبين الأجيال الجديدة والسلطات الحاكمة .

١٠ ـ الرفض الإيجابى والسلبى

ونود أن يوضع مفهوم «الرفض» فى مكانه الصحيح . فقد شاع استخدام الكلمة ، وتناولتها أقلامٌ وعقولٌ كثيرةٌ . ولكن لنبدأ بدءًا متواضعًا ونقول : إنه الرغبة فى التغيير . ونستطيع فى هذه الدراسة أن نستخدم الكلمتين متكاملتين :

الرفض والتغيير . والرفض موقفٌ ، والتغيير عملٌ معبرٌ عن الرفض .

وما أظن مجتمعًا صحيًّا يرحب بالرفض السلبى ، الذى لا يرضى بما هو قائمٌ ، ولا يساهم فى تصور ما ينبغى أن يكون . والذى يشيع القلق والضيق واليأس ويحاول أن يبرر بالسلبية عجزه عن المساهمة الإيجابية فى بناء الحياة .

أعرف كثيرين يمضون أوقاتًا طويلةً فى نقد ما هو قائمٌ ، كأنما هم فى سياحةٍ فكريّةٍ ، يعودون بعدها إلى أرض الواقع ، ليتابعوا السياحةَ من جديدٍ . وكنت أحيانًا أجلس إليهم صامتًا لأرى قسمات وجوههم وهم يتحمسون وينقدون ويختلفون . وكثيرًا ما يجمعهم الطعام فيأكلون ثم ينصرفون ليعودوا بعد أيام إلى نفس الكلام . وهذا الرفض المسطح السلبى لا علاقة له بموضوع دراستنا .

وإنما الذى يستحق الوقوف هو الرفض الإيجابى الداعى إلى التغيير . ولو تغيير فكرةٍ بفكرة .

وكنت أستمع أحيانًا إلى خطباء مساجدنا وهم يكثرون من الحديث عن سلبيات المجتمع ، دون أن يحددوا للمستمعين خطًّا إيجابيًّا للحياة ، حتى أصبح النقد أبرزَ سماتِ خطب الجمعة ، وأصبحت شجاعة الخطيب تقاس بمدى عنفه فى نقد الأجهزة الحاكمة . وينتهى الأمر أحيانا بتنحية الخطيب عن موقعه ، أو تعديله لأسلوبه ، إذا ما اتضحت له وجهة نظرٍ جديدة .

إن الرفض الداعى إلى تعديل السلوك إلى ما هو أفضل ، هو المرغوب فى حياتنا . ولو انتهى الحوار بين اثنين ، أو انتهت خطبة الجمعة ، بقضيةٍ إيجابيةٍ واحدةٍ ، ترفع من مستوى سلوك الفرد أو الجماعة ، لأدَّتِ الخطبةُ أو الحوارُ واجبها ، وآتت أكلها .

وهذه الإيجابية فى الرفض تتدرج من الجزئيات إلى الكليات ، وتتنوع مع مجالات الحياة ، وتزداد قيمتها كلما جاءت بعد دراسة وتمعن ، واحتوت مادةً صالحةً للتطبيق ، مقبولةً من قائلها وسامعها ، بمعنى :

أن يكون فيها ما يشجع السامعَ على محاولةِ التطبيقِ ، دون أن يشعر أن بينه وبينها فجوةً كبيرةً .

كذلك وتتدرج الإيجابية فى مدى الفاعلية ، وتتضح فيها مواقع المسئولية عن التغيير : ما هو داخل فى مجال الأفراد ، وما هو داخل فى مجال الدولة ، وأسلوب الحوار المثمر بينهما .. وقد يتعدى أسلوب التغيير ما تعارف المجتمع على قبوله من الطرفين : الحاكم والمحكوم وهنا يحدث التصادم . وقد يكون الرفض مما يمكن تداركه قبل أن ينتقل من حوارٍ إلى صدامٍ ــ أو قبل أن ينتقل من تغيُّرٍ كميٍّ إلى تغيرٍ كيفيٍّ ــ إذا أردنا استخدامَ اصطلاحٍ من قوانين التغير فى المجتمعات حسب بعض الاتجاهات المعاصرة . والقضية هى : كيف يحدث الحوار بين الأفراد والدولة ليثمر تقدمًا فى المجتمع ، بأسلوبٍ صحى ، يتجنب الصدام ما استطاع إلى ذلك سبيلا ؟ وسنركّز القول على الحوار فى القطاع الإسلامى ، أى على الأمة الوسط المبتغاة .

١١ ـ ليس الإسلامُ وحده فى الميدان

وأبادر فأقول : ليس الإسلام وحده فى الميدان . فقد رأينا فى صدر هذا البحث التيارات الرئيسية فى حياة العالم الإسلامى وما لها من فروع . وأن ما يراه الذين يعملون فى الحقل الإسلامى مسلّمات فرغوا منها ، وانطلقوا إلى ما وراءها ، ما زالت عند غيرهم محلٌّ جدلٍ ، وعند آخرين مجالُ تشكيكٍ قد يصل إلى التكذيب . وقد يكون البعض صرحاء فى عدائهم الإسلام باسم التغريب أو العلمانية . وقد يستخدم بعضهم الإسلام وسيلةً من وسائل الحكم والسيطرة الشعبية . ويحاولون ترويض الإسلام والمسلمين بإرهاب السوط والقيد ، أو إغراء الجاه والمال .

وكل هذه التيارات تفرض على الذين يعملون للإسلام أن يكونوا على بصيرةٍ ، وأن يحسنوا استخدام قدراتهم ، والإفادة منها إلى أبعد مدى ممكن . ونستطيع أن نسمى هذا «اقتصاد الجهد» فى العمل الإسلامى ، إذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير . ذلك لأن الذين يعملون ضد الإسلام ، أو الذين يسعدهم أن تتعثر مسيرته ، يحاولون ، أو على الأقل لا يحولون ، دون أن يصطدم العمل الإسلامى بعضه ببعضٍ ، أو بحكومةٍ تستهلك الجانبَ الأكبر من طاقته فى صراع

داخلى ، ليخرج من معركته نازفَ الدمِ ، مهيضَ الجناحِ ، ويشغله تضميد الجراح وكفالة أسر الضحايا عن متابعة جهاده إلى حين .

يبدو من هذا أن استنزاف الجهد الإسلامى قد يتجه إلى أربعة مسالك :

١ ـ صراعٌ فيما بين القوى الإسلامية .
٢ ـ صراعٌ فيما بينها وبين اتجاهات أخرى فى المجتمع أى فى القاعدة الشعبية ذاتها .
٣ ـ صراعٌ مع الحكومات المحلية .
٤ ـ صراعٌ تحركه قوى أجنبية قد تكون ظاهرةً أو خفيةً تهيئُ الجو لضرب العمل الإسلامى .

فالعمل الإسلامى ليس مجردَ تحركٍ أو نشاطٍ ، أو تعبيرٍ ، أو رغبةٍ فى التغيير ، أو اندفاعٍ عاطفىٍّ أو فورةٍ عابرةٍ ، ولو كان الذى يتولى أمره حكومة مسئولة لها قوتها وفاعليتها ، وإنما هو فى جوهره تخطيطٌ واستراتيجيةٌ شاملةٌ ، تراعى كل هذه القوى والمتغيرات فى عصرٍ تشابكت فيه الروابط وتداخلت فيه التفاعلات ، بحيث تدعو إلى مزيدٍ من الحذر فى اختيار مواقع الأقدام ، وتأخذ فى اعتبارها العناصر المادية والمعنوية التى يتكون منها الموقف . وما دام الهدف الأسمى هو خدمة الإسلام ، فمن الخير أن تتضح مستويات وآفاق هذه الأنشطة .

١٢ ـ مستويات القوة فى المؤسسات الإسلامية

وإذا نظرنا إلى هذه المستويات وجدناها بدورها أربعةً :

١ ـ الأفـراد .
٢ ـ الجماعات والمؤسسات الشعبية .
٣ ـ الحكومات الإسلامية .
٤ ـ المؤسسات الدولية الإسلامية كمنظمة المؤتمر الإسلامى .

وواضح أن أقوى هذه المستويات هو الثالث : إذ يمتلك السلطة التنفيذية القادرة على تحويل الفكرة إلى عمل . وإن كانت حرية حركته عليها ـ عمليًّا ـ قيودٌ ، ولها حدودٌ على المستوى الداخلى والخارجى .

ولما كان هذا هو المستوى الأقوى لذلك أفضّل البدء به ، فمنه تتفرع مجالات العمل إلى المستويات الأدنى والأعلى .

١٣ ـ الحكومـــات الإســـلامية

وأتصور أن يكون العمل الحكومى فى ظل الإسلام أقرب ما يكون إلى « صبغة الإسلام » ، وبخاصة فيما يطمئن به الشعب المسلم ، وما لا يضير الحاكم فى شىء ، والذى يَشْعُرُ المحكومون معه ، أن الحاكم قريبٌ منهم ، وقريبٌ من ربه ؛ فضلاً عن أن هذا « فطرة » تلتقى عندها أوامرُ اللهِ بأحكام العقل والعدل ، ويستوى فيها من يؤمن بالإسلام كدين ، ومن يؤمن بالعدل ومسئولية الحاكم ، كقاعدة سليمة للعلاقة بينه وبين المحكوم ..

(١) وأول هذه الأمور : الابتعاد ما أمكن عن مظاهر الترف فى الحكم ، والترف ـ فى مفهومه اللغوى ـ التوسع فى النعمة . وما جاء فى القرآن إلا مذموما . كقوله تعالى « واتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُترِفُوا فِيه وكانوا مُجرِمين» (هود : ١١٦) . وقوله تعالى «وكَم قَصَمْنا مِن قَريَةٍ كَانَتْ ظَالِمةً وأنشَأنا بَعدَها قومًا آخرين . فلما أحسّوا بأسنَا إذا هُم مِنْهَا يَركُضُون . لا تَركُضُوا وارجعُوا إلى ما أُترِفتُم فيه ومَسَاكِنِكُم لعلكم تُسألُون» (الأنبياء : ١١ ـ ١٣) وفرق بين الغنى والترف . فالغنى ـ مع الإحساس . الدائم بالافتقار إلى الله ـ محمودٌ . ويأتى الطغيان من فَقْدِ هذا الإحساس . يقول ربنا جلَّ وعلا «كلاَّ إنَّ الإنسانَ ليطغَى أنْ رآه استغنى» (العلق : ٦ ـ ٧) ولم تقل الآية «إن استغنى» . فالطغيان يأتى حين يشعر الإنسان أنه استغنى . وهو حالةٌ نفسيةٌ قد تأتى نتيجة وضعٍ اقتصادى أو اجتماعى .

وقد يلى الحاكمُ أمرَ المسلمين مع شعورٍ دائمٍ بالافتقار إلى الله . ولنا فى رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنةٌ : كيف عاش وكيفَ لَقِى ربه . وظل عهد الخلافة الراشدة على هذا المستوى الكريم ، لولا ما كان من بعض ولاة الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وما بدا عليهم من مظاهر الترف التى كانت من أسباب الفتنة الكبرى .

وعندما حاول الخليفةُ الرابع ـ عليٌّ بن أبى طالبٍ ـ كرم الله وجهه ـ أن يوقف التيار ، كان الناسُ غير الناسِ والزمانُ غير الزمانِ ...

وحتى الآن ، وفى أعماق نفوسنا ، مازلنا نعتبر هذا المقياس من أدق ما توزن به الدولات والحكام . وبهذا الميزان يحتل عمر بن عبد العزيز ، وصلاح الدين الأيوبى فى المشرق الإسلامى ، وعبد الله بن ياسين ويوسف بن تاشفين فى المغرب الإسلامى ، فى نفوسنا مكانًا عليًّا .

نعم : إن للحكم ما تعارف عليه الناس من مظهر وتقاليد . ولكن الحديث هنا عن الإسراف والترف . وبخاصة إذا كانت الأمة تمر فى فترة ضيق ، والهوة واسعة بين أصحاب النعمة وأصحاب الفاقة .

(٢) وإن الأمة لا تنظر إلى الحاكم كفرد وإنما كمؤسسة ، وتزن تصرفات مَنْ حوله وتضعها فى ميزانه . ويبدو جانب من قوة إرادته وحُسن سياسته فى اختيار معاونيه . ومن طبيعة الحكم أن يجتذب عناصر متباينة الاتجاهات والأهداف . وتوضح الأحاديث الشريفة الآتية جوانب من هذه المسئولية الفردية والجماعية :

- « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئًا فشقّ عليهم فاشقق عليه . ومن ولى من أمر أمتى شيئًا فرفق بهم فارفق به . رواه مسلم عن عائشة » (رضى الله عنها) .
- « الدين النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال : لله ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » . رواه مسلم عن تميم الدارى .
- « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبّ وكره ، إلا أن يُؤمر بمعصية ، فإنْ أمر بمعصية فلا سَمْعَ ولا طاعة » . رواه مسلم عن ابن عمر (رضى الله عنهما) .

ويبين الحديث الآتى تدرج المسئولية وتوزعها بين الحاكم والمحكوم :

- « ألا كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته . فالأمير الذى على الناس راع ، وهو مسئول عن رعيته . والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسئول عنهم . والمرأة راعية على بيت بَعْلِها وولده ، وهى مسئولة عنهم . والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه . ألا فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » . رواه

مسلم عن ابن عمر . (ويراجع فى هذه الأحاديث جميعها كتاب الإمارة من صحيح مسلم) .

(٣) وانطلاقًا من قول المصطفى (ﷺ) «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» تبدو الرعاية حقًّا وواجبًا ومسئولية . ويبدو دور الدولة فى فتح باب الشورى ومكانة الحوار الخصب بينها وبين الرعية . ولا تزال هذه الممارسة من أدق ما يلقى العالم الإسلامى فى تطوره .

ـ فما القدر الذى تمارس فيه الأمة مسئولية الشورى ؟

ذلك لأن الشورى فى الإسلام تأخذ اتجاهين رئيسيين : أفقى ورأسى . أما الأفقى فيمثله قوله تعالى فى وصف المؤمنين : «وأمرهم شورى بينهم» . (الشورى : ٣٨) والرأسى يمثله قوله تعالى مخاطبًا رسوله الكريم (ﷺ) : «وشاورهم فى الأمر» (آل عمران : ١٥٩) : شورى بين الحاكم والمحكوم ، وشورى فيما بين المحكومين . وهى بهذا تنسج خيوط ثلاثة مواقع : القيادة والزمالة والاتِّباع . ويتعود بها الفرد أن يؤدى دوره مع تغير موقع عمله . ذلك لأننا لو تعمقنا تحليل الآيتين السابقتين لوجدنا الأولى تأتى وصفًا للمؤمنين وسط حشد من صفات أخرى . فالله تعالى يقول «والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون» . (الشورى : ٣٨ ـ ٣٩) . والغالب فى السياق مفهوم الاستمرار : الاستجابة الصلاة . التشاور . الإنفاق . الانتصار ... كأن الشورى صفة ملازمة وشعيرة تؤدى . أما الآية الأخرى فيبين سبب نزولها أنها كانت مرتبطة بغزوة أحد . وفيها كان رأى المصطفى عليه الصلاة والسلام البقاء فى المدينة والدفاع عنها . ثم كان له بعد الخروج إلى مكان الموقعة خطة واضحة حدد بها مكان الرماة ومهمتهم . ومع أن الرماة خالفوا عن أمر الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن له ، بعد أن لبس لامة حربه ، أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، إلا أن المصطفى (ﷺ) لم يتخذ من أخطاء الصحابة ذريعة لإهدار الشورى . وجاء القرآن الكريم يؤكدها فى جوّ العفو والمغفرة وسماحة القول والعمل «فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضّوا من حولك . فاعف عنهم واستغفر لهم

وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكّلين » (آل عمران : ١٥٩) .

فالشورى إذا كانت فى الحياة اليومية واجبة ، فهى فى أوقات العُسْرة أوجب ، وإن ترك الإسلام مداها ومستوياتها وأساليبها مرنة ، مع تغير الأزمنة والأمكنة . وبها يتحقق التماسك الحقيقى بين الحاكم والمحكوم ، ويجد الرأى مسلكه الصحى ، متحركًا بين القيادة والقاعدة ، وبين الأجهزة بعضها وبعض ، كأنها دورة دم فى الجسم ، تتلاقى مع الهواء النقى ليتجدد الدم ، ويتابع أداءه وظيفته .

ولك أن تشبه إبداء الرأى بالبخار المتصاعد من مرجل ، أو بالدخان المتصاعد من عملية احتراق ، أو بالطاقة المتولدة من محرك . لابد لها جميعًا من مسالك واضحة ومحدّدة : بها يتحول البخار إلى قوة محركة ، ويجد الدخان طريقه إلى خارج المصنع ، مع مراعاة ألاّ يلوث الجوّ فى داخله أو خارجه بقدر الإمكان ، وتسرى الطاقة ــ ميكانيكية أو كهربائية ــ فى أنابيبها أو أسلاكها دون تسرب ، أو تؤدى إلى انفجار أو تماس كهربائى وحريق .

لا تكاد تختلف الآراء عن طاقة محركة نافعة ، أو دخان نتخلص منه فى رويّة ورفق . ولا سبيل إلى تجاهله ، فهو موجود . وعدم الاعتراف به قد يؤدى إلى تسميم الجو إذا كان الرأى دخانًا ، وإهدار طاقة فكرية نافعة ، أو إحداث تماس كهربائى فى المجتمع ، إذا كان الرأى صوابًا غير مأخوذ به . وسيحاول صاحب الرأى نشره بوسيلة أو أخرى . وأخطر من هذين أن يؤمن صاحب الرأى الدخان ، بأن رأيه قوة محركة أو طاقة نافعة ، فينطلق بها فى المجتمع مبشرًا ومنذرًا ، ويجمع حولها أحداث السن وضعاف التجربة ، ويقودهم ، وعلى أعينهم غلالة من فورة الشباب ، تدفعهم أحلام شرود ، ليست لها عين مبصرة ولا أذن واعية .

(٤) وقفت طويلاً عند الشورى ، فهى الباب القريب للحوار بين الدولة والأفراد والمؤسسات ، وهى الأب الشرعى لأى خطة شاملة تنظم الحياة فى المجتمع الإسلامى ، وتحدد أبعاد التغيير ، ودور الدولة ، والمؤسسات الشعبية ، والأفراد فيه . ذلك لأن الخطة الشاملة مدعاة إلى انتظام كل فرد فى طريقه ، ومعرفته

حدود مسئولياته ولا أكاد أعرف سبيلاً لتطهير الحياة بعد الإيمان إلا العمل. فالعمل طهر وحياة.

(٥) كنت أسمع من أهلنا قولهم «اليد العاطلة نجسة». يقصدون أن طهر اليد فى أن تؤدى عملاً. وإنك لا تنتظر من شخص فارغ اليد من العمل إلا أن يفكر فى السوء. وأقصد بالعمل ماكان منتجًا مثمرًا. وبهذا ينبغى إدانة صور البطالة المقنّعة، وحشد العاملين بلا عمل فى دواوين الحكومة والشركات، والظلم فى توزيع الأعمال والمسئوليات، وسوء إعداد الأبناء فى المدارس، ليقوموا بدور إيجابى فى الحياة.

وهكذا نجد الخطة المتغيرة تنقلنا نقلاً منطقيًا إلى إعداد أبنائنا للحياة، حتى يشعروا ـ بحق ـ أنهم فيها عناصر إيجابية لها مكانتها، وليسوا مجرد أحجار على رقعة شطرنج، أو نكرات تحركها لوائح صماء، أو نتركهم هَمَلاً يتقاذفهم الموج دون توجيه. وواضح أن هذا التكوين يشمل جوانب الحياة جميعًا: العقيدة والجسم والنفس، وينمى فى نفس الفرد القدرة على التعاون، والسعادة بالأداء، والإيجابية. ذلك لأن السعادة بالعمل تجربة إنسانية ينبغى من أول الأمر أن تكون محل عناية الدولة فى تكوين الأفراد.

بهذا الإطار العام لمسئوليات الدولة يمكن أن يستمر التغيير إلى ما هو أفضل، وأن يكون مساره ـ بقدر الإمكان ـ محسوبًا، واضح المراحل والأهداف.

(٦) وقبل أن أدع مسئولية الحكومة فى تكوين الأفراد وأنتقل إلى دراسة الأفراد أودّ أن أؤكد أمرًا هو ملاك الصلة بينهما: وأعنى به «احترام الفرد»، احترامه كإنسان قال الله فى حقه «ولقد كرمنا بنى آدم» (الإسراء: ٧٠) وهو خليفته فى أرضه، وأرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين.

وحين أستجمع فى ذهنى كيف أن ربنا ـ جلّ وعلا ـ أرسل الروح الأمين، بالقرآن الكريم، إلى خير من حملت الأرض، نبينا عليه الصلاة والسلام، وأن القرآن هدية الله وهدايته لنا، أُحِسُّ كم أكرمنا ربّنا، ليعلمنا كيف يكرم بعضنا

بعضًا . وكيف دعا المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى الرفق بالرعيّة ، والتحذير من البطش بهم . جاء فى الحديث الشريف :

. ـ « يوشك إن طالت بك مدة ، أن ترى قومًا فى أيديهم مثل أذناب البقر ، يغدون فى غضب الله ، ويروحون فى سخط الله » ـ (رواه مسلم عن أبى هريرة) وكنت أتذكر هذا الحديث الشريف إذا رأيت السياط بأيدى أقوام يهوون بها على ظهور بريئة ..

وأذكر من كتاب الإمام علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى الأشتر النخعى حين ولاه مصر :

ـ « وأشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكونَنَّ عليهم سَبُعا ضاريًا تغتنم أكلهم . فإنهم صنفان : إما أخٌ لك فى الدين أو نظيرٌ لك فى الخلق ، يفرط منهم الزلل ، وتعرض لهم العلل ، ويؤتى على أيديهم فى العمد والخطأ . فأعطهم من عفوك وصفحك ، مثل الذى تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، فإنك فوقهم . ووالى الأمر عليك فوقك . والله فوق من ولّاك » . يقول ابن أبى الحديد فى شرحه نهج البلاغة «أشعر قلبك الرحمة أى اجعلها كالشعار له ، وهو الثوب الملاصق للجسد .. » (٤ : ١٢٠ ـ ١٢١ ط . بيروت)

(١٤) الأفــراد

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز :

١ ـ « من اهتدى فإنَّما يهتدى لنفسه ، ومن ضَلَّ فإنما يَضِلُّ عليها ، ولا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى . وما كنَّا معذِّبين حتى نبعث رسولاً » .. (الإسراء : ١٥) .

٢ ـ «إنْ كلُّ من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدًا ، لقد أحصاهم وعدَّهم عدًّا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا .. » (مريم : ٩٣ ـ ٩٥) .

هذه الآيات ونظائرها تؤكد مسئولية الفرد عن عمله فى الدنيا والآخرة ، وتدعوه ـ فى ذات الوقت ـ إلى العمل والإنتاج .

والعمل ـ بطبيعته ـ تفاعل متبادل بين الفرد ومؤسسات المجتمع : يستعد له الفرد ، ويعينه المجتمع على ذلك بِحُسْنِ إعداده ، وتظل الرغبة فى العمل حيّة فى نفسه يشتق منها ـ كما سبق القول ـ سعادةً ورضًا ، تُهوِّن عليه ما يلقى على الطريق من متاعب . يقول الله تعالى :

« ولكنَّ الله حبَّب إليكم الإيمان وزيَّنه فى قلوبكم ، وكرَّهَ إليكم الكفر والفسوقَ والعصيانَ . أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم » . (الحجرات : ٧ ـ ٨) .

ويرتبط هذا بالمناخ الذى توفره الدولة للأفراد فى النواحى الأساسية الآتية :

١ ـ حُسْنَ تنشئتهم .
٢ ـ فتح أبواب العمل أمامهم .
٣ ـ الحوار المستمر معهم .
٤ ـ التقدير لعملهم إذا أحسنوا .
٥ ـ التقويم والأخذ بيدهم إذا أخطأوا .
٦ ـ المحافظة على كرامتهم واحترام حرياتهم .

ولا نكاد نجد فجوة بين الفرد والمجتمع ، إلا من خلال هذه المجالات الستة . ولكل منها معاملاتها الفرعية .

ويبدأ حُسْنُ التنشئة من قبل الميلاد ، ويتأثر بأوضاع الوالدين والأسرة ، ماديًّا ومعنويًّا ، وبما يمكن تقديمه للأبناء من خدمات أو ما يضعه المجتمع أمامهم من معوقات تحول دون النشأة الطيبة . ولنا أن نقارن بين الأبناء فى أحياء تتوفر فيها الخدمات ويرتفع المستوى الاجتماعى والاقتصادى والتربوى ، وبين أحياء أو قطاعات محرومة يعيش أبناؤها بين الحرمان والإقلال ، وينتزع منهم الموت أكثر مما تستبقى الحياة . والذى يعيش منهم ويشق طريقه فى الحياة ، يحاول أن يجنب من بعده مرارة ما قاسى .

لقد ربَّى الله بعض أنبيائه بالحرمان ـ إلى حين ـ ليعرفوا بعده نعمة العطاء .

ويخاطب الله رسوله المصطفى ﷺ قائلاً «ألم يجدك يتيمًا فآوى ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى» ثم يربط بين هذا وأثره الاجتماعى ، تغييرًا إلى ما هو أفضل ، فيوصيه بقوله «فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربّك فحدّث» «سورة الضحى : ٦ – ١١) . كما يُذكّر ربنا المهاجرين بالعطاء بعد الحرمان «واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره . ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون» (الأنفال : ٢٦) .

وإن هدف التكافل بين الفرد والأسرة والمجتمع فى التنشئة ، أن يتكوّن فى الجيل الجديد عرفان الجميل لمن يعيش معهم ، ومن سبقه من الآباء الذين ساهموا فى إقامة حياته ، لينعكس هذا حبًّا وتعاونًا وبناءً . فإذا فتح المجتمع أمام أبنائه أبواب العمل والإنتاج اشتقوا منهما سعادة ، لا تأتى إلا بالممارسه والصبر . ويزداد عرفانهم بالجميل ، إذا وجدوا تقديرًا لما يعملون ، وتقويمًا لما فيه يخطئون .

ومع التطورات السريعة التى تمرّ بها الحياة ، لا نستطيع أن نتجاهل الفجوة التى حدثت بين الأجيال المتتابعة ، وبخاصةٍ بين هذا الجيل ومن سبقه ، وذلك فى الوقت الذى زادت فيه أسباب الاتصال بين الشعوب والثقافات وتشابكت المصالح وتعارضت . ويدعو هذا القلق الذى يمرّ فيه الجيل الجديد إلى مزيدٍ من الحوار معه ، ذلك لأننا إذا أغلقنا أمامه باب الحوار ، حاول أن يجد البديل فى مجموعة الرفاق ، وضعفت العلاقات الطبيعية والصحية الطيبة التى تربطه بأسرته وبمدرسته ، ومنها يستطيع أن يستمدّ توجيهًا ، أو يحلّ مشكلة ، أو يتغلب على عقبة أو يراجع موقفًا ..

ولمجموعات الرفاق اتجاهاتها المتعددة ، فقد يجمعها الدين ، وقد يجمعها العلم ، وقد يجمعها اللهو والعبث ، وقد يجمعها الحقد والثورة على المجتمع ، والرغبة فى تحطيمه ..

وفى نفس الوقت لا نستطيع أن نتجاهل الفجوة الحضارية بين أقطار العالم الإسلامى والعالم الثالث بعامة ، وبين الدول المتقدمة من جانب آخر ، والتى تنعكس على إعداد الجيل الجديد للحياة ، وسرعة الأخذ بالتطورات الحديثة ،

التى تجعل الفرد أكثر قدرة على التلاؤم مع ظرف بيئته الطبيعية والاجتماعية ، وعلى سهولة الانتقال من بيئة إلى أخرى ، سعيًا وراء رفع مستواه الاقتصادى أو البحث عن فرصٍ أفضل للحياة ، أو موطنٍ جديدٍ يحس فيه أنه أكثر قدرة على التعبير عن ذاته ، متحررًا من بعض القيود التى كانت عليه فى موطنه السابق .

وإن إعداد الأفراد فى عالمنا الإسلامى ـ من هذه الناحية ـ مازال دون المستوى المتوفر فى العالم الغربى ، ولسنا فى مجال بحث الأسباب التى أدت إلى ذلك ، ونكتفى برءوسها : وأبرزها استنزاف ثروات العالم الثالث لصالح العالم المتقدم تحت أسماء الاستعمار القديم والجديد ، وما خيّم على عالمنا الإسلامى من جمود وصراعات داخلية ، استهلكت الكثير من طاقته ، وما فرضه المستعمرون على ديارنا من قيودٍ عاقت مسيرتها إلى غدها .. فكان منا ومن عدونا على أنفسنا أغلالٌ وسدود ..

وصحب هذا فجوة تاريخية أخرى بين مسئوليات الحاضر وقوة دفع الماضى بأمجاده ودروسه .. أقول دفع الماضى باعتباره قوة مؤثرة فى الحياة لا مجرد تفاخر وتكاثر عقيم . هذا الانقطاع ـ أو على الأقل ضعف الروابط ـ بين الشباب وما حوله ، وبينه وبين مستقبله ، وبينه وبين ماضيه ، وبينه وبين القدرة الحقيقية على تجسيد آماله ونقلها من عالم الفكر إلى واقع الحياة ، أدى إلى هذا الضياع أو الشتات الذى نرى فيه شبابنا الإسلامى ، أو قطاعًا غير صغير منه ..

ومن هنا كانت تصرفاته متصفة بالتوتر على المستوى الأسرى ، وفى علاقاته بالمجتمع وبالدولة .. وكانت ردود الدولة ـ إزاء بعض التصرفات ـ عنيفةً أيضًا ، حاولت فيها أن تصون الأمن العام ولو على حساب الحوار والحريات .. ومع إحساس الشاب بأن الدولة تهدد بعض حرياته أو كلها أحيانًا ، اتسعت الفجوة فيما بينهما ، وأصبح البحث عن معابرٍ بين الأفراد والدولة ضرورةً لها شقان : شق تقوم به المؤسسات الشعبية وشق تقوم به المنظمات الدولية الإسلامية .
وينقلنا هذا إلى :

(١٥) المؤسسات الشعبية

وعند هذه المرحلة من الحديث يحسن أن نقف قليلاً لنرى بعض التقسيمات التى شاع استعمالها حديثًا ، حتى عن الإسلام . لقد أصبحنا نسمع عن «الإسلام الحكومى» و «الإسلام الشعبى» . الأول تابع للحاكم ، معبر عن وجهة نظره . والمؤسسات الدينية فيه صدى لإرادة الحاكم واتجاهاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على الصعيد المحلى والعالمى . بينما «الإسلام الشعبى» نبع صادق من وعى الناس وإرادتهم . هكذا يقولون .

وتقتضى هذه الثنائية تقسيم العلماء إلى : حكوميين وشعبيين ، وإلى وضع العلماء الذين يعملون فى الجهاز الحكومى موضع إدانة أو شك أو مهادنةٍ . ولا أدرى لمصلحة من يمر العمل الإسلامى بين هذه الأقواس ؟ ولا أريد أن أتجاهل سيطرة الأجهزة التنفيذية على الأجهزة الدينية ، باعتبارها جزءًا من الجهاز الحكومى الكبير . وهى سيطرة قد تمتد أحيانًا إلى القضاء وإلى التشريع .

فما دور المؤسسات الشعبية فى هذا الأمر ؟

وأود أن أسجل ـ ابتداءً ـ أن هذا التقسيم ـ بين حكومى وشعبى ـ طارئ على الفكر الإسلامى السليم . وعندما قام الإسلام ، لم تكن هناك ثنائية الحاكم والمحكوم ، والسلطة والشعب . وبدأ هذا مع الفتنة فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه . وبقيت الثنائية فى بعض العصور والأقطار الإسلامية : الشعب المسلم يمارس حياته اليومية آداءً لفرائض الإسلام ، واتباعًا له ، واقترابًا منه . أو ابتعادًا عنه ، إذا مسه طائف من هوى الأنفس والغواية . والحاكم يعدل ويظلم ، ويحاول المحافظة على الاستقرار ـ كما يراه ـ . وهناك من يتربص به ، أو يحاول الوثوب إلى الحكم ، وهو يظن بأنه أحق به وأقدر على حمل مسئولياته ، ويحاول أن يجمع من حوله الأعوان . وقد لا تصل المعارضة إلى محاولة تغيير نظام الحكم ، وإنما تغيير ما فيه من سلبيات علىّ أساس شامل ، أو نوعى يختص بناحية معينة .

هذه التناقضات والصراعات لا خوف منها ، ما دامت هى ومحاولات التغلب عليها ومعالجتها ، تتم فى إطار يرتضى الطرفان أو الأطراف أدواته وأسلوبه .

كالكلمة المقروءة أو المكتوبة أو المنطوقة ، أو الحوار ، أو المجتمع الذى يستهدف التعبير عن الرأى ، دون عدوان . ولكن حين يبدأ الخلاف على الوسائل - حتى لو اتفقت الغايات - ، فإن الحوار يدخل مرحلة حرجة قد تؤدى إلى صدام بين الأطراف ، كثيرًا ما تدور فيه الدائرة على المحكومين.

وعلى امتداد تاريخنا الطويل ، كان الذين يحكمون ، والذين يقاومونهم ، يستندون إلى آياتٍ من كتاب الله ، وأحاديث من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وحججٍ يستمدونها من واقع الحياة . وعميق قول الإمام علىّ بن أبى طالب الذى أوصى به عبد الله بن عباس - رضى الله عنهم أجمعين - حين بعثه للاحتجاج على الخوارج «لا تخاصمهم بالقرآن . فإن القرآن حمّال ذو وجوه ، تقول ويقولون ، ولكن حاججهم بالسنة ، فإنهم لن يجدوا عنها محيصا » (شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد مجلد ٤ جـ ١٨ ص ٢٣٦ - ٢٣٧) ، ولقد حاججهم أمير المؤمنين بالكتاب والسنة معا . فالسنة مبينة للقرآن مصداق قوله تعالى «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم» (النحل : ٤٤) .

وأكاد أقول : إننا لو أحصينا من أتت عليهم الحروب الداخلية ، بين الدول الإسلامية ، والصراعات بين الحكومات والشعوب ، والجهود والأموال التى بذلت فى هذه السبيل ، وما صحبها من سجون ومعتقلات وتشريد وضحايا ، لوجدنا قوائم لا تقل حجمًا وخطرًا ، عما بذله المسلمون دفاعًا عن أنفسهم ، ضد أعدائهم ، وحماية لأوطانهم .

ومازلت أذكر - بكثير من الأسى - مشاهد من حوار مع الشباب - فى أكثر من دارٍ من ديار الإسلام ، وعلى امتداد سنين . وكان اتجاه الصراع عندهم نحو الحاكمٍ المباشر . وللحاكم نفس الموقف . وكنت أقول :

- ألا نستطيع أن نغيّر الصورة ، ونوجّه طاقتنا أول ما نوجّه إلى أعدائنا الذين اغتصبوا أرضنا ومقدساتنا ؟ ألا نستطيع أن نوجّه الطاقة إلى التكوين والتنمية ، ونحاول حل مشكلاتنا الداخلية بحوار سلمى ؟ .

إن عدونا لا يريد منا أكثر من أن نستنزف طاقاتنا فى صراعات داخلية على

مستوى القطر الواحد . أو مستوى إقليمى بين الدول الإسلامية المتجاورة أو المختلفة فى أنظمتها ، ونتحول إلى عبادة الأنظمة والشعارات . والالتفاف حولها . والدفاع عنها ، والهجوم عليها . وتضيع الأوقات فى تصنيف العالم الإسلامى بين قوى ومعسكرات : هذا تقدمى وهذا رجعى . هذا علمانى وهذا سلفى . هذا يمينى وهذا يسارى . وصوت الحق ينادينا جميعا «إنّ هذه أمّتكُم أمّةً واحدةً وأنا ربُّكم فاعبدون» (الأنبياء : ٩٢) .

وأتصور أن العلاقة الثنائية بين الأفراد وتكويناتهم الخاصة وبين الحكومات يمكن أن تتحول إلى علاقة رباعية بأن نضيف إليها مستويين :

الأول : مستوى المؤسسات الشعبية الوطنية .

الثانى : مستوى المنظمات الإسلامية العالمية لتنسيق وتوثيق التعاون بين الحكومات ، وكوسيط خير لما يشجر بين حكومة وأخرى أو بين حكومة وشعب .

وفى مستوى المؤسسات المعبرة عن رأى الشعب نستطيع أن نميّز خطّين :

الأول : المجالس النيابية التى تعبر تعبيرًا حقيقيًّا عن إرادة الشعوب الإسلامية وإيمانها بربها وبالإسلام .

الثانى : الجمعيات والنوادى والنقابات . وهذه يمكن أن تحلّ جزئيًّا محلّ المجالس النيابية إذا لم تكن قائمة ، وتعينها على عملها عند قيامها به .

والذى لا ريب فيه ، أن تكوين وإرساء تقاليد الحوار السلمى والإيجابى ، بين الأفراد والمؤسسات الشعبية بشقيها ، وأجهزة الدولة التنفيذية ، مع استقلال القضاء وقداسته ، يستغرق وقتًا طويلاً ، ويمرُّ فى تجارب تنجح أحيانا وتفشل أخرى ، ولكن لا سبيل إلى إرساء تقاليد الحوار الصحى إلا بالصبر الطويل على تجاربه وترشيده ، دون إجهاضه قبل ولادته ، أو وأده بعدها ، أو اغتياله عندما يشتد ساعده .

وقد يختار بعض الحكام ، فى بعض العصور والأقطار ، طريق سلطان الفرد ، أو حكم القلة . هذا الطريق إذا كان أكثر حسمًا فى الإنجاز ، وسرعة فى الوصول إلى الهدف ، إلا أنه يحيا بفرد ويموت بفرد . وهو غير إنسانى فى جوهره ،

حتى وإنْ أعطى رخاءً ماديًّا ظاهرًا . وفرق كبير بين صبر الأجهزة الحاكمة - ومعها الشعوب ، على معاناة الديمقراطية حتى تستوى على سوقها ، وبين تربية لا تختلف عن رعاية قطيع وتوفير الخدمة الطبية والغذاء الكافى له : ستزداد الحيوانات لحمًا وشحمًا ، وتكثر أشعارها وأصوافها ، ولكن هذا لن يرفعها فوق مستواها الحيوانى .

لا بد من تفاعل حقيقى بين الإنسان وإنجازات الحياة فى مجتمعه . لابدّ من احساسه بذاته وبمجتمعه وبمؤسساته وبالدولة . لابدّ من مشاركة وترابط عضوى حقيقى ، لا افتعال فيه ، يتنفس به الفرد روح الجماعة - وتصون الجماعة حقوق الأفراد ، وتعينهم على أن يؤدّوا واجباتهم .

وحين يحس الفرد أنه يستطيع أن يصرّح بالرأى ، فينال حقه من الحوار والدراسة ، ويجد طريقه إلى التنفيذ إن كان صوابًا أو ممكن التطبيق ؛ أو يعاد إليه لمزيدٍ من الفحص ، وحين يُحِسُّ معنى الاستمرار فى العمل والتواصل المثمر ، سيزداد حرصًا على المجتمع الذى يعمل فيه - ورغبة فى إثرائه بجهد اليد والفكر .

هذا جانب من دور المؤسسات كوسيط بين الأفراد والدولة . ولها ــ إضافة إليه ــ تعاونها مع نظائرها على المستوى الإسلامى ، صعودًا إلى المستوى العالمى .

وينقلنا هذا إلى الحديث عن :

(١٦) المؤسسات الإسلامية العالمية

آثرت أن أضع هذه المؤسسات بعد المستويات الثلاثة الأخرى - ذلك لأنها ــ بصورتها الحالية ــ أحدث ما أبدع الفكر الإسلامى المعاصر من صور التعاون . فبعد إلغاء الخلافة الإسلامية فى عالم ١٩٢٤ ، لم يرتفع للمسلمين صوت يستطيع أن يقول ــ ويصدقه العالم الإسلامى ــ إنه يمثل الدول الإسلامية أو العالم الإسلامى . كانت هناك محاولات لإنشاء مؤسسات أو مجامع إسلامية - ولكن لم يكتب لها أن تستمر ، وما استمر منها فقد انحسر ظله - وإنْ ظلّ يدور فى فلك الدولة التى أنشأته أو استضافته .

وجاء إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامى بعد حادث هزّ أركان العالم الإسلامى ، وهو حريق المسجد الأقصى فى ٢٦ أغسطس ١٩٦٩ . وأشارت أصابع الاتهام ــ بكل تصميم وتحديد ــ إلى الأيدى الصهيونية . واحترق المنبر الذى أقامه صلاح الدين بعد استرداد بيت المقدس فى عام ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م . وقاوم أبناء القدس البواسل النيران وآثارها . ولكن ما زال المسجد بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الصيانة والرعاية والحراسة من أى غدرٍ جديد .

والتقى ملوك ورؤساء وأمراء العالم الإسلامى فى مؤتمر القمة الإسلامى الأول فى الرباط ، واتفقوا فى ديسمبر من نفس العام على إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامى وعلى أن يجتمع وزراء خارجية الدول الإسلامية لتنفيذ هذا القرار الكريم . ونستطيع أن نعتبر هذا أول جهدٍ شامل يضم الحكومات الإسلامية ، بعد إلغاء الخلافة الإسلامية فى عام ١٩٢٤ .

أكثر من نصف قرن مضى على العالم الإسلامى ، وقد غاب عنه هذا الرمز الدال على وحدة الإرادة ، وإن بقيت له وحدة العبادة ، وحدثت خلاله محاولات متضادة الاتجاهات ، أبرزها مجموعتان :

أولاهما : تدعو إلى تأكيد الهوية الوطنية ، واعتبار «الدولة» هى السلطة العليا ، فى أمور القومية والوطنية والعقيدة . ومع أن هذا الاتجاه فى عالمنا العربى تراوح بين المستوى الوطنى الذى يؤكد سيادة الدولة والمستوى القومى الذى يرمى إلى دعم سلطان الجامعة العربية ، إلا أن الكلمة العليا ــ عمليًّا ــ فى شئون أى دولة أو شعب عربى ، لا تزال للدولة ذاتها .

والثانية : ترمى إلى تأكيد الشخصية الإسلامية أو على الأقل إبرازها كعنصر من عناصر الحياة ، فى عصر تتجه فيه الوحدات إلى التكتل .

ذكرت هذا لأبيّن أننا فى المراحل الأولى من دورة تعاون إسلامى شامل ، وعلينا أن نرعاه ونحسن الإفادة منه . وقد بدت أوائل ذلك بتكوين عدد من المؤسسات الإسلامية العالمية المنبثقة منه ، كصندوق التضامن الإسلامى . والذى أتصوره أمران فى هذا المجال :

أولاً : أن نحافظ على ما تم إنجازه ـ على طريق التعاون الإسلامى ـ ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً . وأن نحمى هذه الخطوات الإيجابية من سلبيات السياسة وانتكاساتها .

ثانيًا : أن نمهد السبيل ليكون من المؤتمر «مرجع إسلامى» نرد إليه ما نختلف فيه ، وما يشجر بيننا كدول ، أو ما بين الدولة وجماعة من أبنائها .

وقد يبدو هذا الأمر مسرفًا فى التفاؤل فى هذه المرحلة . وقد يتساءل البعض : ما علاقة هذا بما نحن فيه ؟ وأودّ أن أذكر نموذجًا عمليًّا يوضح ذلك :

لنتصور أننا ـ كدول إسلامية ـ قررنا أن نختار من بيننا عشرين شخصية من أعلامنا ، الذين نرتضيهم علمًا وخلقًا . وزهدًا فى المناصب . وإنتاجًا علميًّا . ومحبة ألقاها الله عليهم . ومهابة إيمان وسعة أفق ، وتكاملاً فيما بينهم فى المعرفة ، بحيث يمثلون العالم الإسلامى فى ثقافته ودياره . ووفرنا لهم حصانة فى مَوَاطنهم وعند لِقائهم ، ولقرارهم احترامًا . فإذا قالوا فبالإسلام يقولون ، وبه يحكمون . ثم جئنا بهذه القضايا التى تثور بين الشباب الإسلامى وبين الحكومات وطرحناها عليهم ليحاولوا حلها .

قد يطلبون لقاء هذا الشباب . حَسَنًا ، فلنوفر لهم ذلك . ولا نحول بينهم وبين الاستماع إليه فى ظروفٍ إنسانية ، ودون قهر أو ضغط ، ودون رقابة عليهم إلا من إيمانهم .

قد يطلبون بعد هذا لقاء بعض الحكام والمسئولين . حسنًا . فلنوفر لهم ذلك .

سيقومون بجمع المعلومات وفحصها ، ويقدمون الحلول . وفى الغالب ستكون هذه الحلول ذات شقين ـ أو لنفرض ذلك تيسيرًا للبحث على الأقل ـ منها شق يتعلق بتعديل سلوك الشباب ، وشق يتعلق بتعديل سلوك الحكومة المعنية . وقد تدخل هذه الهيئة ـ بعد وصولها إلى الحل ـ فى حوار مع الشباب والحكومة ، أحدهما أو كليهما . وإنه من الأيسر على الحاكم ـ نفسيًّا وعمليًّا ـ أن يستمع إلى هذا الرأى وأن ينفذ ويحاول تنفيذ ـ توصيات هذه الهيئة من أن يستمع إلى صوت الشباب وحده . وأحيانا يجد الحاكم نفسه محتاجًا إلى من يفتح له الطريق لتعديل

سلوكه ، أو من يقوم بدور الوسيط ، إذا تأزم الأمر بين حكومة وحكومة ، أو بين حكومة وشعبها .

وهنا قد ترتفع أصوات لتقول :

ـ هذا انتقاص من سلطان الدولة .

وأبادر فأقول :

ـ ولماذا لا يكون هذا عونًا للدولة وعونًا للشباب ؟ ولماذا لا يكون هذا صورةً من الإخاء الإسلامى العالمى ؟ ولماذا يسهل علينا قبول فكرة محكمة العدل الدولية ، ولا يسهل علينا أن نختار من علمائنا صفوة يحكمون بشريعة الله فيما شجر بيننا ، ولهم من إدراك الحياة ، ومتغيراتها وعمق النظرة وسعتها ، ما يعين على تبين الطريق ؟

ومرة أخرى :

ـ ما هو البديل ؟ انفجارات شباب هنا وهناك . آراء تتجمع وتتضاغط فى نفوس غضة ، وترتفع حرارتها وتلتهب ، ومن ورائها النار والدمار ، وحَفْر أخدودٍ دموى بين الحاكم والمحكوم والإسلام والعمل له ؟

ولا نستطيع أن نتجاهل أن جانبًا من تصرفات بعض المسئولين فى حكوماتنا الإسلامية فى حاجة إلى مراجعة وتعديل . وأن هؤلاء ـ بين مسئوليات الحكم أو سلطاته ـ قد لا يجدون وقتًا يراجعون فيه أنفسهم بدقةٍ . أو لا يجد مَنْ حَوْلهم الشجاعة لمراجعتهم . ولقد كان من أدب خلفائنا أن يطلبوا النصيحة من العلماء المخلصين ، فكان فى هذا صلاح الحكام والعلماء . والحكام والعلماء ، كاليدين تتكاملان وتتعاونان . ولم يفرض العلماء أنفسهم على الحكام ، وإنما هم كمورد الماء من جاءه وجد عنده ريًّا من ظمئه .

ولن يصح هذا الاقتراح إلا إذا كانت هذه الصفوة المنتقاة محل رضا من الحكام والمحكومين على الصعيد الإسلامى . فلنحاول هذه التجربة فى قضايا الشباب أولاً ، إذا كانت فكرتها محل قبول . ولنبدأ بها محدودة النطاق ، ولا نحمّلها من أول الأمر ما لا تطيق ، حتى نعطيها فرصة التدرج فى النجاح .

(١٧) خــاتمــة

سيقتضى هذا جهودًا متكاملة فى المجالات الآتية :

أولا : دراسة لحركات التغيير فى العالم الإسلامى وبخاصة فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الهجرى (وقد أشرت إلى هذا فى الندوة الإسلامية الرابعة فى هذا البلد الطيب ـ القيروان ـ منذ عامين) . وهى دراسة لا تقتصر على الجوانب النقلية فقط ، من حيث علاقة وتقييم هذه الحركات فى ضوء مصادر الشريعة ، وإنما تمتد لتشمل المضمون الاجتماعى والاقتصادى والسياسى جميعًا . دراسة فيها تشريح وتحليل ومقارنة . ولنميز ـ وبكل وضوح ـ بين الجمع الأمين لوثاق أمر من الأمور ، وبين تقييمه وإصدار الحكم عليه . ولنذكر دائمًا أننا فى مسائل خلافية ، وأننا نحاول أن نرسى لها تقليدًا جديدًا فى الحل .

وعندما كنت أعرض هذه الحلول على صديق مختص ، أذكر أنه قال :

ـ ليس من اليسير على مسئول أن يتنازل عن بعض سلطاته أو يعدّل من سلوكه ، استجابة لصوت الشباب ، أو استماعًا إلى نقد . إن السلطة تنتزع ولا توهب . والطريق إلى الحوار الديموقراطى يمر عبر برزخ من المعاناة الطويلة .

قلت : ألا يكفى ما بذل العالم الإسلامى طيلة هذه القرون ؟ ألا نحاول هذه المرة متعاونين أن نرفع من شأن «الكلمة» . إن القرآن كلام الله تعالى ، والحديث كلام الرسول عليه الصلاة والسلام وفعله وتقريره . والتوحيد كلمة بها قامت السموات والأرض .

ستقتضى هذه الدراسات اتصالاً بالمصادر الشعبية والحكومية ، وحصرًا لصور من المعاناة ، لو بقيت دون أن تجد مسالك أفضل ، لعادت سيرتها مرة أخرى يحركها الألم القديم .

ثانيًا : إيجاد الترابط بين المستويات الأربعة المقترحة : الأفراد ، المؤسسات المعبرة عن رأى الشعب ، الحكومات ، المنظمات الإسلامية العالمية وذلك دون الاقتصار على أسلوب التسلسل الصارم من مستوى إلى ما فوقه أو ما دونه ، ولكن

بفتح أبواب الحوار الخصب بين المستويات الأربعة ، ولا أريد أن أدخل فى أبعاد هذا الحوار ، ولكن الذى أودّ أن أؤكده هو شعور الفرد أو المؤسسة الشعبية أنها قادرة على الاتصال بالمستوى الإسلامى العالمى . وشعور الدولة بأن هناك أجهزة لها مكانتها واحترامها ، يمكن أن تعينها على حل بعض مشكلاتها الداخلية ، دون أن ترى فى هذا عدوانا على اسقلالها . فالجميع سيعملون ابتداءً من القدر المتاح من حرية الحركة والاتصال .

ثالثًا : القيام بدراسات تدعم هذا التعاون ، وتساعد على أن يسير الحوار بين المستويات الأربعة ، فى جو يتوفر فيه أكبر قدر من الإخاء والتعاون . وستمتد هذه الدراسات لتشمل آفاقًا واسعةً من : الدعوة إلى الله وأساليبها ، وطرق الحكم على الأفراد والمؤسسات والحكومات ، ومدى احترام الإسلام للسلطة القائمة ، والدعوة إلى الحوار معها وترشيدها ، والحذر الشديد من المسارعة إلى تكفير الأفراد أو المؤسسات أو الحكومات والانعزال عنها . وسيمتد ليشمل طريقة تقديم الإسلام إلى أبنائنا فى مدارسهم ، وما ينبغى علينا أن نقوم به من تحبيبهم فى العمل والإنتاج ، وسعادتهم بأن يضيفوا إلى بناء الإسلام حجرًا ، أو يزرعوا فى حقله زرعًا ، أو يستردوا من دياره المغتصبة شبرًا ، أو يساهموا فى ثقافته بإضافةٍ ، أو يحافظوا على حوزته فلا ينتقص منها شىء .

مكتبة البحث

علاقة المراجع بالمنهج :

١ ـ يستهدف هذا البحث توضيح السمات العامة لحركات التغيير الإسلامى دون دخول فى تفاصيل كل منها على حدة ، ومسار الأفراد خلال قنواتها ، وما زال لبعض الهيئات ـ التى عرض لها البحث ـ مواقفها الإيجابية أو السلبية مع حكوماتها .

٢ ـ هدف هذه الدراسة مستقبلىّ ، ويستند إلى حقائق الماضى بقدر ما توضح الطريق إلى الغد .

٣ ـ جانب غير قليل مما جاء فى البحث : تجارب ذاتية مرّ بها الكاتب ، خلال عشرات السنين من العمل الإسلامى ، واتصالات مباشرة مع الحركات الإسلامية ، على مستوى قياداتها والعاملين فيها ، ومتابعة لإنتاجهم الفكرى ، وما مروا به من صراعات واختبارات . وأوسعها مساحةً وأكثرها عمقًا ما مرّ به الإخوان المسلمون فى محنهم الثلاث ١٩٤٨ ـ ١٩٥٤ ـ ١٩٦٥ م .

٤ ـ مما يزيد الأمل فى أن يحل الحوار محل الصدام ، أن نجد اتجاهًا آخذًا فى العمق والقوة ، نحو تغليب العقل وتحكيمه ، والارتفاع بمكانة الكلمة ، وعدم اللجوء إلى العنف فى حلّ قضايا التغيير فى المجتمع الإسلامى ، والتعبير عن دوافعه وأهدافه . وفى هذا أذكر المجموعة الآتية من مراجع الدراسة :

دعاة لا قضاة :

آثرت أن أختار هذا العنوان لهذه المجموعة من المراجع لأنه يعبر عن خط فكرى يبدو فيها جميعًا ، مع اختلاف مواقع كاتبيها :

١ ـ حسن إسماعيل الهضيبى (المرشد العام للإخوان المسلمين ـ رحمه الله) . دعاة لا قضاة .

(أبحاث في العقيدة الإسلامية ومنهج الدعوة إلى الله) .
دار الطباعة والنشر الإسلامية ـ القاهرة ١٩٧٧ م .

جاء في مقدمة الناشر «لقد كان مما ابتلى به الإخوان في سجونهم ومعتقلاتهم ما أظهره البعض من رأى نادى بتكفير المسلمين أو التشكك في حقيقة إسلامهم وإيمانهم . ولقد سارع الإخوان ـ رغم قسوة سجنهم ومعتقلاتهم ـ إلى تصحيح هذا الفهم . وقال مرشدهم آنذاك ـ رضوان الله عليه ـ ردًّا على تلك الدعوى كلمته الجامعة «نحن دعاة ولسنا قضاة» وأشرف على وضع أبحاث في عقيدة أهل السنة في الموضوعات التي أثار حولها أصحاب تلك الدعوى شبهات» (ص ٥ من الكتاب) .

٢ ـ وزارة الأوقاف ـ جمهورية مصر العربية

قبسات من هدى الإسلام القاهره ١٩٧٥ م

كتب مقدمته المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي وزير الأوقاف وشئون الازهر الأسبق ، وقام بتأليفه المكتب الفني لنشر الدعوة بالوزارة . وجاء هذا بعد قيام جماعة «أهل الكهف» أو «جماعة الهجرة» ، (وهي التي أطلق عليها في أثناء التحقيقات جماعة التكفير والهجرة) يقول الدكتور الذهبي رحمه الله في مقدمة الكتاب : «وغالب الظن أن هذه الجماعة ليست إلا فئة من الشباب ينشد التدين في أسمى صورة وأبعدها عن مظاهر فساد الخلق وانحراف السلوك . ويبدو أن فريقًا من المتطرفين قد استغلوا في هذا الشباب حماس الدين ، وصوروا لهم المجتمع الذي يعيشون فيه بأنه مجتمع كافر يجب مقاومته ، ولا يجوز معايشته . والرأى عندى أن هذا الشباب ضحية الإهمال والتقصير في التوعية الدينية . وواجبنا كمسئولين أن نعمل على انتزاعه من بين براثن الزيغ الذي أسلم نفسه إليه» .

ومما يستوقف النظر عند المقارنة بين هذين الكتابين : اعتماد الثاني على الأول في أكثر من موضع . وقد يبدو الأول لاحقًا للثاني ، ولكن إذا تذكرنا أن بحوثه كتبها الأستاذ الهضيبي في فترة سابقة ولمناسبة خاصة ، زادت الصورة وضوحًا أمامنا . وكان أكثر اعتماده بعد القرآن وكتب الحديث على تفسير القرطبي وكتابَيْ

المحلّى والإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم الأندلسى .

٣ ـ يوسف القرضاوى (أ . د)
ظاهرة الغلو فى التكفير
مجلة المسلم المعاصر العدد (٩) ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م
ص ٥٣ ـ ٨٩

وهو بحث تمهيدى لكتاب يعده فى هذا الموضوع . وانتهى فيه إلى بيان مدى الخطأ الجسيم . الذى سقط فيه «إخواننا» الذين أسرفوا فى «التكفير» حتى غدوا يكفرون الأفراد والمجتمعات .بالجملة ، معرضين عن كل ما يخالف وجهتهم من نصوص الشرع وأدلته ، متذرعين بالتعسف فى التأويل ، والاستدلال بما ليس بدليل ، مخطّئين كلَّ من لا يوافقهم من علماء الأمة وأئمتها فى القديم والحديث ، زاعمين لأنفسهم أنهم بلغوا درجة الإمامة والاجتهاد المطلق ... (ص ٨٨) وإنى لأعلم علم اليقين أن فى هذه الجماعات المتطرفة شبابًا مخلصين لا يريدون إلا وجه الله . ولكنهم لم يتحصنوا بثقافةٍ إسلاميةٍ أصيلة وصادفت هذه الأفكار قلوبًا خاوية فتمكنت منها (ص ٨٩) .. ويوم تشرق شمس الدعوة إلى الإسلام المتكامل ، ويعلو صوتها بلا خوفٍ ولا إرهاب لن يكون هناك مكان لأهل السراديب من الغلاة والمتطرفين .. (ص ٨٩) .

٤ ـ سالم على البهنساوى (المستشار)
الحكم وقضية تكفير المسلم
من سلسلة (ولاتتبعوا السبل) ط . دار الأنصار ـ القاهرة ١٩٧٧ م .

وهى دراسة قائمة على اتصال مباشر بين المؤلف والقائلين «بتكفير من ارتكب معصية من المعاصى ، بل بكفر جميع المسلمين وإن صاموا وصلّوا وتطهروا» .. ويقول «ووجدنا من يضيف بدعة المفاصلة الشعورية ، وتعنى مجاراة المسلمين فى عباداتهم ومعاملاتهم مع الاعتقاد بكفرهم . لهذا رأيت من الواجب أن أعرض هذا الفكر حيث أتيح لى الاطلاع على أبحاثهم ووسائلهم ومناهجهم» (ص ٨ من الكتاب) .

ويعنى هذا الكتاب كما عنيت أبحاث الأستاذ الهضيبى بالدراسات المقارنة مع الاستناد إلى الكتاب والسنة . ويعرض الكتابان لآراء الأساتذة حسن البنا (المرشد العام الأول للإخوان المسلمين) وأبى الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية وسيد قطب (رحمهم الله جميعًا) وبخاصة فى موضوعات التكفير والحاكمية والجاهلية .

التراث الفكرى للجماعات الإسلامية :

وترِدُ تحت هذا العنوان مجموعة كبيرة من المؤلفات أبرزها مؤلفات الأستاذ البنا (مذكراته ورسائله) والأستاذ المودودى ـ وبخاصة فى هذا المجال ـ : المفاهيم الأربعة ومنهاج الانقلاب الإسلامى بالإضافة إلى تفسيره الجامع (تفهيم القرآن) ، ومؤلفات الأستاذ سيد قطب وأهمها هنا : فى ظلال القرآن ومعالم على الطريق .

من فكر القائلين بالمفاصلة وحرب المجتمعات القائمة :

كنموذج لهذا الفكر نذكر :

سبع رسائل فى الفتن وأخبار المهدى والدجال ونزول عيسى عليه السلام وأشراط الساعة . كتبها جهيمان بن محمد بن سيف العتيبى (بدون تاريخ ولا مكان نشر) . ويلخص منهاج نصر الدين فى ثلاثة أمور :

١ ـ أن نقول بالحق فى الدعوة لتوحيد الله عز وجل والتبرؤ من الشرك وأهله والبدع وأهلها والمعاداة فى ذلك وتحرى المتابعة لمحمد ﷺ .

٢ ـ عند ذلك يحصل الإيذاء والإخراج من الديار والأموال وتكون الهجرة إلى مكان يجتمعون فيه .

٣ ـ ثم بعد ذلك يكون القتال . وإليك الأدلة . وبعد ذكر الآيات القرآنية يقول : «ويتبين لك هذا فى أعمال النبى ﷺ»(ص ١٧٨ ـ ١٧٩ من رسالته عن «ملة إبراهيم») كما أنه ربط بين أحاديث الفتن فى كتب السنة وبين الأحداث المعاصرة والحاضرة بالأسماء والأماكن (ص ١١ ، ١٢ فى رسالته عن الفتن .) .

من الدراسات الوثائقية عن الحركات الإسلامية :

١ ـ ريتشارد ميتشل (بالانجليزية) RICHARD MITCHELL :

The Society of the Muslem Brotherhood. Oxford-University Press, 1969

جمعية الإخوان المسلين : مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٩

ويدرس فيه نشاطها منذ نشأتها إلى عام ١٩٥٥ واعتمد فيه على حصيلة ضخمة من الوثاق فضلاً عن حياته فى مصر ما بين ١٩٥٣ ـ ١٩٥٥ واتصاله المباشر بالإخوان والحياة العامة .

وللكتاب ترجمة عربية عليها تعليقات : دار البحوث العلمية ـ الكويت .

٢ ـ أحمد رائف

البوابة السوداء . التاريخ السرى للمعتقل

دار اللواء ـ عمان ١٩٧٤ م

ويؤرخ لاعتقالات ١٩٦٥ للإخوان المسلمين بمصر.

ويعطى صورة من وراء الأسوار لفترة ندعو الله أن نتجاوزها فى عالمنا الإسلامى ، إلى حوارٍ بالكلمة الطيبة وتوجيهٍ لطاقة الشباب إلى ما هو أحسن .

وكما قلت : ينبغى أن نجمع الوثائق كلها ونخضعها لدراسة نحاول بها أن نشق للعمل الإسلامى طريقًا جديدًا قائمًا على التعاون والتدرج وتوثيق الصلة بين المستويات الأربعة التى أشارت إليها المقترحات . ولعلنا بهذا نقترب من « الأمة الوسط » التى وجهنا إليها ربنا وهو المستعان . جعلنا الله من الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

تم بحمد الله .

كتب للمؤلف

أولا : المجموعة الإسلامية :

١ ـ دروس من غزوة أحد	عالم الكتب ،دار المعارف	القاهرة
٢ ـ مواقف إسلامية	دار المعارف	القاهرة
٣ ـ أحاديث رمضان	دار المعارف	القاهرة
٤ ـ خطوات نحو القدس	دار المعارف	القاهرة
٥ ـ الإسلام والعصر	دار المعارف	القاهرة
٦ ـ الإسلام والمستقبل	دار المعارف	القاهرة
٧ ـ فى المحراب	دار الجمهورية	القاهرة
٨ ـ الإسلام والتفرقة العنصرية	دار المعارف	القاهرة
(له طبعات بالإنجليزية والفرنسية)	اليونسكو	باريس
(وطبعة بالفارسية)	اليونسكو	طهران

ثانيا : المجموعة الجغرافية العامة والإسلامية :

٩ ـ قضية كينيا	وزارة الثقافة	القاهرة
١٠ ـ دراسات فى إفريقيا المعاصرة	دار القلم	القاهرة
١١ ـ جغرافية الإسلام فى إفريقيا	معهد الدراسات الإسلامية	القاهرة
١٢ ـ فى أرض النيل	عالم الكتب	القاهرة
١٣ ـ دراسات فى الجغرافيا البشرية للسودان	معهد الدراسات العربية	
	ودار المعارف	القاهرة

ثالثا : دراسات عربية بالاشتراك :

١٤ ـ دراسات فى المجتمع العربى	الانجلو المصرية	القاهرة
١٥ ـ المجتمع العربى	النهضة العربية	القاهرة

عن المؤلف

شغل المؤلف المناصب العلمية والتنفيذية الأتية :

١ ـ أستاذ الجغرافيا البشرية بجامعة القاهرة .

٢ ـ مدير جامعة الكويت .

٣ ـ نائب رئيس الوزراء للشئون الدينية ووزير الأوقاف وشئون الأزهر بجمهورية مصر العربية .

٤ ـ الخبير بالديوان الأميرى ـ الكويت .

تم بحمد الله

فهرس

مقدمه الصفحة

القسم الأول : الرسول

القسم الثانى : المجتمع

القسم الثالث : منهج البناء

رقم الإيداع ٥٠٦١/٨٠ -

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني هاتف : ٧٥٤٣١٤ برقيا : شروق القاهرة - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE